



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة ديالى
كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم التاريخ - الدراسات العليا



إفريقيا جنوب الصحراء من خلال مؤلفات المؤرخين المصريين في القرن التاسع الهجري (القلشندي (ت ٥٨٢١هـ) والمقريري (ت ٥٨٤٥هـ) أمودجا)

أطروحة مقدمة

إلى مجلس كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة
ديالى وهي جزء من متطلبات نيل درجة
الدكتوراه/ فلسفة في التاريخ الإسلامي

من الطالبة

ونأم عاصم إسماعيل

بإشراف

الأستاذ الدكتور

أحمد مطر خضير

٢٠١٩م

١٤٤٠هـ

أشهد أنّ إعداد هذه الأطروحة الموسومة بـ "إفريقيا جنوب الصحراء من خلال مؤلفات المؤرخين المصريين في القرن التاسع الهجري (الفلقشندي (ت ٨٢١هـ) والمقريزي (ت ٨٤٥هـ) أنموذجًا)" التي قدّمتها الطالبة (وئام عاصم إسماعيل) قد جرى تحت إشرافي في قسم التاريخ - كُليّة التربية للعلوم الإنسانية - جامعة ديالى، وهي جزء من متطلبات نيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي.

المشرف: أ.د. أحمد مطر خضير

٢٠١٩ / /

بناءً على التعليمات والتوصيات المتوافرة أُرشح هذه الأطروحة للمناقشة.

رئيس قسم التاريخ

أ.م.د. ظافر أكرم قدوري

٢٠١٩ / /

إقرار الخبير اللغوي



أشهد أنّ الأطروحة الموسومة بـ " إفريقيا جنوب الصحراء من خلال مؤلفات المؤرخين المصريين في القرن التاسع الهجري (القلقشندي (ت ٨٢١هـ) والمقريزي (ت ٨٤٥هـ) أنموذجاً" التي قدّمتها الطالبة (وئام عاصم إسماعيل) وهي جزء من متطلبات نيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي قد جرت مراجعتها من الناحية اللغوية، من قبلي ولأجله وقعت.

الاسم: م.د. سعد عدوان وهيب
العنوان: كليّة التربيّة للعلوم
الإنسانية/ قسم اللّغة
العربية/ جامعة ديالى.
٢٠١٩/ /

إقرار الخبير العلمي



أشهد أنّ الأطروحة الموسومة بـ "إفريقيا جنوب الصحراء من خلال مؤلفات
المؤرخين المصريين في القرن التاسع الهجري (القلقشندي (ت ٨٢١هـ) والمقريري
(ت ٨٤٥هـ) أنموذجاً" التي قدّمتها الطالبة (وئام عاصم إسماعيل) وهي جزء من
متطلبات نيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي قد جرت مراجعتها من الناحية
العلمية من قبلي وبذلك أصبحت مؤهلة للمناقشة قدر تعلق الأمر بالسلامة العلمية.

الاسم: أ.د. نعمة شهاب جمعة

العنوان: كلية التربية - ابن رشد/ جامعة بغداد

٢٠١٩ / /



إقرار لجنة المناقشة

نحن أعضاء لجنة المناقشة نشهد أننا قد اطلعنا على الأطروحة الموسومة بـ"إفريقيا جنوب الصحراء من خلال مؤلفات المؤرخين المصريين في القرن التاسع الهجري (الفلقشندي (ت ٥٨٢١هـ) والمقريزي (ت ٥٨٤٥هـ) أنموذجاً" التي قدّمتها الطالبة (وئام عاصم إسماعيل) وناقشناها في محتوياتها وفيما له علاقة بها، ونُقرّ أنّها جديرة بالقبول لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي بتقدير () .

التوقيع:

أ.د. داود سلمان خلف

عضوًا

٢٠١٩ / /

التوقيع:

أ.د. يوسف كاظم جغيل

عضوًا

٢٠١٩ / /

التوقيع:

أ.د. عبدالباسط عبدالرزاق حسين

عضوًا

٢٠١٩ / /

التوقيع:

أ.م.د. بشار عبدالجبار شبيب

عضوًا

٢٠١٩ / /

التوقيع:

أ.د. أحمد مطر خضير

عضوًا ومشرفًا

٢٠١٩ / /

التوقيع:

أ.د. عبدالخالق خميس علي

رئيسًا

٢٠١٩ / /

صدقت الأطروحة من مجلس كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة ديالى بتاريخ / ٢٠١٩

الأستاذ الدكتور

نصيف جاسم مُحَمَّد الخفاجي

عميد كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة ديالى

٢٠١٩ / /



الإهداء

إلى

من كلكه الله بالهبة والوقار، من علمني العطاء من دون
انتظار... والدي العزيز أطل الله في عمره.
من كان دعاؤها سر نجاحي، وحنانها بسلم جراحي...
والدي العزيزة أطل الله في عمرها.
سندي في هذه الحياة... إخوتي وأخواتي.
زوجي... عرفانا، وحبًا، وامتنانًا.
قرة عيني في هذه الدنيا... ولديّ: (ربي، وعبدالله).

أهدي جهدي اليسير.

الباحثة



شكر وثناء

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين .

لأبد لي وأنا أخطو خطواتي الأخيرة في إنجاز هذه الأطروحة أجد لزاماً عليّ ومن باب ردّ الإحسان أن أقدم من الشكر أعظمه، ومن الامتنان أجزله لأستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور أحمد مطر خضير العبيدي، الذي تابع العمل أول بأول من دون عناء أو ملل، موجّهاً، ومرشداً، وكانت ملاحظاته وإرشاداته الأثر البالغ في إتمام هذا العمل .

وأقدم بالشكر الجزيل لعامة كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة ديالى، والأساتذة الأفاضل، الذين تتلمذتُ على أيديهم الكريمة جميعاً، وأخص بالذكر منهم: الأستاذ الدكتور تحسين حميد مجيد، والأستاذ الدكتور عاصم إسماعيل كنعان، والأستاذ الدكتورة سميرة عزيز محمود، والأستاذ الدكتور عبدالباسط عبدالرزاق حسين، والأستاذ الدكتور عبدالحالق خميس علي، والأستاذ الدكتور عدنان خلف، والأستاذ الدكتور محمود فياض، والأستاذ الدكتور شاكر محمود، ولا يسعني إلا أن أدعو الله أن يمن عليهم بالصحة، والعافية، وطول العمر .

وأجد لزاماً أن أزجي شكراً خالصاً لوالدي الأستاذ الدكتور عاصم إسماعيل كنعان، الذي كان أستاذاً ومربيّاً، والذي كان دائماً مشجعاً معضداً لجهودي، متابع لعملي أول بأول، وما قدمه لي من ملحوظات قيمة أثرت بالبحث، ورفد خبرتي العملية، وأدين بالفضل والثناء لوالدي الثاني الأستاذ الدكتور سالم نوري صادق؛ لما قدمه لي من دعم .



وأدين بالفضل، والثناء، والوفاء لأستاذي الدكتور عبدالباسط عبدالرزاق، الذي أعانني على تزويدي ببعض المصادر والمراجع، التي أغنت الأطروحة بالمعلومات المهمة. والشكر موصول للعاملين في المكتبة المركزية/ جامعة ديالى، والمكتبة المركزية في جامعة بغداد.

وأخيراً أتقدم بالشكر والإخلاص لرفيق دربي، وسندي (زوجي) الأستاذ المساعد الدكتور مروان سالم نوري رئيس قسم التاريخ في كلية التربية الأساسية/ جامعة ديالى، الذي كان خير عون، وخير سند، ولكل من أسهم ووقف بجاني، وشدَّ من أزمي طوال مُدَّة الدِّراسة، سواء كان بالرأي، أو بالملحوظة، أو بالاستشارة، أو الدعاء إلى الله تعالى.

والله ولي التوفيق.



ثبت المحتويات

| رقم الصفحة | الموضوع |
|------------|---|
| ٩-١ | المقدمة: مضامين البحث وتحليل المصادر والمراجع. |
| ٢١-١٠ | التمهيد: نظرة في الحياة العلميّة لمصر في القرن التاسع الهجريّ. |
| ٦٦-٢٢ | الفصل الأوّل: جغرافية إفريقيا جنوب الصحراء من خلال روايات القلقشندي (ت ٨٢١هـ) والمقريزي (ت ٨٤٥هـ). |
| ٢٦-٢٣ | ١. إفريقيا جنوب الصحراء (التسمية والمصطلح). |
| ٦٦-٢٦ | ٢. ممالك إفريقيا جنوب الصحراء. |
| ٣٥-٢٧ | أ. بلاد البجة |
| ٤٢-٣٦ | ب. بلاد النوبة. |
| ٤٥-٤٢ | ت. بلاد البرنو. |
| ٤٨-٤٥ | ث. بلاد كانم. |
| ٥٤-٤٨ | ج. بلاد مالي. |
| ٦٦-٥٤ | ح. مملكة الحبشة. |
| ١٢٥-٦٧ | الفصل الثاني: المظاهر السياسية والإدارية لإفريقيا جنوب الصحراء من خلال روايات القلقشندي (ت ٨٢١هـ) والمقريزي (ت ٨٤٥هـ). |
| ٨٦-٦٨ | ١. المظاهر السياسية لبلاد البجة. |
| ٧٢-٦٨ | أ. نظام الحكم. |
| ٧٤-٧٣ | ب. المنازعات والخلافات الداخلية. |
| ٨٢-٧٥ | ت. علاقة بلاد البجة بالعرب المسلمين. |



| | |
|---------|---|
| ٨٥-٨٢ | ث. علاقة البجة بالدولة الطولونية (٢٥٤-٥٢٩٢هـ/٨٦٨-٩٠٥م). |
| ٩٨-٨٦ | ٢. المظاهر السياسية لبلاد النوبة. |
| ٨٧-٨٦ | أ. نظام الحكم. |
| ٩٨-٨٧ | ب. علاقة بلاد النوبة بالعرب المسلمين. |
| ١٠٧-٩٩ | ٣. المظاهر السياسية لبلاد الكانم والبرنو. |
| ١٠٠-٩٩ | أ. نسب أسرة الكانم. |
| ١٠٢-١٠١ | ب. نظام الحكم لمملكة الكانم. |
| ١٠٥-١٠٢ | ت. علاقة بلاد الكانم بالعرب المسلمين. |
| ١٠٦-١٠٥ | ث. نظام الحكم لسلطة البرنو. |
| ١٠٧-١٠٦ | ج. علاقة البرنو بالمماليك. |
| ١١٧-١٠٨ | ٤. المظاهر السياسية لبلاد مالي. |
| ١١١-١٠٨ | أ. نظام الحكم. |
| ١١٤-١١٢ | ب. مراسيم القصر السلطاني. |
| ١١٦-١١٥ | ت. النظم الإدارية. |
| ١١٧-١١٦ | ث. النظام العسكري. |
| ١٢٤-١١٨ | ٥. مملكة الحبشة. |
| ١٢٣-١١٨ | أ. نظام الحكم. |
| ١٢٤-١٢٣ | ب. مظاهر نظام الحكم. |
| ١٢٤ | ت. العلاقات بين ملوك الحبشة وسلطين المماليك. |



| | |
|---------|--|
| ١٦٦-١٢٥ | الفصل الثالث: الحياة الاقتصادية لإفريقيا جنوب الصحراء من خلال روايات القلقسندي (ت٨٢١هـ) والمقريري (ت٨٤٥هـ). |
| ١٣٤-١٢٦ | ١. الحياة الاقتصادية لبلاد البجة. |
| ١٢٩-١٢٦ | أ. الرعي والثروة الحيوانية. |
| ١٣٣-١٢٩ | ب. الصناعة. |
| ١٣٤ | ت. التجارة. |
| ١٤٣-١٣٥ | ثانياً: الحياة الاقتصادية لبلاد النوبة. |
| ١٣٧-١٣٥ | أ. الزراعة. |
| ١٣٧ | ب. الثروة الحيوانية. |
| ١٤١-١٣٨ | ت. النشاط الحرفي والمهن الصناعية. |
| ١٤٣-١٤١ | ث. التجارة. |
| ١٥١-١٤٤ | ٣. الحياة الاقتصادية لممكتي الكانم والبرنو. |
| ١٤٦-١٤٤ | أ. الزراعة. |
| ١٤٨-١٤٦ | ب. الثروة الحيوانية والصناعية. |
| ١٥٠-١٤٨ | ت. التجارة الكارمية. |
| ١٥٠ | ث. الأوزان. |
| ١٥١ | ج. العملة. |
| ١٦١-١٥٢ | ٤. الحياة الاقتصادية لمملكة مالي. |
| ١٥٤-١٥٢ | أ. الزراعة. |
| ١٥٥-١٥٤ | ب. الثروة الحيوانية. |
| ١٥٨-١٥٥ | ت. المعادن. |

| | |
|---------|---|
| ١٦٠-١٥٨ | ث. التجارة. |
| ١٦١-١٦٠ | ج. وسائل التعامل التجاري. |
| ١٦٦-١٦٢ | ٥. الحياة الاقتصادية لمملكة الحبشة. |
| ١٦٤-١٦٢ | أ. الزراعة. |
| ١٦٥-١٦٤ | ب. الثروة الحيوانية. |
| ١٦٥ | ت. المعادن. |
| ١٦٦ | ث. وسائل التعامل التجاري. |
| ١٨٨-١٦٧ | الفصل الرابع: الحياة الدينية والاجتماعية لإفريقيا جنوب الصحراء من خلال روايات القلقشندي (ت ٨٢١هـ) والمقريري (ت ٨٤٥هـ). |
| ١٧٦-١٦٨ | ١. عملية الاستقرار السكاني. |
| ١٧٩-١٧٦ | ٢. العادات والتقاليد. |
| ١٨٦-١٧٩ | ٣. السكان وطبيعة حياتهم. |
| ١٨٨-١٨٦ | ٤. العقائد والأديان. |
| ١٩٢-١٨٩ | الخاتمة. |
| ٢١٤-١٩٣ | ثبت المصادر والمراجع. |
| ٢٣٠-٢١٥ | الملاحق. |

المقدمة

مضامين البحث وتحليل المصادر

المقدمة: مضامين البحث وتحليل المصادر.

إنَّ العناية بدراسة تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء يحتاج إلى رغبة في خوض غماره، ولاسيَّما أنَّ التوجُّه في الدراسات الإفريقية في التاريخ الإسلامي في العراق يبدو محدودًا ولا يشكل وضوحًا تامًّا يتناسب مع أهمية تلك البلاد، وأثرها في صناعة الأحداث التاريخية، وفي مختلف نواحي الحياة السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والدينية؛ فتلك البلاد بهذا المسمى من دون شك يمثل عمقًا سياسيًا، واجتماعيًا، واقتصاديًا، وفكريًا؛ وعليه فإنَّ مجرد التفكير بالكتابة والبحث في تاريخ إفريقيا فيما وراء الصحراء، ولاسيَّما جنوبها يُعدُّ تقدمًا في رسم معالم تلك البلاد وتوضيحها من ناحية أهميتها، وفي المجالات كُلِّها، ولاسيَّما أنَّ هذه القارة يمكن عدّها مهدًا للبشرية؛ فهي بلاد امتلأت خيرًا وبركة، تدفقت فيها المياه والأنهار، وتخللتها السهول والغابات، فضلًا عمَّا كانت تكتنفه أرضها من مناجم الذهب، والفحم، والحديد، والنحاس، والأخشاب، والثروة الحيوانية، وما كانَ فيها من مجتمع تعددت فيه القوميات، واللغات، والأديان؛ وعليه ومن هذا كُله يكتسب الموضوع أهميته؛ فقلة ما مكتوب من دراسات حول هذه البلاد كانَ سببًا مهمًّا في اختيار الموضوع، هذا إلى جانب المحاولة في التعرف إلى التأثير العربي والإسلامي فيما ظهر في تلك البلاد من دويلات وممالك ممَّا ورد ذكره من لدن الفلقشندي (ت ٨٢١هـ)، والمقريزي (ت ٨٤٥هـ)؛ إذ تمَّ عدُّهما أنموذجان لما دونه المؤرخين المصريين في القرن التاسع الهجري؛ لتتشكل في النهاية الصورة المطلوبة الأقرب إلى الواقع السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي لإفريقيا جنوب الصحراء، فضلًا عن واقعها الجغرافي.

وفي الحقيقة أنَّ اختيار الموضوع جاء بتوجيه من أساتذتي في اللجنة العلميَّة في القسم، وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور عبدالخالق خميس، الذي صاغ لي عنوانه، وشجعني مشكورًا على الخوض في غماره وتسليط الأضواء عليه؛ فجزاه الله عني خير الجزاء.

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى الدراسات السابقة في هذا الموضوع، وبحسب اطلاعنا أهمها دراسة الدكتور دريد عبدالقادر نوري المعنونة بتاريخ الإسلام في إفريقيا

جنوب الصحراء"، ولا نعلم على وجه الدقة، وبعد البحث أن دراسة أخرى رُبما تكون موجودة، وعلى الرغم من أهمية تلك الدراسة، إلا أنها جاءت مُنصبة على الجانب الذي له علاقة بانتشار الإسلام في بعض ممالك تلك البلاد، وبالتأكيد فإن تلك الدراسة لم تخلُ من فوائد مهمة في طيات دراستنا؛ بوصفها دليلاً مهماً من ناحية المصادر، واستكشاف بعض الجوانب في موضوع الدراسة؛ إذ إنَّ بُعد البلاد، وقلة الدراسات حولها كانَ واحداً من الصعوبات التي واجهتنا؛ فكان البحث عن أي بصيص من الضوء هنا وهناك من دراسة سابقة، أو بحث منشور يُشكل ثروة ثمينة تثير لنا طريق البحث، ولا يفوتنا في هذا الصدد الإشارة إلى ما نشره بعض المؤرخين من بحوث في مجلات علمية أفادت الدراسة عن طرائق مختلفة منها ما نشرته الدكتورة صباح الشخيلي عن الوجود العربي في كانم، فضلاً عمَّا كتبه الدكتور عمار مرضي عن مملكة برنو الإسلامية، والدكتور بشار عبدالجبار شبيب عن دولة مالي الإسلامية.

أمَّا المنهج الذي جرى اعتماده في هذه الدراسة فهو المنهج الوصفي التاريخي المعتمد على الروايات والنصوص التي وردت عند القلقشندي والمقريزي لإفريقيا جنوب الصحراء؛ مؤكدين أنها تحظى بأهمية كبيرة، كما أن هذه الروايات يمكن عدّها مفاتيح تفتح من خلالها أبواب المصادر الأخرى لروايات مماثلة أو مكملّة؛ من أجل أن تكتمل المعلومة، ولاسيّما إذا كانَ هناك بتر في النص أو عدم وضوح هنا وهناك، ولا يعني هذا أن استعمالنا لهذا المنهج البحثي في الدراسات التاريخية هو أننا أخذنا الروايات والنصوص على علاقتها من دون نقد، وتمحيص، وتقصي، بل أخضعناها لكل ذلك، وكلما تمكنا من ذلك ودون أن نحمل هذه الروايات أكثر ممَّا تحتمل؛ لأنَّ الغاية هي الوصول إلى الحقيقة التاريخية، أو الأقرب إليها.

أمَّا الكتب التي اعتمدنا عليها لهذين المؤلفين فهي التي حوت على أغلب معلومات موضوع الدراسة، أشرنا إلى ذلك بعنوان (المعتمد من كتب القلقشندي في الدراسة) (والمعتمد من كتب المقريزي في الدراسة)، وأثبتناها بملاحق في آخر الأشرطة.

جاءت الدراسة بأربعة فصول، تسبقها مقدمة وتمهيد وتتلوها خاتمة، فضلاً عن الملاحق، وثبت المصادر والمراجع، والمستخلص باللغة الانكليزية.

جاء التمهيد تحت عنوان: (نظرة في الحياة العلميّة لمصر في القرن التاسع الهجريّ)؛ إذ جرى استعراض الحياة العلميّة لذلك القرن بصورة موجزة؛ مبيّنين أهميته؛ لأنّه من أزهى العصور من الناحية العلميّة في مصر؛ إذ أفرز ظهور علماء موسوعيين كبار من أمثال: القلقشندي (ت ٨٢١هـ)، والمقريزي (ت ٨٤٥هـ)، اللذان جرى التعريف بهما ويكتبهما في هذا التمهيد.

أمّا الفصل الأوّل فكان عن جغرافية إفريقيا جنوب الصحراء من خلال روايات القلقشندي (ت ٨٢١هـ) والمقريزي (ت ٨٤٥هـ)، وجرى البحث فيه في تلك البلاد من الناحية الجغرافية من حيث التسمية، والمصطلح، وما احتوت تلك الممالك الإسلاميّة من مدن، وما كانت عليه من أهمية من ناحية الموقع الجغرافي.

أمّا الفصل الثاني فقد خصصناه للجانب السياسي في إفريقيا جنوب الصحراء، وحمل عنوان: المظاهر السياسية والإدارية لإفريقيا جنوب الصحراء من خلال روايات القلقشندي (ت ٨٢١هـ) والمقريزي (ت ٨٤٥هـ)، وجرى تقسيمه على عدد من الموضوعات، تضمن البحث فيها على الجوانب السياسية للممالك الإفريقية المنتشرة جنوب الصحراء الإفريقية، فيما يتعلق بأنظمة الحكم، وعلاقتهم بالعرب المسلمين، ومراسيم القصور السلطانية، والنظام العسكري.

أمّا الفصل الثالث فقد خصص للحياة الاقتصادية، وجاء بعنوان: الحياة الاقتصادية لإفريقيا جنوب الصحراء من خلال روايات القلقشندي (ت ٨٢١هـ) والمقريزي (ت ٨٤٥هـ)، وقسم على فقرات، جرى البحث فيها عن الجوانب الاقتصادية لممالك إفريقيا جنوب الصحراء، فيما يخص الرعي، والثروة الحيوانية، فضلاً عن النشاط الزراعي، والصناعي، والتجاري، وما اشتملت عليه تلك الممالك من العملة المتداولة، وكذلك الثروة المعدنية.

أمّا الفصل الرابع فجاء عنوانه: الحياة الدنيوية الاجتماعية لإفريقيا جنوب الصحراء من خلال روايات القلقشندي (ت ٨٢١هـ) والمقريزي (ت ٨٤٥هـ)، وجرى



تقسيمه على عدّة موضوعات، جرى البحث فيها عن السكان، وأصولهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، فضلاً عن العقائد والأديان، وجرى البحث عن حياتهم المعيشية من (مسكن، ومأكل، وملبس)، فضلاً عن احتفالاتهم.

ومن الجدير بالملاحظة، وضرورة التنبيه عنه أنّ الفصل الأخير كان موجزاً؛ إذ لم يكن بمستوى الفصول التي سبقته من ناحية الحجم والسعة؛ وذلك بسبب شحة المعلومات الواردة في هذا الجانب عند كُُلِّ من القلقشندي (ت ٨٢١هـ)، والمقريزي (ت ٨٤٥هـ)، فضلاً عن المصادر الأخرى.

تحليل المصادر:

اعتمدت في إعداد هذه الدراسة على مجموعة من المصادر العربية الأصلية، التي كان لها الأثر الكبير في إغنائها بالمادة العلمية عن طريق المعلومات القيمة المتناثرة في ثناياها، فضلاً عن المراجع الحديثة، الدراسات الأكاديمية، والدوريات، التي اعتمدت عليها في توثيق الكثير من المعلومات، وسندرس بعض هذه المصادر والمراجع على النحو الآتي:

١. كتب المعاجم اللغوية:

وتأتي أهميتها فيما يتعلق بالتعريفات اللغوية الواردة في الأطروحة، وتأتي في مقدمة هذه المعاجم: معجم (لسان العرب) لابن منظور (ت ٧١١هـ) ومعجم (القاموس المحيط) للفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ).

٢. كتب البلدانيين، والجغرافيين، والرحالة:

أ. كتابا (البلدان) و(تاريخ اليعقوبي)، لليعقوبي (ت ٢٩٢هـ/٨٩٧م):

الليذان ذكرا الكثير من المعلومات في بلادهم، وزودنا بمعلومات مفصلة عن الحدود الجغرافية لبلاد النوبة، وطبيعة الأرض فيها، ومجاري الأنهار، والبحيرات، والغابات الكثيفة، فضلاً عن مناخها.

ب. كتاب (صورة الأرض)، لابن حوقل (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م):

كان من كبار الرحالة العرب، الذين جابوا الأمصار الإسلامية؛ إذ استمر تجواله نحو ثلاثين عاماً، وقد أمدنا بمعلومات قيمة عن الشعوب التي زارها، وأمدنا في هذه

الدراسة بمعلومات مهمة عن قبائل البجة في مختلف جوانب حياتهم، وعن ظروف اختلاط القبائل العربية بهم، وزودنا بمعلومات مهمة عن نظام الحكم والوراثة في بلاد النوبة، فضلاً عن وصفه الدقيق لمجتمع مالي، ومسالكها، وطبيعة أرضها، ومناخها.

ت. كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) للإدريسي (ت ١١٦٢/هـ ١٠٦٠م):

وهو عبارة عن وصف للكورة الأرضية، وزودنا هذا الكتاب بمعلومات مهمة عن بلاد النوبة، في أثناء ذكره مملكتي الكانم والبرنو، وذكر (أنجيمي) أنها مملكة الكانم، بعد انتشار الإسلام، وأفادنا بمعلومات مهمة عن العادات والتقاليد الاجتماعية لهاتين المملكتين، وذكر بلاد مالي؛ إذ زودنا بمعلومات دقيقة عن دولة مالي، وعن التعامل التجاري فيها، وتحدث عن طرق التجارة الصامتة في بلاد السودان الغربي.

ث. كتاب (معجم البلدان)، لياقوت الحموي (ت ١٢٢٦/هـ ١٢٢٧م)

أفاد الحموي من عمله في التجارة، وكثرة أسفاره شرقاً وغرباً؛ فوضع هذا الكتاب القيم، الذي لا يمكن إغفال فائدته الكبيرة لدارسي التاريخ؛ فقد رصد فيه الكثير من الأمصار، والقرى، والمدن، وما بها من أنهار، وجبال، وبحار، وأودية، وقد أفاد الباحث من هذا الكتاب في معرفة الكثير من المواضع، والمدن، والبلدان التي جرى ذكرها في الدراسة، وما يميز معجم البلدان عن غيره كثرة ما ورد به من معلومات؛ فلم يقتصر على المواضع، وإنما استعرض الأوضاع الاقتصادية، ولاسيما التجارة، وأحوال السكان، وعاداتهم، وتقاليدهم، وطبيعة المناخ، والأرض، والأنهار، والبحيرات، والغابات، والحيوانات، والزراعة، وقد كانت الفائدة منه في فصول الدراسة جميعها.

ج. كتاب (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)، لشهاب الدين بن فضل الله العمري

(ت ١٣٤٨/هـ ١٢٤٩م)

فقد رسم صورة دقيقة و متميزة للممالك الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء، وتظهر أهمية هذا الكتاب في اعتماد العمري على طائفة من المصادر الخطية، والشفهية، ونصوص أكثرها مفقودة في وقتنا الحاضر، وقد كانت الفائدة من هذا المصدر كبيرة اشتملت على الكثير من الموضوعات التي تضمنتها الدراسة؛ وذلك

لاعتماد القلقشندي عليها مباشرة؛ إذ إنَّ أكثر نصوص هذا الكتاب وردت في كتاب (صبح الأعشى)، ويشير إليها القلقشندي (ت ٨٢١هـ).

ح. كتاب (تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، لابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م):

من أهم كتب الرحلات التي يلجأ إليها الباحثون في التاريخ الإفريقي؛ نظراً إلى ما يحتويه من معلومات عن أجزاء واسعة من القارة الإفريقية؛ فقد زار ابن بطوطة أجزاء كثيرة من تلك القارة، وقدم وصفاً دقيقاً للعديد من المدن التي زارها، وتطرق لعادات الشعوب وتقاليدهم، وقد حظيت بلاد إفريقيا جنوب الصحراء بجانب من المعلومات التي ذكرها ابن بطوطة؛ إذ زار تلك البلاد، ومكث فيها بعض الوقت؛ ممَّا أتاح لنا الكثير من المعلومات عن الحبشة، وممالك الزيلع، فضلاً عن إعطائه صورة دقيقة عن الجوانب الاجتماعية في بلاد مالي؛ إذ وصف عاداتهم وتقاليدهم، كما أشار إلى المأكل والملبس في بلاد السودان الأوسط، وتحدث عن ملوك السودان الأوسط والغربي.

خ. كتاب (وصف إفريقيا) لحسن الوزان (ت ٩٦٠هـ/١٥٥٢م):

وهو من الكتب المهمة التي اعتمدت عليها الدراسة، ليس لأنَّ الوزان زار بلاد السودان في مُدَّة الدِّراسة فحسب، بل لدقة المعلومات الواردة فيه، ولاسيَّما ما يخص بلاد السودان الأوسط (الكانم والبرنو)، والسودان الغربي (مالي).

٣. كتب التاريخ العام:

أ. كتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، لابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م):

ذكر ابن خلدون في هذه الموسوعة التاريخية معلومات مهمة عن الممالك الإسلامية المنتشرة جنوب الصحراء الإفريقية، وكانت فائدته كبيرة اشتملت الكثير من الموضوعات التي تضمنتها الدراسة.

ب. كتاب (صبح الأعشى في صناعة الأنشا) للقلقشندي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م):

ونظراً إلى أهمية هذه الموسوعة التاريخية للباحثين في تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء؛ فقد وقع عليه الاختيار؛ لتكون الدراسة من خلاله.

ت. كتب المقريري (ت ٥٨٤٥هـ / ١٤٤١م):

يُعدُّ المقريري من أكثر المؤرخين إسهامًا وتفصيلاً حول كثير من المعلومات التي تضمنتها موضوع الدراسة، وهو من المؤرخين الذين يُقال عنه: إِنَّ لَهُ ما يربو على مائة كتاب، وما يهمننا من تلك المؤلفات كتاب: (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)، الذي يحوي كثيرًا من المعلومات التي تهمننا في موضوعنا عن بلاديّ البجة والنوبة، وكذلك كتاب: (الإمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام)، الذي أفادنا في دراستنا عن بلاد الحبشة وممالك الزيلع الإسلامية، وكتاب: (البيان والإعراب عمّا بأرض مصر من الأعراب)؛ فقد زدنا بمعلومات مهمة عن استقرار القبائل العربيّة في مصر والنوبة، وتحدث عن منافسات ومنازعات القبائل وبطونها المختلفة، وأشار إلى علاقتهم مع السلطة الحاكمة في مصر في زمن المماليك، وكتاب: (السلوك لمعرفة دول الملوك)؛ فقد وردت فيه معلومات أفادت الدّراسة، وكتاب: (الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك)؛ فقد أورد معلومات مهمة عن ملوك دولة مالي، وأشار إلى رحلة منسا موسى بن أبي بكر (ت ٧١٢هـ / ٧٣٧م) إلى الحج بصورة مفصلة.

٤. كتب التراجم:

أ. كتاب (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة)، لابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م):

تأتي أهمية هذا الكتاب لأنَّ صاحبه كانَ معاصرًا للأحداث التي عاشها؛ فترجم للأمرء والسلطين الذين عاصرهم، وكانت صلته وثيقة بهم في ذلك العصر، استمدت الدّراسة معلومات وافية ودقيقة من هذا الكتاب؛ إذ نهج بن تغري بردي في كتابه منهجًا جديدًا؛ إذ جعل كُُلَّ عصر من عصور السلطين فصلًا قائمًا بذاته، ثمَّ ذكر السنين وحوادثها تبعًا، حتّى إذا توفى السلطان ترجم لحياته ترجمة مفصلة، وهكذا، ثمَّ ينتهي بذكر وفيات العصر؛ لذلك أفادت الدّراسة في تراجم بعض الشخصيات التي وردت في تضاعيفها.

ب. كتاب (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع)، لشمس الدين السخاوي (ت ٥٩٠٢هـ/١٤٩٦م):

وهو من أشهر تلاميذ ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، ولازمه صغيراً؛ فحبب إليه الدراسة، وبرع في علوم الفقه، والعربية، والقراءات، وكتابه أعلاه يُعدُّ استكمالاً لكتاب (الدرر الكامنة)؛ إذ ترجم فيه لمشاهير القرن التاسع الهجريّ من نساء ورجال، وبعدّ من أهم مؤلفاته التي أفادتنا في التعريف ببعض الشخصيات التي وردت في الدراسة.

٤. المراجع الحديثة:

أمّا المراجع الحديثة فكانت ذات أهمية بالغة في توضيح أمور كثيرة عن طريق الآراء، ووجهات النظر التي وردت فيها، وكان من أهم الكتب التي أفادت الدراسة:

- أ. كتاب (تاريخ وحضارات السودان الوسطى)، لشاطر بصيلي.
 - ب. كتاب (السودان دراسة في الوضع الطبيعي والكيان البشري والبناء الاقتصادي)، لمحمّد محمود الصياد وآخرين.
 - ت. كتاب (جغرافية وتاريخ السودان)، لنعوم شقير.
 - ث. كتابا (دولة مالي الإسلامية) و(إمبراطورية البرنو الإسلامية)، لإبراهيم طرخان.
 - ج. كتاب (الشعوب والسلالات الإفريقية)، لمحمّد عوض.
 - ح. كتاب (التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر)، لهادي الدالي.
 - خ. كتاب (تاريخ الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء)، لدريد عبدالقادر نوري.
- ولابدّ أن أشير قبلاً إلى أنّني بذلت في هذه الدراسة ما استطعت من جهد متواضع؛ فإنّ وفقت فيه فذاك من فضل الله عليّ، وإنّ كان من خلل وزلل فمن نفسي، وحسبي أنّني توخيت الدقة وبعد فإني أضع هذا الجهد بأيدي أساتذتي، وأدعو من الله التوفيق وآخر دعواي أن الحمد لله ربّ العالمين وصلى الله على سيدنا محمّد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

التمهيد



التمهيد

١. نظرة في الحياة العلمية لمصر في القرن التاسع الهجري:

شهدت مصر ازدهارًا علميًا ملحوظًا في عصر السلاطين المماليك (٦٤٨هـ - ٩٢٣م/١٢٥٠م-١٥١٧م)، وعُدَّ القرن التاسع الهجري من أزهى العصور علميًا؛ إذ امتاز بكثرة العلماء ونتاجاتهم العلميّة في ميادين العلم والمعرفة، وقد تضافرت عوامل عدّة اقتصادية وسياسية جعلت دولتي المماليك الأولى والثانية تبلغ مبلغًا عظيمًا من القوة والازدهار؛ إذ سيطر المماليك على طرق التجارة البحرية التي تربط بين الشرق والغرب، وقد تبارى السلاطين المماليك في فرض الضرائب والمكوس فيها^(١)؛ ممّا دَرَّ عليهم أموالًا طائلة ساعدتهم في تحقيق مشروعاتهم السياسية والعلمية، أمّا من ناحية المشروعات السياسية فقد نجحوا في صد العدوانين الصليبي والمغولي عن العالم الإسلامي، وفتحوا أبواب مصر للكثير من العلماء والأعيان الذين فروا إليها عقب احتلال بغداد من قبل التتار في سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)^(٢)، وأصبحت مصر قبلة للعلم والعلماء.

وَمِمَّا دَلَّ على تشجيع السلاطين المماليك للعلم وترحيبهم بالعلماء؛ إذ لم يقتصر على العلماء الموجودين بالقاهرة فحسب بل شمل مدن العالم الإسلامي جميعها، والتي انضوت تحت راية السلطة المملوكية^(٣)، والإكثار من بناء المدارس، والجوامع،

(١) السيوطي، جلال الدّين عبدالرحمن (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، دار إحياء الكتب العربيّة، (القاهرة، ١٩٦٨م)، ٢/٢٩٦.

(٢) ابن زهير، أبو إسحاق برهان الدّين بن علي (ت ٨٩١هـ/١٤٨٦م)، الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، (القاهرة، ١٩٦٩م)، ص ٥٣.

(٣) العيني، بدر الدّين (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م)، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة، ١٩٦٧م)، ص ٢٦٦.

والربط^(١)، والخوانق^(٢)، وقد حظي المؤرخون بجانب كبير من العناية والاهتمام من لدن سلاطين المماليك بصورة تفوق على غيرها من العصور الإسلامية؛ حتى شكّلت طبقة اجتماعية مترفة مالكة للمال، والثروة، والجاه، ويعود السبب في ذلك إلى محبة المماليك لتسجيل تاريخهم، وتدوين الإنجازات التاريخية والحضارية التي حققوها لمصر والعالم الإسلامي، وقد حاول السلاطين المماليك تدوين تلك الإنجازات لتسجيل ذكركم أولاً، وسجلاً لمجدهم ثانياً، فضلاً عن ذلك فإنّ المماليك غرباء عن المجتمع المصري؛ فشكّل ذلك نوعاً من عدم تجانس البُعد الاجتماعي؛ فحاولوا التعويض عن ذلك البُعد عن طريق العناية بالتاريخ، وتسجيل سيرهم، والاقتراب من النَّاس، والمشاركة في تسجيل التاريخ المصري الإسلامي^(٣).

ومن مظاهر عناية السلاطين المماليك بالمؤرخين والعلماء، الذي لم يتوقف على التكريم المادي فقط، بل تعدى إلى المظاهر المعنوية؛ إذ أصبح من السمات الملازمة لسلاطين المماليك تقريب العلماء إليهم، وإسناد المناصب لهم؛ فعلى سبيل المثال أسند منصب المحتسب للمقريزي (ت ٨٤٥هـ)، والعيني^(٤) (ت ٨٥٥هـ)، وأيضاً كان السلاطين

(١) الربط: دار يسكنها أهل طريق الله من الصوفية. ينظر: المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/٤٤١م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، (بيروت، ١٩٧٧م)، ٣٠٢/٤.

(٢) الخوانق: لفظ فارسي معناه: المائدة أو المكان الذي يأكل فيه الملك، والخوانق في الإسلام هي: دور للعلم والعبادة، وهي دار للصوفية الذين نذروا أنفسهم لحياة الزهد والتقشف. ينظر: المقريزي، الخطط، ٢٨٠/٤.

(٣) مزيان، إسرائ مهدي وآخرون، مشاهير مؤرخي عصر المماليك ومصنفاتهم التاريخية، مجلة كلية التربية، جامعة واسط، العدد الثالث، المجلد الأول، ٢٠٠م، ص ١.

(٤) السيوطي، حسن المحاضرة، ١٢١/٢. المحتسب: وهي وظيفة دينية تقوم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام على أمر الأسواق، ومراجعتها، والنظر في مكاييلها وموازينها، ومنع الغش، بجانب المحافظة على آداب الشرع والسلوك العام. ينظر: الماوردي، الإمام أبي الحسن بن علي بن مُحَمَّد بن حبيب (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ط ٢، مطبعة المصطفى إلياس الحلبي، (بيروت، ١٩٦٦م)، ص ٢٤٠؛ الغزالي، أبو حامد مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن =

يحضرون مجالس العلماء، وينصتون لدروسهم، بل وتتلذذ بعضهم على أيديهم، ولم يكن السلاطين يقربون العلماء الموجودين بالقاهرة فقط، بل كانوا يقربون العلماء في غيرها من المدن، ويبعثون لهم الهدايا إلى بلدانهم^(١)، وخصص السلاطين المماليك فقرات من وقفياتهم للعلماء وإلى المدارس الخاصة بالعلماء^(٢)، مع خلع الكساوى عليهم في المناسبات المختلفة، واصطحابهم معهم في أثناء حروبهم، وإشراكهم في المواكب الرسمية^(٣)، مع تخصيص ملابس معينة لكل طائفة منهم، وكان تقرب السلاطين للعلماء يزداد في حالة الخطوب والمحن^(٤).

وقد شهد القرن التاسع الهجري ظهور كثير من العلماء الذين تميزوا بعبائهم العلمي الموسوعي، الذي غطى جوانب الحياة السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والدينية كافة، ويأتي في مقدمة هؤلاء المؤرخين القلقشندي (ت ٨٢١هـ)، والمقريزي (ت ٨٤٥هـ)، اللذين هما موضوع دراستنا، وستكون الدراسة مختصرة جداً بالنسبة لحياتهما؛ لأنهما قد درسا سابقاً من لدن باحثين آخرين؛ ولكن ليس في الموضوع نفسه، وإنما في موضوعات مختلفة عن هذا الموضوع^(٥).

=مُحَمَّد (ت ٥٠٥هـ/١١١١م)، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، (القاهرة، د.ت)، ٢/٢٤٢؛ ابن خلدون، عبدالرحمن بن مُحَمَّد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، المقدمة، تحقيق: علي عبدالواحد وافي، (القاهرة، ١٩٦٢م)، ١/١٩٥.

(١) العيني، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، ص ٢٦٦.

(٢) ابن إياس، أبو البركات مُحَمَّد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، دار الشعب، (القاهرة، ١٩٦٠م)، ٤/٤٥٣.

(٣) ابن طولون، شمس الدين مُحَمَّد بن طولون (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر، (القاهرة، ١٩٦٤م)، ٢/١٣-١٤.

(٤) الصيرفي، الخطيب الجوهري علي بن داود (ت ٩٠٠هـ/١٤٩٤م)، نزهة النفوس والأبدان، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة، ١٩٩٤م)، ٤/٨١.

(٥) النصر الله، جواد كاظم، منشأة، المقريزي دراسة في سيرته الشخصية وآرائه في الأزمات الاقتصادية في مصر عبر العصور الإسلامية منذ الفتح العربي الإسلامي وحتى وفاته ٢٠هـ- ٨٤٥هـ/١٤٢٠م، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الآداب، جامعة البصرة، ١٩٩٨م؛ =

٢. التعريف بالقلقشندي (ت ٨٢١هـ):

هو أحمد بن علي بن أحمد^(١)، ويكنى بأبي العباس، ولُقِّبَ بعدة ألقاب منها: الشافعي^(٢)، والقاهري^(٣)؛ لأنه عاش في مدينة القاهرة، والأكثر شهرة الذي عرفه فيه الجميع القلقشندي^(٤)؛ لولادته قلقشندة، أمّا كنيته فهي (أبو العباس)^(٥). وينتسب القلقشندي إلى بني بدر من قبيلة فزارة^(٦)؛ فهو يقول في نسبه: "وبنو بدر هؤلاء قبيلتنا التي إليها نعزّي، وفيها ننتسب"^(٧)، أمّا تاريخ مولده فليس هناك من

=جلال، أفرح أحمد، الجوانب المالية في كتاب صبح الأعشى في صناعة الأنشا للقلقشندي دراسة في تاريخ الاقتصاد الإسلامي، أطروحة دكتوراه (غير منشورة)، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة ديالى، ٢٠١٧م.

(١) ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن مُحَمَّد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/٤٤٨م)، إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق: حسن حبشي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، (القاهرة، ١٩٦٩م)، ١٧٢/٩؛ السخاوي، شمس الدِّين مُحَمَّد بن عبدالرحمن (ت ٩٠٢هـ/٤٩٦م)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، (بيروت، د.ت)، ٣٥٥/١؛ حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله (ت ١٠٦٧هـ/١٦٥٦م)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى، (بغداد، ١٩٤١م)، ١٠٧/٢.

(٢) البغدادي، إسماعيل باشا البغدادي (ت ١٣٣٩هـ/١٩٢٠م)، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، مؤسسة التاريخ العربي، (استانبول، ١٩٥١م)، ص ١٢٢.

(٣) أبو زيد، بكر بن عبدالله بن مُحَمَّد بن عبدالله بن بكر بن عثمان بن يحيى (ت ٤٢٩هـ/٢٠٠٨م)، طبقات النسابين، دار الرشيد، (الرياض، ١٩٨٧م)، ص ١٥٣.

(٤) أبو زيد، طبقات النسابين، ص ١٠-١١.

(٥) ابن تغري بردي، يوسف بن تغري بردي بن عبدالله الظاهري، أبو المحاسن جمال الدِّين (ت ٨٧٤هـ/٤٦٩م)، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: مُحَمَّد مُحَمَّد أمين، الهيئة المصرية للكتاب، (القاهرة، ١٩٨٦م)، ٣٥١/١.

(٦) فزارة: نسبة إلى فزارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان، وهي قبيلة كبيرة من قيس عيلان. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، (بيروت، د.ت)، ٤٢٩/٢.

(٧) أحمد بن علي بن أحمد الغزاري (ت ٨٢١هـ/٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الأنشا، ط ٢، تحقيق: مُحَمَّد حسين شمس الدِّين، دار الكتب العلميّة، (بيروت، ٢٠١٢م)، ٣٩٩/١.

اتفاق على ذلك^(١)؛ ولكن بعملية حسابية واستنادًا إلى المعلومات التي ذكرتها المصادر، التي انققت على سنة وفاته (٨٢١هـ)^(٢)، التي كان عمره فيها خمسًا وستين سنة؛ فإنَّ عام ولادته هو سنة (٧٥٦هـ)^(٣).

وعلى الرغم من أهمية هذا العالم، وما قدمه من إنتاج فكري ضخم، إلا أنَّ حياته الشخصية والأسرية يكتنفها الغموض، إلا من بعض الإشارات التي أشرنا إليها، والتي لا يمكن أن ترسم لنا سيرة واضحة المعالم عن هذه الشخصية العلميَّة المهمة، وقد عللت الباحثة أفرح أحمد جلال من أنَّ موضوع الغموض، الذي يلف حياة القلقشندي رُبَّمَا متأت من عزلة هذا الرجل؛ نتيجة عمله في ديوان الإنشاء، وترى الباحثة في هذا الغموض أنَّ أسرته لم تكن مشهورة؛ ولكن بعد تعلُّمه وتقليده المناصب اشتهر، وهذا هو التعليل الصحيح^(٤).

(١) جلال، الجوانب المالية في كتاب صبح الأعشى، ص ٢١.

(٢) المقرئزي، تقي الدِّين أحمد بن علي بن عبدالقادر (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق: محمود الجليلي، دار الغرب الإسلامي، (بيروت، ٢٠٠٢م)، ص ٣١٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، (القاهرة، د.ت)، ١٤٩/٤.

(٣) جلال، الجوانب المالية في كتاب صبح الأعشى، ص ٢١.

(٤) الجوانب المالية في كتاب صبح الأعشى، ص ٢٣.

٣. التعريف بالمقريري (ت ٨٤٥هـ):

هو تقي الدّين أحمد بن علي بن عبدالقادر أبو العباس الحسيني^(١)، العبيدي، البعلي الأصل، القاهري، نسب إلى حارة في بعلبك تعرف بحارة المقارزة^(٢)، ولد سنة (٧٦٦هـ) في القاهرة، ونشأ نشأة حسنة^(٣)؛ فسمع القرآن الكريم، وسمع جماعة من الشيوخ، كالأمدي^(٤)، والبلقيني^(٥)، والتتوخي^(٦)، وغيرهم، ولي الحسبة، والخطابة، والإمامة مرات في القاهرة، وكان إمامًا بارعًا متقنًا دينًا خيرًا حسن الصحبة حلو المحاضرة، وكان متميزًا بالتاريخ على اختلاف أنواعه ومؤلفاته تشهد له بذلك^(٧)، قال السخاوي: "وقد قرأت بخطه أنّ تصانيفه زادت على مائتي مجلد كبار، وإنّ شيوخه بلغت ستمائة نفس"^(٨).

وقال الحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢هـ): "لّه النظم الفائق، والنثر الرائع، والتصانيف الباهرة، وخصوصًا في تاريخ القاهرة؛ فإنّه أحيا معالمها، وأوضح مجاهلها، وجدد مآثرها،

-
- (١) أبو زيد بكر بن عبدالله، طبقات النسابين، دار الرشيد، (الرياض، ١٩٨٧م)، ص ١٥٣.
- (٢) المغراوي، أبو سهل مُحَمَّد بن عبدالرحمن، موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية، المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، (القاهرة، د.ت)، ٤٩١/٨.
- (٣) السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ص ٥٥٧.
- (٤) الأمدي: هو الحسين بن أحمد بن عبدالله بن وهب بن علي أبو علي الأمدي المالكي. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١هـ/١٣٦م)، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (بيروت، ١٩٩٥م)، ٢٠/١٤.
- (٥) البلقيني: هو سراج الدّين عمر بن رسلان بن بصير السراج البلقيني القاهري الشافعي، ولد سنة (٧٢٤هـ) ببليقينة، حفظ القرآن الكريم، توفي سنة (٨٠٥هـ). المغراوي، مواقف السلف، ٤٦٠/٨.
- (٦) التتوخي: المحسن بن علي بن مُحَمَّد بن أبي الفهم داود التتوخي، البصري، أبو علي (ت ٣٨٤هـ). الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت (ت ٤٦٣هـ/١٠٠٠م)، تاريخ بغداد، تحقيق: بشار عواد معروف، دار المغرب الإسلامية، (بيروت، ٢٠٠٢م)، ١٩٩/١٥.
- (٧) المغراوي، موسوعة مواقف السلف، ٤٩١/٨.
- (٨) السيوطي، حسن المحاضرة، ص ٥٥٧.

وترجم أعيانها"^(١)، وقال أيضاً: أولع بالتاريخ يجمع منه كثيراً، وصنف فيه كتباً، وكان لكثرة ولعه به يحفظ منه كثيراً، توفي سنة (٨٤٥هـ)^(٢).

تميز المقرئ بأمانة العرض، والتجرد عن الأهواء، مع عدم التعصب لأي رأي وفكر، مع تقبل آراء الآخرين بكل احترام؛ ولذلك تميز بأنه يحترم قلمه، عفيف النفس واللفظ، وأنه يتقي الله فيما يقول؛ ولذلك اقترن اسمه بلقب التقي المقرئ^(٣)، ذكره ابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ) بأنه كان مؤرخ زمانه، لا يدانيه أحد في ذلك، مع معرفته بمن عاصره في عصره، ومع ذلك كان مبعداً من لدن الدولة، مع حسن محاضرتة^(٤)، وقال ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) فيه: "وكان إماماً بارعاً ديناً خيراً"^(٥).

وكان المقرئ (ت ٨٤٥هـ) يتمتع بشخصية مرموقة بين سائر المؤرخين المصريين من ناحية دقته في الرواية، ونشاطه الواسع، وعمله الدؤوب، وسعة دائرة أبحاثه، ودراسته، وعنايته الفائقة بالجانب الاجتماعي والإحصائيات السكانية التاريخية، ويمكن عدّه إلى حدّ ما مؤسساً لمدرسة تاريخية كان لها ازدهارها في مصر آنذاك، وبرزت منها أسماء مشرقة كابن حجر (ت ٨٥٢هـ)، والعيني (ت ٨٥٥هـ) من معاصري المقرئ^(٦).

(١) السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ٦٦/٢.

(٢) ابن حجر، إنباء الغمر بأبناء العمر، ١٧٢/٩.

(٣) ابن يونس المصري، عبدالرحمن بن أحمد بن يونس الصفدي أبو سعيد (ت ٣٤٧هـ/٩٥٨م)، تاريخ ابن يونس، دار الكتب العلميّة، (بيروت، ١٤١٢هـ)، ٥٤١/٢؛ وينظر: السيوطي، حسن المحاضرة، ص ٥٧.

(٤) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٨٩/١٥.

(٥) إنباء الغمر بأبناء العمر، ١٨٨/٤.

(٦) المقرئ، الخطط، (مقدمة المؤلف)، ٣/١.

٤. التعريف بمصنفات القلقشندي (ت ٨٢١هـ)، والمقريزي (ت ٨٤٥هـ):

صنّف كلّ من المؤرخين القلقشندي (ت ٨٢١هـ)، والمقريزي (ت ٨٤٥هـ) العديد من الكتب، والمؤلفات، والرسائل، وسنعرض في أدناه بالشرح اليسير للكتب ذات العلاقة بموضوع الدّراسة، والموضوع الذي دارت عليه، أمّا الكتب الأخرى التي لا تشكل أهمية أو أساس في موضوع الدّراسة فنستعرض لها عن طريق جداول؛ لتكتمل الصورة عن هذين العالمين اللذين عاشا في القرن التاسع الهجريّ في مصر عمّا سبقه ممّا قدماه، واستعرضنا لما من مصنّفات في فنون المعرفة، فضلاً عمّا ميزهما عن غيرهما من علماء ذلك القرن.

المعتمد من كتب القلقشندي في الدّراسة:

أ. صبح الأعشى في صناعة الأنشا:

يقع الكتاب في مقدمة وعشرة مقالات، وخاتمة، فضلاً عن المقدمة؛ إذ يقول: "وقد رتبته على مقدمة، وعشر مقالات، وخاتمة"^(١)، ويقع الكتاب في أربعة عشر جزءاً، قسّم كلّ جزء من أجزائه على مقالات، وقسّم المقالات على أبواب، وفصول، وأقسام، ومقاصد، وضروب، وأنواع بحسب العنوان الذي يحمله كلّ باب، أو فصل، أو قسم، وما إلى ذلك من العنوانات المختلفة، التي لم يبقَ شاردة أو واردة إلا وقد ذكرها. وقد بيّن في المقدمة مقاصد كتابه، وما ترجمه قلمه من أفكار نتجت عن ضميره، وما وهبه الله تعالى من بنات الأفكار؛ فهو يقول: "أحمده على أنّ وهب لي من بنات الأفكار ما يربو في الفخر على ذكور الصوارم، ومنح من جواهر الخواطر ما يزكو من الإنفاق ولا ينقص بالمكارم"^(٢).

وقد كانَ للوظائف التي شغلها القلقشندي أثر في أداء أعماله، وفيما احتواه هذا الكتاب من مادة ثرية في مختلف الاتجاهات؛ فقد اشتغل في ديوان الإنشاء في الدولة

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣٦/١.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٩/١.

المملوكية سنة (٧٩١هـ)، وكان مترفعًا عن أن يأخذ مرتبًا على عمله؛ إذ يقول: "كنت عصاميًا لا عظاميًا"^(١)، واشتغل في ديوان الأحباس^(٢)، ويبدو أن عمله ذلك كان له أثر كبير فيما احتواه كتابه من معلومات ذات قيمة كبرى، ولاسيما في الجانب الإداري، وهذا واضح عن طريق الأبواب التي تضمنت الجوانب كلها، ولم يكن الأمر مقتصورًا على ذلك، بل تعداه إلى جوانب مهمة كثيرة، كان الذي يهمننا فيها ما احتواه من معلومات تاريخية فيه عن موضوع البحث والدراسة (إفريقيا جنوب الصحراء)، وقد كان للقلقشندي وقفات مهمة في معرض حديثه عن الممالك والبلدان الجنوبية عن مملكة الديار المصرية، وما اشتملت عليه من بلاد السودان من مملكتي البجة والنوبة، ومملكتي الكانم والبرنو، ومملكتي مالي، والحبشة، وبيان ما من ذلك بيد الملوك المسلمين، وما منه بيد ملوك النصارى^(٣).

المعتمد من كتب المقرئزي (ت ٨٤٥هـ) في الدراسة:

- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار:

يذكر في هذا الكتاب المواعظ والآثار، والمعروف بـ(الخطط المقرئزية)؛ نسبة لمؤلفه العلامة الجليل تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقرئزي (ت ٨٤٥هـ)، يؤرخ هذا الكتاب لمصر في أثناء المدة الممتدة من سنة (٢٠هـ) حتى سنة (٩٠٦هـ)، مبيِّنًا ما للنيل العظيم من أثر في حياة مصر، متعرضًا لمناخها، وطقسها، مؤرخًا للكيفية التي جرى بها إنشاء كل من مصر والقاهرة، وابتدأ بحارات القاهرة وظهورها، معددًا سبعا وثلاثين حارة، مبيِّنًا كيفية بناءها، ومن قام على ذلك البناء؛ منطلقًا إلى ما يطلق عليه اسم حارة، أو درب، بل يسمى خطأ، وهي كثيرة، وقد أورد ما تيسر له منها؛ فكان

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٢٦/١٤.

(٢) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ٤٢٣/٢. وديوان الاحباس: هو معني بشؤون الأوقاف العامة والخاصة. البقلي، مُحَمَّد قنديل، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، ١٩٣٨م)، ص ١٤١؛ جلال، الجوانب المالية في كتاب صبح الأعشى، ص ٣٠.

(٣) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٤٤/١.



ثلاثون خطأ، مبيئًا ما كانَ عليه كُلُّ خط، متنقلًا إلى ذكر الدروب والأزقة، مبيئًا أسماءها التي كانت وما أصبحت^(١)، ولا نريد الخوض كثيرًا في أهمية هذا الكتاب، الذي ألفه صاحبه؛ ليكون في الدرجة الأولى للتعرف إلى ماضي مصر، الذي لم يترك فيه شاردة أو واردة إلا مرَّ عليها في تاريخ مصر في المدة المذكورة آنفًا، وإنما الذي يهمنا هو ما قدمه لنا هذا الكتاب من خدمة قيِّمة في موضوع إفريقيا (إفريقيا جنوب الصحراء).

- كتاب الإمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام:

يعود كتاب الإمام للمقريزي إلى تلك المدة التي قضاها في جوار مكة، وقد أفرز مكوته هناك مجموعة من الرسائل العلميّة، ومنها هذا الكتاب، وقد اعتمد المقريزي في كتابه هذا على الروايات الشفوية، التي كانَ يسمعها من الحجاج القادمين من تلك الأماكن، وأنَّه اعتمد على كتابات الرحالة السابقين من أمثال: ابن سعيد، الرحالة المغربي الشهير في الجزء الذي تناول مناطق غرب إفريقيا، وأيضًا بعض كتب المسالك والممالك، واعتمد على الروايات الشفوية من الذين زاروا تلك الأماكن^(٢).

أمَّا محتويات الكتاب فيحتوي على مقدمة، وأربعة فصول، تحدث الفصل الأوّل عن تاريخ الحبشة، ذاكراً فيه أشهر ملوكها، وتحدث عن انتشار النصرانية فيها، وتطور نظمها الحضارية والاجتماعية، أمَّا الفصل الثاني فتحدث فيه عن بلاد الزيلع، ذاكراً أهم دولها، مع دراسة لأهم نظمها السياسية والحضارية، وتحدث الفصل الثالث عن أثر المسلمين إلى الهند ضد الأحباش، وأثر بعض سلاطين المسلمين في قيادة حركة الجهاد.

(١) المقريزي، الخطط، ٣/١.

(٢) ينظر: المقريزي، الإمام، تحقيق وتعليق ودراسة: عبدالمنعم ضيفي عثمان عبدالمنعم،

وتأتي أهمية الكتاب من أنه يقدم معلومات عن بلاد شرق إفريقيا، وهو قدم وصفاً لملامح الحياة السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، وأيضاً أبرز قدرة المقرئ الجغرافية التي تظهر في تقديمه معلومات عن الموقع والمناخ؛ ولكن مما يعاب على المقرئ وجود بعض الروايات المبالغ فيها، كرواية السحرة، الذين يستطيعون أن يقفوا السحاب، أو رواية وجود شجرة تظل نحو مائتي فارس، وكثير من الروايات التي تظهر في طيات الكتاب، وإن كان هذا لا يقلل من قيمة الكتاب العلمي^(١).

- المؤلفات الأخرى للقلقشندي (ت ٨٢١هـ)، والمقرئ (ت ٨٤٥هـ)^(٢).

(١) المقرئ، الإمام، ص ٧٤-٧٥.

(٢) ينظر: الملحق (١).

الفصل الأوّل

جغرافية إفريقيا جنوب الصحراء

من خلال روايات القلقشندي (ت ٨٢١ هـ)

والمقرئزي (ت ٨٤٥ هـ)

١. إفريقيا جنوب الصحراء (التسمية والمصطلح).

٢. ممالك إفريقيا جنوب الصحراء.

أ. بلاد البجة.

ب. بلاد النوبة.

ت. بلاد البرنو.

ج. بلاد مالي.

ح. مملكة الحبشة.

١. إفريقيا جنوب الصحراء (التسمية والمصطلح):

أطلق الجغرافيون والمؤرخون العرب على البلاد التي تقع جنوب الصحراء الكبرى مصطلح (بلاد السودان)، وأصل هذه التسمية مستوحى من لون البشرة، التي تميز سكان تلك الأماكن عن غيرهم^(١).

فقد أورد ابن رسته (ت ٣٠٠هـ/٩١٢م) رواية في هذا الصدد تقول: "إنَّ السودان والحبشة يسكنون في بلاد تحاذيها البروج من بين مدار الحمل إلى السرطان، وأنَّ الشمس في هبوطها وصعودها في تلك البروج تتوسط السماء التي تسخن أهويتهم، وتحرقهم؛ ولهذا صارت ألوانهم سوداء، وشعورهم ققطعة، وأبدانهم يابسة، وأطباعهم حارة"^(٢).

أمَّا القزويني (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) فقد عرّف بلاد السودان بأنّها: "بلاد كبيرة وأرض واسعة، ينتهي شمالها إلى أرض البربر، وجنوبها إلى البراري، وشرقها إلى الحبشة، وغربها بحر المحيط"^(٣).

أمَّا أبو الفدا (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م) فيحدد بلاد السودان بأنّها: "جهة الجنوب، وأنّها بلاد كثيرة الأجناس المختلفة من الحبش، والزنج، والنوبة، والتكرور، والزليع، وغيرهم"^(٤).

(١) ابن سعيد، أبو الحسن علي بن سعيد المغربي (ت ٦٧٣هـ/١٢٧٥م)، الجغرافيا، تحقيق: إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة، (بيروت، ١٩٧٠م)، ص ١٠.

(٢) أبو علي أحمد بن عمر (ت ٣٠٠هـ/٩١٢م)، الأعلام النفيسة، مطبعة بريل، (ليدن، ١٨٩٢م)، ص ٩٩.

(٣) القزويني، زكريا بن مُحَمَّد بن محمود (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، (بيروت، د.ت)، ص ٢٤.

(٤) أبو الفدا، عماد الدّين إسماعيل بن مُحَمَّد (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م)، تقويم البلدان، تحقيق: ريندوماك، دار صادر، (باريس، ١٨٥٠م)، ص ٢.

أمّا ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/٤٠٦م)، فإنّه عندما يتحدث عن أمم السودان يقول: "... إنَّهم أصناف، وشعوب، وقبائل، أشهرهم بالمشرق الزنج، والحبشة، والنوبة"^(١). وقد عرف الفلقشندي (ت ٨٢١هـ/٤١٨م) بلاد السودان بأنّها: "بلاد متسعة الأرجاء، رحبة الجوانب، حدّها من الغرب البحر المحيط"^(٢)، ومن الجنوب الخراب ممّا يلي خط الاستواء، ومن الشرق بحر القلزم^(٣) ممّا يلي بلاد اليمن، ومن الشمال البراري الممتدة بين الديار المصرية وأرض برقة^(٤)، وبلاد البربر^(٥)، ومن جنوبي المغرب إلى بحر المحيط"^(٦).

وعليه، واعتماداً على ما ورد من نصوص جغرافية يمكننا القول: إنّ إفريقيا جنوب الصحراء هي المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً، وأنّ اسم السودان هو ما يطلق على تلك البلاد، وما تشتمله من قبائل، وهو وصف الأرض الإفريقية التي تقع إلى جنوب الصحراء الكبرى.

(١) ابن خلدون، عبدالرحمن بن مُحمَّد (ت ٨٠٨هـ/٤٠٦م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الفكر، (بيروت، ٢٠٠١)، ص ٢٦٤.

(٢) البحر المحيط: المحيط الأطلسي. العمري، شهاب الدّين أحمد بن يحيى بن فضل الله (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، مسالك الأبصار وممالك الأمصار، تحقيق: أحمد عبّاس وآخرون، نشر المجمع الثقافي، (أبو ظبي، ٢٠٠٢م)، ٤/١٢٠.

(٣) بحر القلزم: البحر الأحمر، وسمي ببحر القلزم؛ نسبة إلى اسم مدينة على ساحله. ياقوت، شهاب الدّين أبو عبدالله الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان، دار صادر، (بيروت، ١٩٧٧م)، ٤/٣٨٧؛ البكري، سراج الدّين أبو حفص عمر بن المظفر (ت ٨٥٢هـ/١٢٩٩م)، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تحقيق: نور مُحمَّد زناتي، مكتبة الثقافة الإسلامية، (القاهرة، ٢٠٠٨م)، ١/٢٢٩.

(٤) برقة: اسم أطلقه العرب على المدينة التي بينت على أطالها مدينة الجبل الأخضر. ابن سعيد، الجغرافيا، ص ١٤٦.

(٥) بلاد البربر: وهي الجبال الشمالية لإفريقية، يسكنها الأمازيغ، وللبربر لغة خاصة، دخلوا الإسلام، وشاركوا في فتح الأندلس بقيادة أحد أبناءها وهو طارق بين زياد. ياقوت، معجم البلدان، ٤/٤٤٥.

(٦) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٥/٢٧٣.

ويمكن تقسيم بلاد السودان على ثلاثة أقسام على النحو الآتي:

أ. **السودان الشرقي:** ويمتد من البحر الأحمر شرقاً حتى حدود إقليم دارفور^(١) غرباً، وتضم الحوض الأعلى والأوسط لنهر النيل، فضلاً عن الساحل الشرقي لإفريقيا، وقد أطلق عليه العرب بلاد الزنج ما قبل القرن الرابع الهجري حتى السادس الهجري^(٢)، إلا أن كلمة السودان كانت تشملها أيضاً^(٣).

ب. **السودان الأوسط:** ويشمل الأماكن المحيطة ببحيرة تشاد بين خطي عرض (٢٢) شمالاً، و (١٠) جنوباً، وبين خط طول (١٠) شرقاً، و (١٥) غرباً^(٤)، وتحده إمارة إمارة الهوسا^(٥) من الغرب وإقليم دارفور من الشرق^(٦)، والصحراء الكبرى شمالاً،

(١) إقليم دارفور: وهو أكبر أقاليم السودان الحالي، تقع حدوده أغلبية مع ليبيا، وتشاد، وإفريقيا الوسطى، ويمتد الإقليم من الصحراء الكبرى من شمالها إلى السفانا في الجنوب. الباقر العفيف، ما وراء دارفور، ترجمة: مُحَمَّد سليمان، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، (القاهرة، ٢٠٠٦م)، ص ٤.

(٢) بلاد الزنج: يقصد بالزنج مجموعة القبائل التي كانت تعيش بمنطقة السودان الغربي تميزاً عن العناصر الأخرى التي هاجرت إلى تلك المنطقة من البربر والعرب. باري وكريديه، المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ وحضارة، دار الرشد الإسلامية، (بيروت، ٢٠٠٦م) ص ١٢٣.

(٣) الأمين، عوض الله، العلاقات بين المغرب والسودان في عصر السلطتين الإسلاميتين مالي وصنغى، دار المجمع العلمي، (جدة، ١٩٧٩م)، ص ٤١.

(٤) لانجى، ديرك، ممالك تشاد وشعوبها، تاريخ إفريقيا العام، اليونسكو، ١٩٦٨م، ٢٤٧/٤.

(٥) إمارة الهوسا: تقع بلاد الهوسا في الأماكن المحصورة بين الصحراء الكبرى شمالاً، وبين الربوع الساحلية لخليج غانا جنوباً، وبين يرنو في الشرق ونهر النيجر في الغرب، وبلاد الهوسا سبع أقاليم أهمها: إقليم كنو الإسلامية وإقليم كاشنة. مراد، حسين، دولة كانم الإسلامية تطورها السياسي والحضاري حتى نهاية القرن ٩هـ/١٥م، جامعة القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٥.

(٦) زياديه، عبدالقادر، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع (الجزائر، ١٩٧٠م)، ص ١٥.

شمالاً، والغابات الاستوائية جنوباً^(١)، وقامت في هذا القسم من بلاد السودان ممالك عدّة من أبرزها: مملكة كانم، وسلطنة البرنو^(٢).

ت. السودان الغربي: ويشمل الأراضي الواقعة بين حوض نهر السنغال، ونهر جمبيا، والمجرى الأعلى لنهر الفولتا، والحوضين الأعلى والأوسط لنهر النيجر^(٣)؛ ممّا يساعد على وجود الزراعة وحياة الاستقرار^(٤)، وتكاد تتطابق السودان الغربي مع حدود دولة مالي في عهد ازدهارها واتساعها؛ إذ قامت هذه الدولة في هذا القسم^(٥).

٢. ممالك إفريقيا جنوب الصحراء:

يذكر الفلقشندي (ت ٨٢١هـ) في معرض حديثه عن السودان، التي بناها بأنّها البقعة الجغرافية التي تعرف بإفريقيا جنوب الصحراء، وتمتد من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر، ذكر أنّ تلك البلاد تشتمل على ست ممالك مشهورة، وهي: "بلاد البجا، وبلاد النوبة، وبلاد برنو، وبلاد كانم، وبلاد مالي، ومملكة الحبشة"^(٦)، وسنتناولها على النحو الآتي:

(١) الأمين عوض الله، العلاقات بين المغرب والسودان، ص ٤١.

(٢) العمري، شهاب الدّين أبو العبّاس أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، التعريف بالمصطلح الشّريف، تحقيق: محمّد حسين شمس الدّين، دار الكتب العلميّة، (بيروت، ١٩٧٧م)، ص ٤٦-٤٧.

(٣) نهر النيجر: هو نهر عظيم يمر بمالي ومنابعه في شمال سيراليون وليبيريا، ويصب في المحيط الأطلسي. ابن بطوطة، محمّد بن عبدالله بن إبراهيم الطنجي (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، رحلة ابن بطوطة، (القاهرة، ١٩٦٤م)، ٢/٥٢٨.

(٤) محمّد عبدالله النقيرة، التأثير الإسلامي في غرب إفريقيا، مطابع الفرزدق التجارية، (الرياض، ١٩٨٨م)، ص ١٧.

(٥) العمري، التعريف بالمصطلح الشّريف، ص ٣٧.

(٦) صبح الأعشى، ٥/٢٦٣.

أ. بلاد البجا:

أولاً: التسمية:

البجة: بضم الباء الموحدة، وفتح الجيم، وألف في الآخر^(١)، أو بضم الباء، وفتح الجيم وإضافة تاء مربوطة (البُجة)^(٢).

وقد وردت أول إشارة إلى اسم البجة في المصادر العربية بعد ظهور الإسلام عند الواقدي (ت ٢٠٧هـ/٨٢٣م) باسم بجاوة^(٣)، ووردت عند بعض المؤرخين بضم الباء، وفتح الجيم، وإضافة ألف زائدة (البُجَا)^(٤)، ووردت عند آخرين^(٥): بضم الباء، وفتح الجيم، وألف وتاء مربوطة (البُجاة)، ولعل اللفظ هو لفظ (البُجة) بضم الباء، وفتح الجيم^(٦)، ثم تحولت الضم إلى كسر فيما بعد^(٧).

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أن المؤرخين العرب لم يكونوا أول من أطلق اسم البجة على سكان الصحراء الشرقية وما يليها جنوباً على مدى العصور، من ذلك مثلاً أن بعضهم ظن أن الاسم مصدر لفظ بوكا (Buka) أو (Bukak)، الذي جاء في

(١) المقرئزي، الخطط، ١/١٩٤.

(٢) المقرئزي، الخطط، ١/٣٥٨.

(٣) أبو عبدالله مُحَمَّد بن عمر (ت ٢٠٧هـ/٨٢٣م)، فتوح الشام، (بيروت، د.ت)، ٢/٥٥.

(٤) ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن سعيد المغربي (ت ٦٧٣هـ/١٢٧٥م)، بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق: خوان قرنيط خنيس، (تطوان، ١٩٥٨م)، ص ٥٠؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ١٢٠.

(٥) ابن جبير، أبو الحسن مُحَمَّد بن أحمد (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م)، تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار، المعروف برحلة ابن جبير، تحقيق: حسين مؤنس، (القاهرة، ١٩٠٨م)، ص ٤.

(٦) رمضان، عبدالعظيم، الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة، ١٩٩٩م)، ص ٢٩٣.

(٧) بصيلي، الشاطر، تاريخ وحضارات السودان الوسطى، (القاهرة، ١٩٨٧م)، ص ١٤٥.

النصوص المصرية القديمة، التي ترجع إلى عصر الملك تحتمس الثالث^(١)، وبوكا: هو اسم قبيلة من القبائل الجنوبية التي اخضعها المصريون لسلطانهم آنذاك، ووردت في إحدى النقوش الأكسومية^(٢)، التي ترجع إلى القرن الرابع الميلادي باسم بوجايتاي (Bugaitae)^(٣).

وعلى أية حال ومهما وردت من أقوال فقد اتفق عدد من الباحثين على أن اسم البجة قديم جداً؛ لأنَّ شعب البجة كانَ معروفاً لدى المصريين القدماء تحت اسم (مزا)، أو (مجا)، أو (ميجو)، وللکلمة هجاءات مختلفة، ولكنها متقاربة^(٤)، وهي تعني في الفرعونية: الحارس أو المحارب^(٥)؛ معتمدين في ذلك على عدد من الأدلة التي وردت في النقوش الفرعونية، التي تشير إلى استعانة الفراعنة بقبائل جنوبية تحت اسم (مجا) تتطابق صفاتهم ومواطنهم مع قبائل البجة الحالية^(٦).

(١) تحتمس الثالث: هو أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة من الفراعنة، الذي تولى الحكم في مصر في المدة ما بين (١٤٧٨-١٤٢٥ ق.م)، اشتهر عصره بالاضطرابات والانقلابات في أطراف الأقاليم المصرية، ولاسيما في بلاد النوبة؛ مما اضطره للقيام بسبعة عشر حملة عسكرية هناك، فضلاً عن هذا فقد امتاز عصره بعددٍ من الإنشاءات العمرانية، أهمها: تغيير واجهة معبد (أمون رع) بالكرنك. نيقولا جريمال، تاريخ مصر القديمة، ترجمة: ماهر جويجاني، (القاهرة، ١٩٩٣م)، ص ٢٧١.

(٢) النقوش الأكسومية: وهي آثار خلفتها دولة كانت قائمة قديماً في شمال شرق إثيوبيا، سيطرت على منطقة الساحل الإفريقي المقابل لليمن، وعرفت هذه الدولة بمملكة أكسوم، التي يظن أنها قامت على يد العرب الجنوبيين. علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة الساقى، (بغداد، ١٩٩٣م)، ٤٥١/٣.

(٣) سعيد، مصطفى، البجة والعرب في العصور الوسطى، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد ٢١، ج ٢، ديسمبر ١٩٥٩م، ص ٤.

(٤) عوض، مُحَمَّد، السودان الشمالي سكانه وقبائله، لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة، ١٩٥١م)، ص ٣٢.

(٥) ماهر، سعاد، محافظات الجمهورية العربية المتحدة في العصور الإسلامية، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، م ٢١، العدد الأول، ١٩٥٩م، ص ١٧٩.

(٦) حسن، سليم، مصر القديمة، (القاهرة، ٢٠٠٠م)، ٥٢/١.

ثانياً: جغرافية بلاد البجة:

تقع البجة في الصحراء الشرقية جنوب الصعيد^(١) ممّا يلي الشرق فيما بين بحر القلزم (الأحمر) وبين نهر النيل على مقربة من الديار المصرية^(٢) إلى شمال بلاد النوبة والحبشة^(٣)، وبين البحر الأحمر شرقاً ونيل مصر والسودان غرباً^(٤)، وفي صحراء طولها طولها أكثر من ألف فرسخ^(٥)، وعرضها ثلثمائة^(٦)، وأنّ بداية طول هذه البلاد الشاسعة، الشاسعة، تأتي من الشمال من قرية بخرية معدن الزمرد^(٧) في صحراء القوص^(٨)، وبين وبين ذلك الموضع وبين قوص مسافة ثلاث مراحل^(٩)، ويمتد ذلك الطول جنوباً حتّى

(١) الصعيد: هو مرتفع من الأرض وأول من أطلق على هذا الجزء من مصر الصعيد هم العرب عندما فتحوا مصر، ويقال أيضاً للصعيد الوجه القبلي، أو الأرض التي ليس بها سباخ ولا رمال، بل كلّها أرض طيبة وأول بلاده الجيزة وآخره أسوان. العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١٧٣.

(٢) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٦٣/٥.

(٣) ياقوت، معجم البلدان، ٣٣٩/١؛ ابن عبدالحق، رضي الدّين بن عبدالحق البغدادي (ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م)، مرصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق: علي مُحمّد الجاوي، دار صادر، (بيروت، ١٩٥٤م)، ١٦٣/١.

(٤) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: مُحمّد محي الدّين عبد الحميد، (بيروت، ١٩٨٣م)، ١٨/١.

(٥) الفرسخ: ما يقارب ثلاثة أميال، والميل مقداره (٤٠٠٠) أربعة آلاف ذراع تقريباً. مُحمّد، علي جمعة، المكايل والموازين الشرعية، ط ٢، القدس للنشر والتوزيع، (القاهرة، ٢٠٠١م)، ص ٥٤.

(٦) ناصر خسرو، سفرنامه، تحقيق: يحيى الخشاب، (القاهرة، ١٩٤٥)، ص ١٣٤.

(٧) خربة معدن الزمرد: وهي تعرف بضرية الملك، وهي موضع يستخرج منه الزمرد، وهو على ست مراحل من البجة. ياقوت، معجم البلدان، ٣٥٥/٢.

(٨) قوص: بالضم ثمّ السكون وهاء مهملة، وهي من مدن مصر، وهي مدينة كبيرة وعظيمة، بينها وبين وبين القاهرة اثنا عشر يوماً، أهلها أرباب ثروة واسعة، وهي محطة تجارية للتجار القادمين من عدن. ياقوت، معجم البلدان، ٤١٣/٤.

(٩) المقرئزي، الخطط، ٣٥٨/١. والمرحلة: هي المسافة التي يقطعها المسافر في نحو يوم بالمسير المعتاد على الدابة، وجمع مرحلة: مراحل، ومقدار المرحلة (٢٤) ميلاً. مُحمّد، المكايل والموازين الشرعية، ص ٥٦.

ينتهي بالمنحدرات الشمالية لهضبة الحبشة؛ لذلك نجد تلك البلاد جاورت أرض الحبشة من الشمال^(١)، ويأتي عرضها من ساحل البحر الأحمر شرقاً ويمتد غرباً إلى جبال منيعة تفصل بينها وبين أرض النوبة^(٢)، وتلك الأوطان لا تمثل موطن البجة فحسب، بل مثلت الموطن الأصلي لهم؛ وذلك منذ زمن موغل في القدم، وأن تلك القبائل استوطنت منذ عهد الأسرة السادسة الفرعونية (٦٤٦٠-٢٢٠٠ ق.م) في إقليم يعرف بإقليم (مجا)، أو (مزا)^(٣)، وعرف أهله القائمين عليه باسم (أونوت)، ويعني: رامي القوس، ولكن تلك الأوطان ضاقت عمًا كانت عليه في العصور اللاحقة، وأخذت تالف من الأراضي الواقعة بين البحر الأحمر شرقاً ونهر عطبرة^(٤)، ثم النيل الأكبر غرباً، وتمتد من المنحدرات الشمالية لهضبة الحبشة في الجنوب إلى نهاية أسوان في الشمال^(٥)، وتحديداً يحد ذلك الإقليم من الشمال خط وهمي يبدأ من منطقة عيذاب^(٦) الواقعة على البحر الأحمر في الشرق، وينتهي غرباً ببلدة العلاقي الواقعة على نهر النيل شمال مدينة وادي حلفا، ويحده شرقاً حوض البحر الأحمر، أما في الجنوب فيحدّه

(١) البكري، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص ٤٨.

(٢) ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن مُحَمَّد بن عثمان الهمداني (ت ٣٦٥هـ/٩٧٤م)، البلدان، تحقيق: يوسف هادي، عالم الكتب، (بيروت، ١٩٩٦م)، ٧٨/١.

(٣) حسن، مصر القديمة، ص ٨٢.

(٤) نهر عطبرة: ويعرف أيضاً: تبراً، وهو أحد روافد الحبشة التي تصب في نهر النيل. الصياد، مُحَمَّد مُحَمَّد محمود وآخرون، السودان دراسة في الوضع الطبيعي والكيان البشري والبناء الاقتصادي، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة، ١٩٦٦م)، ص ٧٤.

(٥) مُحَمَّد عوض، الشعوب والسلالات الإفريقية، دار المصرية للتأليف والترجمة، (القاهرة، ١٩٦٥م)، ص ٤٦.

(٦) عيذاب: وهي أكثر بلاد البجة أهمية، وأعلاها شهرة؛ لأنها حظيت بميناء كان ذو أثر كبير ومهم على المستوى المحلي، والإقليمي، والعالمى، وكان ذلك الإقليم يستعمل للأغراض الحربية في بداية الأمر، وما لبث أن أصبح يستعمل للأغراض التجارية، وأصبح أعظم ميناء تجاري في تلك البلاد، إلا أن عيذاب وميناءها أصبحت خراباً ومكاناً مندثرًا. الشامي، عبدالعال عبدالمنعم، محاضرات في الجغرافية التاريخية، (القاهرة، ١٩٩٨م)، ص ٢٨.

خط وهمي يمر من ساحل البحر الأحمر جنوبًا، وينتهي غربًا بنهر عطبرة في أرض الشمال حيث بلدة القصارف جنوب السودان^(١).

ومن الجدير بالذكر أنَّ هذا الإقليم اتصف بصفات جغرافية متنوعة تمثلت بالتضاريس وموارد الماء، وما يترتب على ذلك من تنوع النبات والحيوان، ولعل اختلاف التضاريس هو أكبر عامل طبيعي يؤثر في الظواهر الطبيعية الأخرى، وأكبر مظهر لاختلاف التضاريس هو وجود تلك السلاسل الجبلية الممتدة من الجنوب إلى الشمال في محاذاة البحر الأحمر في شكل مرتفعات متصلة الحلقات فيما عدا مكان واحد يشقه خور بركة^(٢).

الذي يلحظ أنَّ تلك المرتفعات المحاذية للبحر الأحمر أنَّها تلتصق به أحيانًا؛ حتى لا يكاد يفصلها عنه شيء، وتبتعد عنه أحيانًا؛ فتترك بينها وبينه سهلًا ساحليًا ضيقًا يراوح عرضه ما بين (٢٠-٣٠ كم)، يضيق في القسم الأعظم من الجهات الداخلية في السودان والأكثر اتساعًا في الجزء الداخلي في حدود مصر، كذلك نجد أنَّها متموجة ليست متساوية في الارتفاع والوعورة؛ فترتفع في بعض الجهات لتزيد عن (١٥٠٠م) لتقل في الأخرى عن (٥٠٠م)، أمَّا من ناحية الانحدار والوعورة فيكون فجائي من جهة الشرق، وتدرجي من جهة الغرب، تتخلله بعض الأودية والسهول^(٣).

وَمِمَّا لاشكَّ فيه فقد أثرت تلك الجبال واختلاف مظاهرها في تنوع موارد المياه وتوزيعها، ولاسيما في مصادرها الأولى، ألا وهو سقوط الأمطار؛ إذ إنَّها تكون غزيرة في مكان، وتقل في مكان أخرى، فضلًا عن مواسم سقوطها؛ فمنها ما هو صيفي،

(١) الشاطر، تاريخ وحضارات السودان، ص ١٤٥.

(٢) خور بركة: هو أحد الأنهار الموسمية في بلاد البجة، وينبع من شمال الحبشة، وينتهي في السهول الساحلية السودانية. الصياد، السودان، ص ٤٣.

(٣) مُحَمَّد عوض، السودان الشمالي سكانه وقبائله، ص ٢٣.

ومنها ما هو شتوي؛ فالمرتفعات المنحدرة غربًا وما يليها في ذلك الاتجاه أمطارها صيفية والمرتفعات الشرقية والساحلية؛ فأمطارها شتوية^(١).

ثالثًا: أهم مدن بلاد البجة:

١. سواكن:

بفتح السن المهملة والواو، وكسر الكاف والنون في الآخر^(٢)، وسواكن: اسم مصري قديم تعرف بـ(شواخن)، وهي إحدى الأقاليم النيلية الحبشية، وبمرور الوقت تحولت الشين إلى سين، و(خن) إلى (كن)؛ لخلو أبجدية اللغة البجاوية من حرف الخاء، وقيل: إنَّ اسمها اشتق من اسم (سجون) جمع سجن؛ إذ كان موضعها يستعمل سجن يضم الخارجين على القانون والمجرمين^(٣).

وقد ورد اسم سواكن أول مرة من خلال القرن (٥٢هـ / ٨م) كان ذلك عندما مرَّ بها أفراد الأسرة الأموية الهاربيين من العباسيين^(٤).

وتعدّ مدينة سواكن قاعدة بلاد البجة^(٥)، وأنها تُعدُّ مرفأً مهمًّا على ساحل بحر القلزم، ومقدمًا للسفن التي تأتي من جدة^(٦).

(١) مُحمَّد عوض، السودان الشمالي سكانه وقبائله، ص ٢٤-٢٥.

(٢) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٦٤/٥.

(٣) الشامي، صلاح الدين، الموانئ السودانية دراسة جغرافية تاريخية، مطبعة جامعة، (القاهرة، ١٩٦٢م)، ص ١٠١.

(٤) المقرئ، الخطط، ٣٥٨/١.

(٥) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٦٤/٥.

(٦) الحميري، أبو عبدالله مُحمَّد بن عبدالله بن عبدالمنعم (ت ٩٠٠هـ/١٤٩٥هـ)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط ٢، مؤسسة الناصر للثقافة، (بيروت، ١٩٨٠م)، ٧٥١/٢.

تقع سواكن في الطرف الغربي لبحر القلزم (الأحمر) ^(١) على الساحل ^(٢) جنوب مدينة عيذاب، وتبلغ المسافة بينهما سبع مراحل ^(٣)، وسواكن مدينة عامرة فيها متاجر، يستخرج البجيون اللؤلؤ الجيد من سواحلها، وتسير منها السفن إلى جزيرة باضع ^(٤)، وأهلها مسلمون ^(٥)، ويسكنها التجار ^(٦)، ازدهرت تلك المدينة ولمعت شهرتها في القرن الثامن الهجري - الرابع عشر الميلادي - وذاع صيتها؛ حتى أصبح اسمها يذكر كأحد موانئ البجة المهمة ^(٧)، وتميزت بنشاطها التجاري الكبير؛ حتى غدت في تلك المدة من أهم المراكز التجارية لدويلات النوبة النصرانية؛ حتى أصبحت بمنزلة النافذة الوحيدة التي تطل منها على التجارة العالمية ^(٨)، وقد أصبحت سواكن محط أنظار الطامعين؛ فقد عمل المماليك بمصر على محاولة إحكام السيطرة عليها، وتمكنوا في النهاية من ذلك، ورؤيًا كان الدافع وراء ذلك وضع حدٍّ للتهديدات المباشرة وغير المباشرة التي كان يتعرض لها التجار من لدن النوبيين في البحر الأحمر ^(٩).

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٦٤/٥.

(٢) ياقوت، معجم البلدان، ٢٧٦/٣.

(٣) ابن سعيد، بسط الأرض، ص ٥١.

(٤) باضع: وهي جزيرة في بحر اليمن على ساحل البجاة والحبشة، أهلها مسلمون، وباضع اليوم خراب.

خراب. ينظر: ياقوت، معجم البلدان، ٣٢٤/١؛ الحميري، الروض المعطار، ٣٣٢/١.

(٥) الحميري، الروض المعطار، ٣٣٢/١.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٦٤/٥.

(٧) المقرئ، الخطط، ٣٦٤/١.

(٨) ياقوت، معجم البلدان، ٢٧٦/٣.

(٩) الشامي، الموانئ السودانية، ص ١٠٩.

٢. علاقي:

بفتح العين المهملة واللام المشددة، ثمَّ ألف وقاف مكسورة، ثمَّ ياء مثناة من تحت آخر^(١)، وهي مدينة عظيمة^(٢)، تقع في الإقليم الأوَّل من الأقاليم السبعة، طولها ثمانى وخمسون درجة، وعرضها ست وعشرون درجة^(٣)، تقع قرب بحر القلزم، وبينها وبين النيل خمس عشرة مرحلة، وأقرب العمارة إليها مدينة أسوان^(٤)، بها خلق كثير من العرب العرب والسودان، وفيها أسواق.

يشربون من آبار تحفر في وادي العلاقي^(٥)، وهو وادٍ عظيم في صحراء مصر الشرقية، ينحدر من جبال البحر الأحمر من جهة الغرب ليصل إلى نهر النيل، يبلغ طول مجراه (٣٥٠ كم) تقريباً، ويقدر عرضه بنحو (٥٠ م) تقريباً.

والعلاقي مدينة من أهم المراكز لاستخراج الذهب، وكانت علاقي أهم مركز يربط بين عدَّة طرق تجارية في البلاد في أثناء العصور الوسطى^(٦)، وفيها معدن التبر يقوم باستخراجها عبيد السودان عن طريق الحفر، وبكميات كبيرة، والزرنيخ الأصفر ثمَّ يسبك^(٧)، ومن علاقي يدخل إلى بلاد البجة^(٨).

(١) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٦٤/٥.

(٢) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر (ت ٢٩٢هـ/٩٨٧م)، البلدان، دار الكتب العلميَّة، (بيروت، بيروت)، ١٧٢/١، (١٩٨٨م).

(٣) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٦٤/٥.

(٤) المقرئزي، الخطط، ٣٦٤/١.

(٥) اليعقوبي، البلدان، ١٧٢/١.

(٦) الشامي، محاضرات في الجغرافية التاريخية، ص ١٢٣.

(٧) اليعقوبي، البلدان، ١٧٣/١.

(٨) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٦٤/٥.

٣. عيذاب:

وهي بلدة صغيرة تقع على ضفة بحر القلزم، وهي مرسى المراكب التي تقدّم من عدن إلى الصعيد^(١)، وهي تقابل مكة المكرمة وجدة على ساحل البحر الأحمر من الجهة الغربية^(٢).

وعيذاب مدينة حسنة، ومجمع للتجار براً وبحراً، وأهلها يتعاملون بالدرهم عدداً، ولا يعرفون الوزن، يحكمها من لدن البجة، ووالي من لدن سلطان مصر، يقسمان جبايتهما على نصفين، وعلى عامل مصر القيام بطلب الرزق، وعلى عامل البجة حمايتها من الحبشة^(٣).

وقد اختلف في تبعية عيذاب؛ فمنهم من عدّها من أرض مصر؛ بوصفها جزءاً منها، ومنهم من جعلها من بلاد البجة، وبعضهم يجعلها من بلاد الحبشة^(٤).
وعيذاب مدينة غير مسورة، وكانت من أعظم مراسي الدنيا؛ بسبب أنّ مراكز الهند واليمن تحط فيها، وتقلع منها مراكب الحجاج الصادرة والواردة^(٥).

(١) ياقوت، معجم البلدان، ١/١٧١.

(٢) ابن خلدون، تاريخ، ١/٧٩.

(٣) البكري، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص ٤١.

(٤) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ١٢١.

(٥) المقرئزي، الخطط، ١/٥٥٣.

ب بلاد النوبة:

أولاً: التسمية:

إنَّ مصدر تسمية بلاد النوبة بهذا الاسم يرجع إلى جدهم نوبي بن قفط بن معد بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام^(١)، وأرجع ابن خلدون التسمية إلى أنَّ النوبيين ولد نوابه أو نوي بن كوش بن كنعان بن حام^(٢)، واجتهد آخرون بقولهم إنَّ كلمة نوبة انحدرت من الكلمة القبطية (notpt) وهي تعني (يظفر)؛ أي الشعب ذو الشعر المظفر، أو الشعب ذو الشعر المجعد^(٣)، وهناك رأي آخر يرى أنَّ مصدر التسمية يعود إلى كلمة (نوب)، وتعني في اللُّغة النوبية الفكر؛ أي تخليص المادة من الشوائب وتنعيمها، ويعني ذلك استناداً إلى هذا الرأي التلخص من الرذائل والأعمال الإجرامية^(٤).

وقد مرَّ لفظ النوبة بعدة مراحل تاريخية:

١. نب^(٥)، نوب^(٦)، في عهد الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١-١٧٨٣ ق.م).
٢. نباتا^(٧)، في عهد الأسرة الخامسة عشرة (٧١٥-٦٦٣ ق.م).
٣. نوباتا، نوباديا^(٨)، نحو عام (٥٣٠م).

(١) ينظر: المقرئزي، الخطط، ٣٥٤/١؛ وشيخ الربوة الدمشقي، شمس الدِّين أبي عبدالله مُحَمَّد بن أبي طالب (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٧م)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية، (بترسبورغ، ١٨٦٥م)، ص ٢٨٦.

(٢) تاريخ ابن خلدون، ١٤/٢.

(٣) جمل، شوقي، تاريخ السودان وادي النيل، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة، ١٩٦٩م)، ٨/١.

(٤) ناصر، مُحَمَّد رشيد، لغة آدم - عطاء أبدي لبني آدم، (بيروت، ١٩٩٥م)، ص ١٧.

(٥) فاننتيتي، تاريخ المسيحية في ممالك النوبة القديمة والسودان الحديث، (الخرطوم، ١٩٧٨م)، ص ٢٧.

(٦) مسعد، مصطفى مُحَمَّد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى بحث في تاريخ السودان وحضارته حتى أوائل القرن السادس عشر الميلادي، الهيئة المصرية للكتاب، (القاهرة، ٢٠١١م)، ص ٢٢.

(٧) حسن، مصر القديمة، ٤٧٤/١.

(٨) الجمل، تاريخ السودان وادي النيل، ص ٢٠٢.

٤. النوبة^(١)، نحو عام (٦٥٢/هـ٢١م).

ومِمَّا سبق يتضح أنَّ اسم النوبة مرَّ بعدة مراحل حتَّى وصل في النهاية إلى صيغته الحالية، والآن لم يبقَ من اسم النوبة في تلك البلاد غير أرض المرتفعات التي تقع في الجنوب من كردفان^(٢)، التي تعرف الآن باسم جبال النوبا^(٣).

ثانياً: جغرافية بلاد النوبة:

هي بلاد واسعة تقع جنوب مصر على ضفتي نهر النيل حتَّى أوسط بلاد السودان^(٤).

ويبدو هذا الوصف الجغرافي، ولاسيَّما من جهة الشمال، وهذا الحدَّ الأهم الذي أشار إليه كلُّ من الاضطخري (ت٣٤٦هـ)^(٥)، والمسعودي (ت٣٤٦هـ)^(٦)، وأبو الفداء

(١) المقرئزي، الخطط، ٣٥٤/١.

(٢) كردفان: وهو إقليم في وسط السودان، وكردفان اسم نوبي مشتق من كلمة (كلدوفان)، التي تعني أرض الرجال. شقير، نعوم، جغرافية وتاريخ السودان، دار عزت للنشر والتوزيع، (بيروت، ١٩٦٧م) ص ٧٦.

(٣) شقير، جغرافية وتاريخ السودان، ص ٦١.

(٤) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٦٤-٢٦٥؛ وينظر: المقرئزي، الخطط، ٣٥٢/١؛ اليعقوبي، البلدان، ١/١٩١؛ الاضطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن مُحَمَّد الفارسي (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م)، المسالك والممالك، تحقيق: مُحَمَّد جابر عبدالعال، (القاهرة، ١٩٦١م)، ص ١١؛ المسعودي، مروج الذهب، ٢/١٤؛ ابن حوقل، أبو قاسم بن حوقل النصيبي (ت٣٦٧هـ/٩٧٧م)، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، (بيروت، ١٩٩٢م)، ١/٥٦؛ ياقوت، معجم البلدان، ٥/٢٦؛ القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٤؛ أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن مُحَمَّد بن عمر (ت٧٣٢هـ/١٣٣٢م)، المختصر في أخبار البشر، دار المعارف للطباعة والنشر، (بيروت، د.ت)، ١/٩٥-٩٦؛ البكري، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص ١٦٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٨٨/٧.

(٥) المسالك والممالك، ص ١١.

(٦) مروج الذهب، ٢/١٤٧.

(ت ٧٣٢هـ) (١) من أن بلاد النوبة تبدأ عند نهاية أرض مصر، وأنه لا توجد حدود فاصلة بين البلدين، بل إنهما يتصلان عند أسوان المصرية وبلدة مريس (٢) النوبية (٣)؛ ولكن اليعقوبي (ت ٢٩٢هـ) (٤)، والقلقشندي (ت ٨٢١هـ) (٥) ذهبا إلى غير ذلك؛ إذ يريان يريان أن بين البلدين مسافة فاصلة من البراري الممتدة.

واختلف فيها؛ فمن ذكر مسافتها بأربعة فراسخ (٦)، وذكرها بخمسة أميال (٧)، أما المقرئ فقد حددها بمسافة ميل واحد، ويبدو أن ما ذكره المقرئ هو الأقرب للواقع؛ بدلالة ما ذكره المؤرخون العرب من قربها من مصر.

أما من ناحية الجنوب فإن بلاد النوبة تتصل بالحبشة عند بلدة تسمى طبلي (٨)، واستناداً إلى هذا فإن بلاد النوبة هي أول بلاد الحبشة.

أما من ناحية الغرب فقد توسع القلقشندي وجعله يمتد مدة أرض برقة والبربر إلى البحر الأحمر (٩).

(١) المختصر في أخبار البشر، ٩٦/١.

(٢) المريس: بلدة تعني الجنوب في اللغة القبطية، وإليها تنسب الرياح المريسية، وهي رياح جنوبية باردة تهب على مصر في فصل الشتاء، وأنها إقليم يمتد من الشلال الأول إلى الثاني، وعاصمتها مدينة جراش. ينظر: المقرئ، الخطط، ٣٥٢/١.

(٣) ابن حوقل، صورة الأرض، ٥٨/١.

(٤) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر (ت ٢٩٢هـ/٨٩٧م)، تاريخ اليعقوبي، (بيروت، ١٩٦٠م)، ١/١٩١.

(٥) صبح الأعشى، ٢٦٥/٥.

(٦) ناصر خسرو، سفر نامه، ص ١٣٢.

(٧) ياقوت، معجم البلدان، ٣٠٩/٥.

(٨) طبلي: بلدة تمثل الحد الفاصل بين السودان الشمالي والحبشة. شقير، جغرافية وتاريخ السودان، ٨٥/١.

(٩) الخطط، ٣٥٣/١.

ويبدو أنّ هذا التحديد لجهة الغرب بعيداً عن الواقع، ولاسيّما أنّ القلقشندي جعل الحدّ الغربي حدّاً جنوبيّاً.

أمّا من جهة الشرق فتحد بلاد النوبة البجة^(١)؛ ولكن القلقشندي عدّ بلاد البجة جزءاً من بلاد النوبة، عندما ذهب إلى الحدّ الشرقي لبلاد النوبة وهو البحر الأحمر^(٢)، ويبدو أنّ الاختلافات الحاصلة في تحديد الحدود يرجع إلى كثرة انحناءات النيل في بلاد النوبة^(٣)، التي تجعل من يتبعها سيراً على الأقدام كفيلاً بظهور مثل هذه الالتباسات والاختلافات بين الجغرافيين والمؤرخين.

وقسم الجغرافيون بلاد النوبة على ثلاثة أقسام، وهي: وادي النوبة العليا، ووادي النوبة الوسطى، ووادي النوبة السفلى^(٤)، أمّا وادي النوبة العليا فيمتد من نقطة التقاء النيلين الأبيض^(٥) والأزرق^(٦) إلى دنقلة^(٧).

وتبتعد حافة الوادي أحياناً قليلة؛ ممّا يجعله متسعاً، وتصبح له صفة الحوض التي تغمر بعض أجزائه أيام الفيضان، ويتمثل ذلك الجزء الذي يقع فيما وراء شندي^(٨)،

(١) المقرئزي، الخطط، ٣٥٤/١؛ وينظر: الاصطخري، المسالك والممالك، ص ١٠؛ ياقوت، معجم البلدان، ٣٠٩/٥.

(٢) صبح الأعشى، ٢٦٥/٥.

(٣) مُحَمّد عوض، السودان الشمالي سكانه وقبائله، ص ٢٨٤.

(٤) مُحَمّد عوض، السودان الشمالي سكانه وقبائله، ص ٢٨٥.

(٥) النيل الأبيض: يقع في السودان، وهو أحد روافد نهر النيل. ينظر: مُحَمّد الصياد، السودان دراسة في الوضع الطبيعي والكيان البشري والبناء الاقتصادي، ص ٦٥.

(٦) النيل الأزرق: يقع في السودان، ويعدّ أهم روافد نهر النيل؛ فهو المسؤول عن (٧٠%) من مياه الفيضان. الصياد، السودان دراسة في الوضع الطبيعي والكيان البشري والبناء الاقتصادي، ص ٦٦.

(٧) دنقلة: عاصمة مملكة مقرة النوبية. المقرئزي، الإلمام، ص ١٠٣.

(٨) شندي: هي إحدى مدن البربر، تبعد عن الخرطوم نحو (١٠٤) ميلاً، وكانت مركز مملكة جعلين في عهد مملكة سنار، وكانت من أهم المراكز التجارية في السودان. شقير، جغرافية وتاريخ السودان، ١٠٦/٢.

وكذلك الجزء الذي يمتد إلى وراء الجانب الأيسر من النهر الذي يتسع فيه الوادي على أحد الجانبين مركز تجمع السكان، الذين تساعدهم البيئة الطبيعية على مباشرة الزراعة، معتمدين على مياه النهر^(١).

أمّا أحوال المناخ في النوبة العليا من موقع الإقليم فهو جاف صحراوي تتضاءل فيه كميات الأمطار النوبية إلى حدّ كبير، وتتساقط تلك الكمية المحدودة في أشهر الصيف، وهي أشهر ترتفع فيها الحرارة بشكل ملحوظ، وتسود فيها رياح جنوبية ساخنة، وتلك الكميات المحدودة من المطر لا تؤثر في حياة السكان ونشاطهم إلا في حدود ضيقة؛ ولكنها مع ذلك تتجمع في بطون الأودية الجافة والأخوار، وتسيل باتجاه الأودية من الصحراء التي تشرف على الجانبين؛ فتبعث بعض النشاط في بطون تلك الأودية^(٢).

أمّا وادي النوبة الوسطى فيمتد من دنقلة إلى حلفاء، وكان لا يزال جزءاً أساساً من أوطان النوبيين يتصف ذلك الإقليم بضيق الأودية، وكثرة ما يتعرض مجرى النهر من جنادل^(٣)؛ ممّا يقلل من القيمة الإنتاجية لذلك الإقليم^(٤).

ولما كان الشريط على جانبي النيل ضيقاً ومرتفعاً عن مستوى النهر، فضلاً عن قلة الأمطار في وادي النوبة الشمالي؛ فقد أدى إلى قسوة الأحوال الطبيعية في ذلك الإقليم^(٥).

(١) مُحَمَّد عوض، السودان وادي النيل، ص ١٢١.

(٢) مسعد، الإسلام والنوبة، ص ١٨-١٩.

(٣) الجنادل: وهي حجارة وسط النيل يضعون عليها سراجاً مشعولة؛ فإذا غمرها الماء أرسلوا البشرى إلى مصر بالزيادة. ينظر: المقرئزي، الخطط، ٣٥٢/١؛ وابن عبدالحق، مرصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ٣٤٨/١.

(٤) مسعد، الإسلام والنوبة، ص ١٩.

(٥) مُحَمَّد عوض، السودان وادي النيل، ص ١٢٢-١٢٣.

أما وادي النوبة السفلى فيعدّ من الأماكن الطاردة سكانياً^(١)؛ لأنّ نهر النيل يبدو فيه منحصراً في بعض المواضع تبدو وكأنّها عمودين يشرفان على النهر مباشرة، مع وجود بعض الثغرات من الجانبين الشرقي والغربي^(٢).

ثالثاً: أهم مدن بلاد النوبة:

١. دنقلة:

بضم الدال المهملة، وسكون النون، وقاف مضمومة، ولام مفتوحة، وهاء في الآخر، وما قلة هو الجاري على أسنة أهل الديار المصرية^(٣)، ودُنقلة بضم الدال والقاف وسكون النون وفتح اللام، وقد ذكرت دنقلة، ودمقلة، ودنكلة^(٤)، تقع في الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة؛ إذ يبلغ طولها ثماني وخمسون درجة^(٥)، وعشر دقائق، والعرض أربع عشرة درجة وخمس عشرة دقيقة، وفي جنوبها وغربها مجالات زنج النوبة الذين قاعدتهم كوشة^(٦)، وهي في غرب النيل على ضفته، ومنه شرب أهلها^(٧).
ودنقلة عاصمة مملكة مقرة النوبية، وكانت تمتد تلك المملكة من حدود مصر الجنوبية حتّى الشلال الثالث جنوباً، وكانت المملكة قد اعتنقت المسيحية في القرن الأوّل والثّاني الميلاديين، واشتد اعتناق النصرانية في القرن الخامس الميلادي^(٨).

(١) مُحمّد عوض، سودان وادي النيل، ص ١٨٥.

(٢) مُحمّد عوض، سودان وادي النيل، ص ١٢٢.

(٣) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٦٥/٥.

(٤) ابن بطوطة، رحلته، ٢٥١/٤.

(٥) ياقوت، معجم البلدان، ٤٧٨/٢.

(٦) كوشة: هي بلدة مشهورة من بلاد النوبة، بينها وبين نوبة ستة أيام، موقعها فوق خط الاستواء، وأهلها قليلون، وتجارتهم قليلة، وأرضها حارة جافة، ويشرب أهلها الماء من عيون تمتد على النيل، وهي في طاعة ملك النوبة. الحميري، الروض المعطار، ٥٠٣/١.

(٧) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٦٥/٥.

(٨) الإدريسي، مُحمّد بن مُحمّد بن عبدالله المعروف بالشريف الإدريسي (ت ١١٦٥هـ/١١٦٥م)، نزهة

المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، (بيروت، ١٩٨٩م)، ٣٧/٤.

وكان لها تنظيم إداري يقسم المملكة على ولايات صغيرة يحكمها نواب الملك، وأشهر الولايات: ولاية الجبل، وأشهر منصب هو منصب صاحب الجبل؛ إذ كان من أهم اختصاصاته مراقبة الحدود الشمالية للمملكة، وإعطاء الإذن لمن أراد أن يمر^(١)، أمّا أهلها فهم سودان؛ لكنهم أحسن السودان وجوهًا، وأجملهم شكلاً، وطعامهم شعير، والذرة، والتمر، يجلب إليهم من البلاد المجاورة لهم، وشرابهم المزر المتخذ الذرة، واللحوم، والسّمك عندهم كثيرة، وفي بلادهم الزرائف، والفيلة، والقروود، والغزلان^(٢)، وأرضهم محترقة من شدة الحرارة، وأهلها عراة مؤنثرون بجلود النمر؛ إذ إنّها كثيرة عندهم، ويلبسون جلودها^(٣).

ت. بلاد البرنو:

أولاً: التسمية:

بفتح الباء الموحدة، وسكون الراء المهملة، وضم النون، وسكون الواو^(٤)، جاء أول ذكر لكلمة (البرنو) عند ابن فضل الله العمري في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي^(٥)، وقد تعددت الآراء حول أصل التسمية ودلالاتها؛ فأهل تلك البلاد يرجعون الاسم إلى برنوح؛ أي البر والأرض التي رست عليها سفينة سيدنا نوح عليه السلام؛ إذ إنّهم يعتقدون في الأسطورة التي تقول: إنّ سيدنا نوح عليه السلام، كان يعيش في الأرض المحيطة ببحيرة التشاد؛ لذلك أطلقوا كلمة برنوح على أرضهم^(٦).

(١) المقرئزي، الإمام بأخبار من بأرض الحبشة، ص ١٠٣.

(٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٣٨/٤؛ وينظر: البكري، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص ١٣٨.

(٣) القزويني، آثار البلاد، ص ٣٩.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٦٨/٥.

(٥) التعريف بالمصطلح الشّريف، ص ٤٦.

(٦) جوزيف، جوان، الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء، ترجمة: مختار السويفي، دار

الكتب الإسلامية، ودار الكتب المصرية، (القاهرة، ١٩٨٤م)، ص ٨٩.

وهناك رأي آخر يقول: إنَّ أصل الكلمة يعود إلى البربر؛ إذ يذكر أنَّ كلمة برنو تشبه كلمة البيروني، ومعناها: أمة البربر، وبضيف أنَّ برنو ليست اسم بلد، وأنَّما صيغة الجمع لكلمة بار بار، وتعني: الرجل المحارب في اللغات الصحراوية.

ثانياً: جغرافية بلاد البرنو:

تحد بلاد البرنو من الشرق بلاد التكرور^(١)، ومن الشمال البلاد الإفريقية، ومن الجنوب الهمج^(٢)، وتقع بلاد البرنو غرب بحيرة التشاد، وقد أخذت بلاد البرنو بالتوسع نحو الشمال، والشرق، والغرب^(٣)؛ فامتدت من الشمال حتى زويلة^(٤)، الفزان^(٥). ويشير البكري (ت ٤٨٧هـ) إلى أنَّها وراء صحراء زويلة^(٦)، ويلحظ أنَّ اتساع البلاد توقف عند حدود الإقليم الشمالي؛ وذلك لأنَّ التوسع الشمالي يزيد من تجارتها عبر الصحراء ويقوي اقتصادها^(٧).

(١) التكرور: تقع شرق إقليم كوكو، وسيتم تفصيلها في موضع آخر. الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٦٨/٥.

(٢) الهمج: قوم يأكل بعضهم لحم بعض، وهم في طاعة سلطان مالي، وهم سكان بلاد مغارة الذهب. الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٢/٥.

(٣) ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، ص ٩٤.

(٤) الزويلة: بفتح أولها وكسر ثانيها، وهي أحد بلدان السودان في البر بين السودان وإفريقيا. ينظر: ياقوت، معجم البلدان، ١٥٩/٣-١٦٠.

(٥) الفزان: بلد يقع بين طرابلس شمالاً وتبستي جنوباً، وهي منطقة تتناثر فيها الواحات التي تُعدُّ امتداد امتداد لواحات القسم الأوسط من الصحراء الكبرى، وتتميز بوجود القصور العظيمة، والقرى الكبيرة العامرة، وسكانها أغنياء. ينظر: الوزان، الحسن بن مُحَمَّد (ت ٩٦٠هـ/١٥٥٢م)، وصف إفريقيا، ترجمة: مُحَمَّد الحسبي ومُحَمَّد الأخضر، ط ٢، دار الغرب الإسلامي، (بيروت، ١٩٨٣م)، ١٤٦/٢.

(٦) المسالك والممالك، ص ١١.

(٧) لانجي، ممالك التشاد وشعوبها، ٢٦١/٤.

أمّا فيما يخص الحدود الشرقية فإنّها تمتد حتّى بلاد النوبة؛ فالإدريسي^(١) يذكر عند حديثه عن سكان نجيمي^(٢) أنّهم يجاورون النوبة من الجهة الشرقية، وتمتد الحدود الغربية حتّى نهر النيجر؛ إذ ضمت قسماً من بلاد الهوسا في بعض فترات قوّة السلطنة^(٣).

وبناءً على ما سبق فإنّ بلاد البرنو توسعت حتّى صارت تسيطر على جميع الأراضي الواقعة إلى الغرب، والشرق، والشمال من شواطئ بحيرة تشاد، وأصبحت البحيرة تتوسط قلب البلاد^(٤)، وقد أهلها موقعها الجغرافي لأن تكون حلقة وصل بين بلادَي السودان الغربي والشرقي وبين الأراضي الصحراوية في الشمال ومناطق الغابات الاستوائية في الجنوب؛ فصارت بذلك ملتقى طرق عدّة تربطها شرقاً بمصر وشمالاً بأماكن بلاد المغرب^(٥).

(١) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص ١٣.

(٢) نجيمي: وهي مدينة تقع جنوباً، اتخذت مقراً للملوك، وعاصمة لمُدّة ثلاثة قرون، وكانت مركزاً للتسوق في البلاد، ومساكنها عبارة عن أكواخ. ينظر: ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، ص ٩٥.

(٣) الرياصي، مفتاح يونس، العلاقات بين بلاد المغرب ودولة كانم وبرنو، دار الكتب الوطنية، (ليبيا، ٢٠٠٨م)، ص ١٥.

(٤) ليفتسكي، تاديوز، دور الصحراء الكبرى وأهل الصحراء في العلاقات بين الشمال والجنوب، اليونسكو، (لبنان، ١٩٩٤م)، ٤/٣٠٤-٣١٠.

(٥) الشخيلي، صباح إبراهيم، الوجود العربيّ في كانم في السودان الأوسط في القرن ١٣هـ/١٣م، مجلة العربيّة للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد الرابع والثلاثون، المجلد التاسع، ١٩٨٩م، ص ١٢٢.

ثالثاً: أهم مدن بلاد البرنو:

١ . كاكَا:

بكايفين بعد كُلّ منها ألف^(١)، وهي قاعدة سلطان برنو، وبينها وبين جيمي أربعون ميلاً، سلطان تلك البلاد رجل مسلم، وهو من ولد سيف بن ذي يزن^(٢)، وأول من بث الإسلام فيها الهادي العثماني الذي ادعى أنّه من أولاد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهي بلاد تكثر فيها الفواكه، والرمان، والخوخ، وقصب السكر^(٣).

٢ . كتنسكي:

بكاف مضمومة، وتاء مثناة فوقها ساكن، ونون مكسورة، وسين مهملة ساكنة، وكاف مكسورة، وبعدها ياء مثناة، وهي شرق مدينة كاكَا على مسيرة يوم واحد منها، وهي إحدى مدن البرنو التي انفرد الفلقشندي بذكرها^(٤).

ث . بلاد كانم:

أولاً: التسمية:

بالكاف، بعدها ألف، ثمّ نون مكسورة، وميم في الآخر^(٥)، ومن أوائل الجغرافيين العرب الذين ورد عندهم ذكر بلاد الكانم هو اليعقوبي (ت ٢٩٢هـ) بقوله: "وأما السودان الذين غربوا، وسلكوا نحو المغرب فإنّهم قطعوا لبلاد؛ فصارت لهم عدّة ممالك؛ فأول

(١) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٦٩/٥.

(٢) سيف بن ذي يزن: من ملوك العرب اليمانيين ودهاتهم، قيل اسمه: معد يكر، ولد ونشأ في صنعاء، دام ملكه نحو خمس وعشرين سنة أو دون ذلك، وأتمر به الأحباش فقتلوه في صنعاء. ينظر: ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن مُحَمَّد بن أحمد العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، دار الكتب العلميّة، (بيروت، ١٤١٥هـ)، ٢٤٩/٣؛ الزركلي، خير الدّين بن مُحَمَّد، الأعلام، ط ١٥، دار العلم للملايين، (بيروت، ٢٠٠٢م)، ١٤٩/٣.

(٣) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٠/٥.

(٤) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٦٩/٥.

(٥) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٠/٥.

ممالكهم الزغاوة^(١)، وهم نازلون بالموضع يُقال له الكانم^(٢)، ولا يعرف بالتحديد أصل كلمة الكانم، ولا من أين جاءت^(٣)؛ فمن المؤرخين من ذهب إلى القول: إنَّ كانم تشير إلى جنس بشري عرف بالكانم، وهم جنس من السودان^(٤)، وقد وافق بعض الجغرافيين هذا الرأي؛ فذكروا أنَّ كانم صنف من السودان^(٥).

في حين يرى آخرون أنَّ كانم تشير إلى الأرض التي يسكنها الكانميون، وأنَّه بلد متصل بالحبشة^(٦)، وهو من بلاد البربر^(٧)، وقيل: إنَّ اسم كانم مأخوذ من أسماء القبائل القبائل التي سكنت تلك الأرض، وهي قبائل الكانمبو والكانوري، وهما من أهم عناصر السكان الأصلية التي قامت على أكتافهم مملكة كانم الإسلامية^(٨).

والذي يهمنا هنا وبغض النظر عن دلالة لفظ الكانم فإنَّ هناك مملكة عظيمة نشأت حول بحيرة تشاد كان لها أثر رائد في تلك البلاد، والذي جعل لها تلك الريادة أسباب كثيرة في مقدمتها الموقع الجغرافي المتميز.

(١) الزغاوة: وهم شعب مختلط بعناصر زنجية، تمتد أوطانهم من بلاد دارفور حتَّى بحيرة التشاد، وقد هاجر الزغاة إلى تلك الأماكن ما بين (٨٠٠-١٢٥٠م)، اعتنق الزغاوة الإسلام، واستطاعوا تأسيس دولة كانم. ينظر: المقرئزي، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة، ص ١٠٢.

(٢) تاريخ اليعقوبي، ١/١٩٣.

(٣) عارف، شوكت، دولة كانم الإسلامية دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية، دار دجلة للنشر، (الأردن، ٢٠٠٧م)، ص ٢٦.

(٤) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدِّين أحمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، (بيروت، ١٩٧١م)، ١/١٥.

(٥) ياقوت، معجم البلدان، ٤/٤٣٢؛ وينظر: ابن عبدالحق، مراصد الإطلاع، ٣/١٤٤.

(٦) شيخ الربوة دمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص ٢٤١.

(٧) الجزري، عبدالقادر الحنبلي (ت ٩٧٧هـ/١٥٦٩م)، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق: مُحَمَّد حسن إسماعيل، دار الكتب العلميَّة، (بيروت، ٢٠٠٢م)، ٢/٣٦٤.

(٨) الدكو، فضل كلود، الثقافة الإسلامية في التشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية كانم من ٦٠٠-١٠٠٠هـ / ١٢٠٠-١٦٠٠م، (طرابلس، ١٩٩٨م)، ص ٣١.

ثانياً: جغرافية بلاد الكانم:

تقع بلاد كانم بين إفريقية وبرقة^(١)، وبين دائرتي عرض (١٤-٢٣) درجة شمالاً، وبين خطي طول (١٠-١٥) درجة شرقاً، ويسود تلك المنطقة المناخ الجاف، والارتفاع الشديد في درجة الحرارة، وقلة الرطوبة، وندرة المطر الذي يسقط سنوياً في بعض الفصول^(٢).

وتتشكل مظاهر السطح من مجموعة من الأحواض المنخفضة، والجبال أهمها: تبستي - موطن عناصر التيبو^(٣) - قرب بحيرة التشاد^(٤)، وأدى ذلك الموقع إلى تنوع المناخ؛ إذ يسود المناخ الاستوائي في الجنوب والمناخ الصحراوي في الشمال؛ ممّا أدى إلى تنوع الحياة النباتية في البلاد^(٥)؛ إذ وجدت المراعي الخصبة، والأراضي الصالحة للزراعة، وقد شجع ذلك على الاستقرار السكاني، وتنوع الإنتاج الزراعي^(٦)؛ فوجدت عندهم محاصيل عدّة^(٧)، وبحكم الموقع المتوسط لبلاد كانم بين طرق عدّة تربطها شمالاً شمالاً ببلاد المغرب والبحر المتوسط، وشرقاً بمصر.

وتوجد عدّة طرق أخرى تصل مملكة كانم بالسودان الغربي، وجعلها ذلك الموقع نقطة التقاء للقوافل التجارية؛ فهي تقع في قلب القارة الإفريقية؛ ممّا جعلها تربط شرق

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٠/٥.

(٢) الإدريسي، أبو عبدالله مُحَمَّد بن مُحَمَّد (ت ٥٦٠هـ/١١٦٢م)، أنس المهج وروض الفرج، تحقيق:

الوافي نواحي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، (المغرب، ٢٠٠٧م)، ص ١١١.

(٣) التيبو: من أقدم سكان منطقة تشاد، يسكنون في جبال تبستي شمال بحيرة تشاد، يبيئهم صحراوية؛

فهم يعيشون حياة البرية، ويعتمدون في عيشتهم على رعي الإبل. ينظر: مُحَمَّد عوض، الشعوب

والسلالات الإفريقية، ص ٣٠٦.

(٤) سعودي، مُحَمَّد عبدالغني، إفريقية، الأنجلو المصرية، (القاهرة، ١٩٩٧م)، ص ٢٧٢.

(٥) غلاب، مُحَمَّد السيد وآخرون، البلدان الإسلامية والأقليات في العالم المعاصر، جامعة الإمام مُحَمَّد

مُحَمَّد بن سعود الإسلامية، (الرياض، ١٩٧٩م)، ص ٥٢٣.

(٦) بصيلي، تاريخ وحضارات السودان الشرقي، ص ٤١١.

(٧) العمري، مسالك الأبصار وممالك الأمصار، ٩٥/٤.

القارة بغربها، وشمالها، وجنوبها، ومملكة كانم كانت معبراً حضارياً بين حضارات إفريقيا المختلفة، وكلّ ذلك انعكس على أحوال المجتمع^(١).

ثالثاً: أهم المدن في بلاد كانم:

١. جيمي:

بكسر الجيم، وبالياء المثناة تحت الساكنة، وكسر الميم، ثمّ ياء مثناة تحتية في الآخر.

موقعها في الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة حيث طول ثلاث وخمسون درجة والعرض تسع درجات^(٢)، وبها مقر سلطانهم^(٣)، ومبدأ تلك المملكة من جهة مصر بلدة دلا وآخرها طولاً بلدة يُقال لها: كاكّا، وهي قاعدة سلطنة البرنو، وبينها وبين جيمي أربعون ميلاً^(٤)، واستمرت قاعدة البلاد لمُدّة ثلاثة قرون تقريباً، وهي مركز للتسوق في البلاد، ومساكنهم تتكون من أكواخ^(٥).

ج. بلاد مالي:

أولاً: التسمية:

بفتح الميم، وألف بعدها لام مشددة مفخمة، وياء مثناة تحت الآخرة^(٦)، وذكرت ملل^(٧)، وأنّ مدينة ملل هي مدينة صغيرة كالقرية الجامعة لا سور لها، وهي على تل تراب أحمر منيع^(٨)، وقال عنها ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ): "فوصلت إلى مدينة مالي

(١) الشيلخي، الوجود العربيّ في كانم في السودان الأوسط حتّى القرن ١٣/هـ، ص ٨١.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٠/٥.

(٣) العمري، مسالك الأبصار وممالك الأمصار، ٩٥/٤؛ وينظر: صبح الأعشى، ٢٧٠/٥.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٠/٥.

(٥) ابن سعيد، الجغرافيا، ص ٩٥.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧١/٥.

(٧) البكري، عبيدالله بن عبدالعزيز الأندلسي (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، المسالك والممالك، دار الكتب

الإسلامية، (القاهرة، د.ت)، ص ١٧٨.

(٨) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٦.

حضرة ملك السودان^(١)، وهي معروفة عند العامة ببلاد التكرور^(٢)، وإذا أطلقت كلمة مالي فإنّها تعني العاصمة، وأنّها تعني الدولة أيضاً، ومِمَّا هو جدير بالذكر أنّ مالي ليس اسم بلد فحسب، بل اسم ثاني للممالك الإسلامية السودانية الكبرى، التي قامت في السودان الغربي^(٣).

ولابدّ الإشارة هنا إلى أنّ دولة مالي كانَ يطلق عليها أحياناً بدولة الماند نجو، وهم مجموعة من القبائل التي كونت تلك الدولة، وسادت على البلاد عدّة قرون^(٤).

ثانياً: جغرافية بلاد مالي:

تقع بلاد مالي في جنوب نهاية المغرب متصلة بالبحر المحيط، وأنّها مملكة "مربعة طولها أربعة أشهر^(٥)، ويزيد عرضها مثل ذلك، وجميعها مسكونة إلا ما قلّ، وتلك المملكة هي أعظم ممالك السودان المسلمين^(٦)، حدّها من الغرب البحر المحيط وبلاد برنو، ومن الشرق ومن الشمال جبال البربر، ومن الجنوب الهمج^(٧)، اتصل ملكهم من البحر المحيط وغانة بالغرب إلى بلاد التكرور بالشرق، ويصل إلى بلادهم التجار من بلاد المغرب الإفريقية^(٨).

وتعدّ مملكة مالي من أهم الممالك وأكبرها التي قامت في السودان الغربي، وقد أسس تلك المملكة شعب الماند نجو وهم من الشعوب الزنجية، وفي هذا الصدد ذكر العمري (ت ٧٤٩هـ) "أنّ ملوك مالي أعظم ملوك السودان المسلمين وأوسعهم بلاداً،

(١) رحلة ابن بطوطة، ص ٦٨١.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧١/٥، وينظر: شبيب، بشار عبدالجبار، دولة مالي الإسلامية، بحث بحث منشور، مجلة ديالى للبحوث الإنسانية، العدد ٢٩، ٢٠١٣م، ص ٣.

(٣) مؤنس، حسين، ابن بطوطة ورحلته، دار المعارف، (القاهرة، ١٩٨٠م)، ص ٢٣٢.

(٤) طرخان، إبراهيم، دولة مالي الإسلامية، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة، ١٩٧٣م)، ص ٢٧.

(٥) تعني مسيرة أربعة أشهر.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٢/٥.

(٧) ابن خلدون، تاريخ، ٢٧٦/٦.

(٨) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٢٣.

وأكثرهم عسكريًا، وأشدّهم بأسًا، وأعظمهم مالًا، وأحسنهم حالًا، وأقصرهم للأعداء" (١)، وقيل "سلطان الدنيا أربعة ما خلال السلطان الأعظم" (٢) سلطان بغداد، ومصر، وسلطان بن (برنو)، وسلطان مل (مالي) (٣).

وإنّ حدود مالي في عهد ازدهارها وتوسعها تطابقت مع حدود السودان الغربي (٤)؛ إذ إنّ ذلك الموقع جعلها تتميز بعدّة إيجابيات ومميزات، تمثلت بوقوعها في بلاد غزيرة بالأمطار نسبيًا تجري فيها بعض الأنهار، مثل: السنغال، والنيجر، ونهر غامبيا، وفولتا (٥)، فضلًا عن تنوع المناخ، وخصوبة الأرض، وتوافر الثروة الحيوانية، والسمكية، والثروة المعدنية، ولاسيما الذهب، والملح، والنحاس (٦).

وقد اشتملت مملكة مالي على خمسة أقاليم، كلّ منها عبارة عن مملكة لها حكم

ذاتي محلي، وهي:

١. إقليم مالي:

يقع هذا الإقليم وسط المملكة، يحدّها من الغرب إقليم صوصو، ومن الشرق كوكو، وقاعدة الإقليم مدينة (بني)، وهي مدينة مبنية بيوتها من الطين، ومسقفة بالخشب والقصب، وغالب تلك البيوت على شكل قباب، وأرضها رملية، والمدينة غير

(١) مسالك الأبصار وممالك الأمصار، ٤/٥٩-٦٠.

(٢) طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص ٢٦.

(٣) محمود كمت، ابن الحاج المتوكل كمت الكرمني (ت ١٠٠٢هـ/١٥٩٣م)، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر النّاس وذكر التكرور وعظائم الأمور وتفريق انساب العبيد من الأحرار، تحقيق: آدم بمبا، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، (لبنان، ٢٠١٤م)، ص ٣٨-٣٩.

(٤) العمري، التعريف بالمصطلح الشّريف، ص ٣٧.

(٥) عيانة، فتحي محمّد، جغرافية إفريقيا دراسة إقليمية مع تطبيق على دول جنوب الصحراء، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، (بيروت، ١٩٨٣م)، ص ٢٢٣.

(٦) الدالي، الهادي، التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر، الدار المصرية اللبنانية، (القاهرة، ١٩٩٩م)، ص ٢٦٧.

مسورة، يستدير بها فروع عدة من النيل من جهاتها الأربع، بعضها يخاض في أيام قليلة الماء، وبعضها لا يعبر فيه إلا سفن، وللملك قصور عدة يدور حولها سور واحد^(١).

٢. إقليم صوصو:

بصادين مهملتين مضمومتين بعد كلّ منهما واو ساكنة ورُيماً أبدلوا الصاد سيئاً مهملة، وسمي بذلك باسم سكانه^(٢)، يحده من الشرق إقليم مالي، ومن الغرب إقليم غانة، ومن الجنوب الغابات الاستوائية والقبائل الوثنية^(٣)، ولم يردّ اسم هذا الإقليم في المصادر التالية للقلقشندي، وأنّ العمري لم يذكره في ضمن أقاليم المملكة، ويبدو أنّه اتخذ اسماً جديداً بعد نفوذ مملكة مالي، وانتشار الإسلام في أرضها.

٣. إقليم كوكو:

بفتح الكاف، وسكون الواو، وفتح الكاف الثانية، وسكون الواو، وهي شرق إقليم مالي^(٤) من الغرب تحده مملكة كانم وبرنو، ومن الشمال الصحراء، أمّا الجنوب فشعب الهوسا وبعض القبائل الوثنية السودانية، ومدينة كوكو هي عاصمة الإقليم، تقع تلك المدينة شرقي نهري النيجر^(٥)؛ إذ يمر بها ويجاوزها بأيام كثيرة، ثمّ يغوص في الصحراء الصحراء في الرمال، كما يغوص الفرات في بطائح العراق^(٦)، وهي واقعة بين خط الاستواء وبين أول الإقليم الأول، إذ يقابلها مسلمي غانة من الغرب، ومسلمي كانم من الشرق، وأهلها مسلمون، ولباس عامة أهلها الجلود، يسترون بها عوراتهم، وتجارهم

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٢/٥؛ وينظر: العمري، مسالك الأبصار، ٦٠/٤؛ أحمد بلعراف، إزالة الريب والشك والتفريط في ذكر المؤلفين من أهل التكرور والصحراء وأهل شنقيط، مطابع الوحدة العربية، (ليبيا، ٢٠٠١م) ص ٥٠.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٣/٥.

(٣) العمري، مسالك الأبصار، ٦٠/٤.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٤/٥.

(٥) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ١٧٨.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٤/٥.

يلبسون الأكسية، وعلى رؤوسهم^(١) كرازين^(٢)، ولباس خواصهم الأزرق، وقاعدتهم مدينة كوكو تقع جنوب البلاد، وهي مقر صاحب البلاد، وهو كافر^(٣).

٤. إقليم غانة^(٤):

يقع هذا الإقليم غرب إقليم صوصو المذكور آنفًا، يجاور البحر المحيط الغربي^(٥)، وقاعدة الإقليم أو عاصمته مدينة غانة، التي تقع على ضفتي النهر (النيل)، وتمتاز بوجود مناجم الذهب، ولاسيما في مناطق الجنوب^(٦)، ويحكم الإقليم حاكم يدعى السلطان، ويدعى أنه من نسل الإمام الحسين^(٧)، ولغانة نيل شقيق لنيل مصر يصب يصب في البحر المحيط، وتقع على ضفتيه مدينتان أحدهما للمسلمين والأخرى للوثنيين^(٨)، يقصدها التجار من سائر البلاد، وفي أرضها الذهب ظاهر، ولهم في النيل زوارق عظيمة، وأهلها يستخرجون الذهب ويصنعونه كاللبن، وتشتري التين، والملح،

(١) المقرئزي، الإمام بأخبار من بأرض الحبشة، ص ١٠١.

(٢) الكرازين: وهي القلانيس؛ فالكرازين جمع: كرز، والكراز: القارورة؛ فالقلنسوة تشبه القارورة. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي (ت ٧١١هـ/١٣١١م)، لسان العرب، دار الحديث، (القاهرة، ٢٠٠٢م)، ٣٥٨/١٣.

(٣) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٤/٥-٢٧٥.

(٤) غانا: هي ليست غانا الحالية؛ فغانا الحالية كانت تسمى ساحل الذهب، ثم سميت غانا؛ تيمناً بغانا بغانا القديمة، التي تقع على بُعد ألف ميل شمال غانا الحديثة. طرخان، إبراهيم، إمبراطورية غانا الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، (القاهرة، ١٩٧٠م)، ص ٣٠.

(٥) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٤/٥.

(٦) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٤٤.

(٧) المقرئزي، الإمام بأخبار من بأرض الحبشة، ص ١٠٠.

(٨) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٤/٥؛ وينظر: المقرئزي، الإمام بأخبار من بأرض الحبشة، ص ١٠٠؛ الروض المعطار، ص ٤٢٥.

والنحاس، ولها ملك ضخم حوله عدد الجنود، وله ممالك عديدة فيها ملوك تحت يده^(١).

٥. إقليم التكرور:

بفتح التاء المثناة فوق، وسكون الكاف، وضم الراء المهملة، وسكون الواو مهملة في الآخر^(٢)، وممن أشار إلى مدينة التكرور البكري (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤هـ)، الذي وصف المدينة بأنها كانت على شرك وعبادة الأصنام، إلى أن حكمهم أرجابي بن رابيس^(٣)، الذي أسلم وأقام شرائع الدين الإسلامي، وحمل أهل التكرور على الإسلام في وقت كانت سائر السودان الغربي على شرك وعبادة الأصنام^(٤).

وتطور اسم التكرور ليشمل بلاد السودان الغربي كلها، بعد أن كان يطلق على مدينة التكرور فقط^(٥)، "والتكرور بلاد تنسب إلى قبيلة من السودان في أقصى جنوب المغرب، وأهلها أشبه الناس بالزنوج"^(٦)، وهي مدينة غير مسورة، وأهلها خليط من مسلمين وغيرهم ذلك في القرن السابع الهجري^(٧).

وينتشر اسم التكرور بالمشرق ليعبر عن مفهوم كل أرض السودان الغربي، التي كانت تسمى عندهم بأرض التكرور، وملكها هو ملك التكرور، وصحاب تلك المملكة - دولة مالي - وهو المعروف عند أهل مصر بملك التكرور؛ لأن التكرور إنما هو إقليم من أقاليم السودان الغربي، والأحب إليه أن يقال: صاحب مالي؛ لأنه الإقليم الأكبر،

(١) البكري، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص ١٣٦.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٥/٥.

(٣) أرجابي بن رابيس: ولي التكرور، ونشر الإسلام فيها، وتمكن أن يدخل الإسلام إلى المدن المجاورة المجاورة كمدينة سلي، وكان له أثر كبير في تنظيم ركب الحج أهل التكرور إلى مكة، توفي سنة (٤٣٢هـ). ينظر: البكري، المسالك والممالك، ٨٦٨/٢.

(٤) الإدريسي، المسالك والممالك، ٨٦٨/٢.

(٥) ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، ص ٩١.

(٦) ياقوت، معجم البلدان، ٣٧٦/١.

(٧) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٦.

وهو به أشهر^(١)، ويحدد القلقشندي إقليم التكرور جغرافياً بأنه يقع غرب إقليم كوكو، ويمتد إلى البحر المحيط غرباً، وفي الشمال تحدّه الصحراء الكبرى، وقبائل مملكة المثلثين من صنهاجة وغيرها، وعاصمة هذا الإقليم التكرور، التي تبعد عن سجلماسة مسيرة أربعين يوماً^(٢)، وهي مدينة على جانبي النيل حيث الطول والعرض، والتكرور قسمان، قسم يسكنه الحضر في المدن، وقسم رحالة يسكنون في البوادي^(٣)، وطعامهم السمك، والذرة، والألبان، وأكثر مواشيهما الجمال والمعز، ولباس عامة أهلها الصوف، وعلى رؤوسهم كرازين صوف^(٤)، ولباس خاصتهم القطن، وأكثر ما يحملونه لهم به تجار المغرب الأقصى الصوف، والنحاس، والخرز، ويعودون منها بالنبر والعبيد^(٥).

ج. مملكة الحبشة:

أولاً: التسمية:

بفتح الحاء المهملة، والباء الموحدة، والشين المعجمة، والهاء في الآخر^(٦)، وكلمة الحبشة اشتقت من لفظ حبشان، وهو اسم قبيلة عربية^(٧)، نزحت من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى سواحل بحر القلزم الغربية، ثم توغلت إلى المرتفعات الجبلية؛ لتصبح فيما بعد إحدى القبائل التي أسهمت في تأسيس مملكة أكسوم^(٨)، وبدأ النازحون

(١) العمري، مسالك الأبصار، ١٠٧/٤-١٠٨.

(٢) صبح الأعشى، ٢٧٥/٥.

(٣) المقرئزي، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، ص ٩٨.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٥/٥.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٥/٥.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٩/٥.

(٧) جاء اسم هذه القبيلة من الحبش بفتح أوله وكسر ثانيه، وهو جبل بمكة؛ إذ قام حلف بين قريش وبعض القبائل العربية على ألا ينقضون ما بينهم ما دام حبش قائم مكانه، وهو مكان على بعد

عشر أميال من مكة. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ٧٥٣/٢-٧٥٤.

(٨) مملكة أكسوم: قامت هذه المملكة في هضبة الحبشة، وتركزت في الجزء الشمالي تأثرت بالحضارات السامية، ولاسيما العنصر السبئي، الذي اشتقت منه أصلاً، توسعت هذه المملكة على

في الاختلاط مع سكان البلاد الأصلية، وهذا يعني أنّ اسم الحبشة إنّما جاء نسبة إلى تلك القبيلة اليمنية الأصل، واشتهرت تلك البلاد بهذا الاسم، الذي حرّفه البرتغاليون عند قدومهم إلى تلك البلاد^(١).

وهناك رأي يشير إلى أنّ تسمية الحبشة يرجع إلى ما عرف عن أهالي الحبشة الأوائل، الذين كانوا يسكنون المغارات والكهوف، التي تسمى بالحبشة (واشا)؛ إذ عرفت بلادهم بهذا الاسم الذي حرّف فيما بعد وصار حبشة^(٢).

ثانياً: جغرافية مملكة الحبشة:

مملكة الحبشة هي مملكة عظيمة، جليلة المقدار، متسعة الأرجاء، فسيحة الجوانب، أولها من جهة الغرب بلاد التكرور ممّا يلي جهة بلاد اليمن، وأولها من الجهة الشرقية المائلة إلى بعض الجهة الشمالية بحر الهند^(٣)، وفيها يمر نهر المسمى سيحون^(٤)، الذي يرفد منه نيل مصر^(٥).

جيرانها، وأصبحت قوة كبيرة غرب البحر الأحمر؛ حتّى اعترف بها الروم عند غزؤهم مصر، وبلغت ذروة مجدها في عهد الملك (عيزانا)، الذي لقب بقسطنطين إفريقيا خلال القرن الرابع الميلادي. ينظر: علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٤١/٦.

(١) البغدادي، عبدالسلام، الجماعات العربية في إفريقيا دراسة في أوضاع الجاليات والأقليات العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت، ٢٠٠٥م)، ص ١٧٥.

(٢) حسين، عبدالله، المسألة الحبشية، المطبعة الرحمانية، (القاهرة، ١٩٣٥م)، ص ٥٥.

(٣) بحر الهند؛ وهو البحر الحبشي، وهو بحر اليمن، والهند، والسند، والزنج، والأبلة، وفارس، وعمان، والبحرين، واليمن، والقلم، وليس في المعمورة أعظم منه طول من الشرق إلى الغرب ثمانية ألف ميل، وعرضه ألفان وسبعمئة ميل، وهو ستة أبحر مختزقة بعضها في بعض، وهو المحيط الهندي. ينظر: البكري، المسالك والممالك، ١/١٩١؛ ابن عبدالحق، مرصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ص ٦٦.

(٤) نهر سيحون؛ وهو نهر العظيرة. ينظر: المقرئ، الإمام بأخبار من بأرض الحبشة، ص ٧٧.

(٥) المقرئ، الإمام بأخبار من بأرض الحبشة، ص ٧٧؛ العمري، مسالك الأبصار، ٤/٨٥.

والحبشة بلاد واسعة ذات عمائر واسعة، متصلة بالبحر الحبشي، وساحلها به كثير من المدن التي تقابل ساحل اليمن، وأنَّ المسافة بين زبيد^(١) من أرض اليمن وساحل الحبشة ثلاثة أيام^(٢)، وأنها تطل على بحر القلزم من الشرق، ويحدها غربًا بلاد الزنج، ومن الشمال النوبة، ومن الشمال الشرقي قبائل البجة الذين يسكنون بين البحر الأحمر والنيل عند حدود مصر الجنوبية^(٣)، أمَّا الزهري فيحدد الحبشة بقوله: "يحدّها من الغرب النيل العظيم، ومن الشرق بحر القلزم، وفي الجنوب جبال الذهب التي على خط الاستواء، أمّا حدّها الشمالي فيصل إلى آخر بلاد كوش^(٤) حتّى أسوان" إحدى مدن مصر^(٥).

(١) زبيد: هو اسم وادي به مدينة كانت تسمى الحصيب، ثمَّ غلب على المدينة اسم الوادي؛ فصارت تعرف باسمه، وهي مدينة يمنية تُعدُّ أكبر المدن بعد صنعاء، وهي من أهم المراكز التجارية. ينظر: ياقوت، معجم البلدان، ٢٨٤/١-٢٨٥؛ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ١٨٣/١؛ ابن الديبع، أبو ضيا عبدالرحمن علي الشيباني (ت ٩٤٤هـ/١٥٣٧م)، قرّة العيون بأخبار اليمن الميمون، ط ٢، تحقيق: مُحمَّد بن علي كوع، (القاهرة، ١٩٨٨م)، ص ٣٨.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، ١١٤/١.

(٣) ابن حوقل، صورة الأرض، ١٦/١.

(٤) بلاد كوش: اسم كوش في الكتاب المقدس ذكرت، وعند ذكر المصريين القدماء الجماعات البشرية التي كانت تسكن مناطق النيل الأوسط فيما وراء الحدود المصرية العليا؛ فضموا أراضي كوش في حُقب من تاريخهم؛ حتّى أصبحت جزء لا يتجزأ من الأراضي المصرية. ينظر: القنائي، أحمد الحفني، الجواهر الحسان في تاريخ الأحباش، المطبعة الأميرية، (القاهرة، ١٩٠٣م)، ص ٣؛ جوزيف، جوان، الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء، ص ٣٥؛ الزهري، أبو عبدالله مُحمَّد بن أبي بكر (ت ٥٥٦هـ/١١٦٠م)، الجغرافيا، تحقيق: مُحمَّد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدّينية، (القاهرة، د.ت)، ص ١٢٣.

(٥) أبو عبدالله مُحمَّد بن أبي بكر (ت ٥٥٦هـ/١١٦٠م)، الجغرافيا، تحقيق: مُحمَّد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدّينية، (القاهرة، د.ت)، ص ١٢٣.

أمّا أبو الفدا (ت ٧٣٢هـ) فذكر الحبشة قائلاً: "إنّ بلاد الحبشة تقابل بلاد الحجاز واليمن، وبلادهم تتصل بالخليج البربري^(١)، ولها مدن كثيرة، وهي تجاور النوبة من الجنوب والشرق"، والحبشة هضبة مترامية الأطراف، شاهقة الارتفاع، تنقسم على قسمين، الأوّل هو: القسم الشمالي، وهو الذي يدخل في ضمن حوض النيل، وتجري منه الأنهار التي تغذي نيل مصر، وهذه الهضبة هي المعقل الرئيس لمملكة الحبشة، أمّا القسم الثاني فهو: الجنوبي، وهو أقلّ وعورة، وأنّ مرتفعاته أقلّ علوّاً، ووديانه أقلّ عمقاً، يفصل بين القسمين الأخدود الإفريقي الذي يمتد من الجنوب إلى الشمال الشرقي^(٢)؛ وعلى هذا فإنّ الحبشة تقع في شرق القارة الإفريقية، وهي تتكون من هضبة مترامية الأطراف، وهي أعلى هضاب إفريقيا، وجبالها من أعلى جبال القارة^(٣)، ويرجع ذلك الارتفاع الملحوظ في هضبة الحبشة إلى الطفح البركاني الذي غطى معظم الهضبة^(٤)، ويراوح ارتفاع هضبة الحبشة في المتوسط ما بين ألفين وخمسمائة متر؛ ولكنّ الهضبة في الوقت نفسه تحتوي على قمم جبلية عدّة، يصل الارتفاع إلى أكثر من أربعة آلاف متر، وهي هضبة مستديرة الشكل، تنحدر في الاتجاهات جميعها، إلا أنّ انحدارها العام باتجاه الغرب^(٥)، وهضبة الحبشة مقطعة بوديان وانهار متعددة من

(١) المختصر في أخبار البشر، ١/٩٥. أمّا خليج البربري: وهو أحد خلجان البحر الحبشي أو الهندي، متصل بأرض الحبشة، طوله خمسمائة ميل وعرضه مائة ميل. ينظر: المسعودي، مروج الذهب، ٤٠/١.

(٢) السيوطي، أبو الفضل جلال الدّين عبدالرحمن (ت ٩١١هـ/١٥٠٥هـ)، رفع شأن الحبشان، تحقيق: مُحمّد عبدالوهاب فضل، (القاهرة، ١٩٩١م)، ص ١٥-١٦.

(٣) مُحمّد عوض، نهر النيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢، (القاهرة، ٢٠٠٨)، ص ١٠٥.

(٤) رقلة، فليب، الجغرافية السياسية لإفريقية مع دراسة شاملة للدول الإفريقية سياسياً واقتصادياً وطبيعياً، مكتبة النهضة المصرية، ط ٢، (القاهرة، ١٩٦٦م)، ص ٢٢٨.

(٥) أبو عيانة، فتحي مُحمّد، جغرافية إفريقيا دراسة إقليمية للقارة مع تطبيق على دول جنوب الصحراء، الصحراء، دار المعرفة الجامعة، (الإسكندرية، ١٩٨٧م)، ص ٥٠٦.

أهمها: روافد النيل في الشمال التكازا^(١)، وفي الجنوب الغربي نهر السوبات^(٢)، وفي الغرب نهر النيل الأزرق، أمّا من أبرز هضابها فهضبة أمحرا، التي تقع في الشمال الشرقي، وهضبة جودجاد الواقعة بين النيل الأزرق جنوبًا وبحيرة تانا^(٣) شمالًا^(٤).

وهضبة شوا تقع إلى الشرق وجنوب الشرق من هضبة جودجام، وتتحدّر نحو السهول الصحراوية الشرقية، وهضبة بالي تقع إلى الشرق من هضبة شوا.

أمّا الأراضي الساحلية فتوجد فيها بعض السهول الساحلية التي تتحدّر من الشمال إلى الجنوب^(٥)، وبناء على ما تقدّم يفهم أنّ مملكة الحبشة كانت تركز بصفة رئيسة في الهضبة الشمالية، وتشمل أقاليم عدّة، ويتحدث السيوطي عن وجود العدد من الإمارات والممالك في الحبشة؛ فهي ليست مملكة واحدة؛ إذ كانت تنقسم على إمارات وأقاليم^(٦)، وذكر القلقشندي (ت ٨٢١هـ) أنّها أحد عشر إقليمًا، وهي: إقليم سرحت، وإقليم وإقليم أمحرا، وإقليم شاوة، وإقليم داموت، ثمّ إقليم لامنان، ثمّ إقليم السيهير، ثمّ اقلي الزلح، ثمّ إقليم عدل الأمراء، ثمّ إقليم حماسا، ثمّ إقليم باريا، ثمّ إقليم الطراز

(١) التكازا: نهر يعرف بالتكازا في كلّ من ارتيريا وأثيوبيا، وعندما يدخل السودان يعرف بعطبرة. ينظر: مُحمّد عوض، نهر النيل، ص ٩١.

(٢) نهر السوبات: هو أحد أعظم روافد النيل القادمة من الحبشة، يلتقي بالنيل الأبيض قرب ملكان، وبفضل مياهه الغزيرة وتياره المتدفق يستمد النيل الأبيض قوته وحيويته؛ ممّا يتيح له معاودة جريانه نحو الشمال، غير أنّ جزءًا كبيرًا من مياهه يفقدها في المستنقعات. ينظر: مُحمّد عوض، نهر النيل، ص ١٠٨.

(٣) بحيرة تانا: تقع هذه البحيرة في هضبة الحبشة؛ ولكنها تقع بالقرب من الحافة الغربية لهذه الهضبة لا في وسط الهضبة كما يتصور البعض، ومنها تتجمع المياه العليا لنهر النيل الأزرق، وتبلغ مساحتها نحو (٣٦٠) كيلومترًا مربعًا. ينظر: مُحمّد عوض، نهر النيل، ص ١١٠.

(٤) مُحمّد عوض، نهر النيل، ص ١٠٨.

(٥) عيانة، جغرافية افريقية، ص ٥٠٥.

(٦) السيوطي، رفع شأن الأحباش، ص ١٩.

الإسلامي^(١)، وهي على قسمين رئيسيين، الأول: البلاد النصرانية، والثاني: ما هو بيد المسلمين^(٢).

ثالثاً: أهم مدن الحبشة:

١. أشهر المدن النصرانية:

أ. مرعد:

بفتح الميم، وكسر الراء، وسكون العين، وكسر الدال المهملتين، وياء مثناة تحت في الآخر^(٣)، وهي قاعدة إقليم أمحرا، وهو أوسع أقاليم الحبشة، وأمحرا هو الاسم الذي اشتقت منه اسم أكبر القبائل وهي قبيلة أمهارة^(٤).

ب. جرمي:

بالجيم المفتوحة، والراء المهملة الساكنة، ثم الميم المكسورة، وياء مثناة تحتية في الآخر^(٥)، وهي قاعدة بلاد الحبشة، وكسري النجاشي^(٦)، وبها يباع الذهب والنحاس^(٧)،

(١) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٩٠/٥-٢٩١؛ وينظر: المقرئ، الإمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، ص ٨١-٨٢؛ العمري، مسالك الأبصار، ٨٥/٤-٨٦.

(٢) صبح الأعشى، ٢٩١/٥-٣١٠.

(٣) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٩١/٥.

(٤) المقرئ، الإمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، ص ٧٧.

(٥) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٩١/٥.

(٦) النجاشي: هو أصحمة بن أبحر النجاشي، ملك الحبشة، والنجاشي لقب اسمه بالعربية عطية، أسلم

أسلم في عهد الرسول ﷺ، وكان رداً للمسلمين؛ إذ أحسن معاملتهم عندما هاجروا إليه في صدر

الإسلام، توفي في عهد الرسول ﷺ قبل فتح مكة. ينظر: الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن

أحمد (ت ٥٧٤هـ/١٣٤٨م)، سير أعلام النبلاء، ط ٣، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة

الرسالة، ١٩٨٥م، ٤٢٨/١؛ ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: مركز حجر، د.ت،

والنحاس^(١)، موقعها في الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة؛ حيث الطول خمس وخمسون درجة والعرض تسع درجة وثلاثون دقيقة^(٢).

٢. أشهر المدن الإسلامية:

وهي البلاد المقابلة لبر اليمن على أعالي بحر القلزم وما يتصل به من بحر الهند، ويعبر عنها بـ(الطرز الإسلامي)؛ لأنّها على جانب البحر كالطرز له، ويقال لها بالشام ومصر: بلاد الزيلع، وزيلع بفتح الزاي المعجمة وسكون الياء المثناة تحتية، وفتح اللام، ثمّ عين مهملة في الآخر، وهي قرية من قرى البلاد؛ ولكن غلب اسمها على البلاد، طولها نحو شهرين وعرضها يمتد أكثر من ذلك^(٣).

والزيلع مدينة على ساحل البحر، صغيرة القطر، كثيرة النّاس^(٤)، أهلها مسلمون، وحرها شديد، وماؤها عذب، وليس لها بساتين، ولا يعرفون الفاكهة^(٥)، وتشتمل بلاد الطراز الإسلامي على سبع قواعد، كلّ قاعدة منها مملكة مستقلة بها ملك مستقل^(٦)، وهي على النحو الآتي:

أ. سلطنة أوفات:

بالواو المفتوحة، والفاء، ثمّ الألف، والتاء المثناة فوق في الآخر، والعامّة تسميها (أوفات)، ويقال أيضاً: (جبرة) بفتح الجيم، والباء الموحدة، والراء المهملة، ثمّ هاء في الآخر، تقع بين الإقليم الأوّل، وخط الاستواء، طولها سبع وخمسون درجة والعرض ثمان

(١) المقرئزي، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة، ص ٧٧؛ وينظر: المنجم، إسحاق بن الحسن (ت ق ٤هـ) آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كلّ مكان، عالم الكتب، (بيروت، ١٩٨٧م)، ص ١٠٤.

(٢) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٩١/٥.

(٣) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٣١٠/٥.

(٤) الحميري، الروض المعطار، ص ٢٨٢.

(٥) المقرئزي، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، ص ١٠٤.

(٦) المقرئزي، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، ص ١٠٤.

درجات، وأنها من أكبر مدن الحبشة، عمارتها متفرقة، ودار الملك على تلك، والقلعة على تل، ولها وادي فيه نهر صغير، وتمطر في الليل مطراً غزيراً، وتشتهر بزراعة قصب السكر، أرضها عامرة بالقري، وهي أقرب المدن إلى الديار المصرية^(١)، يتكلم أهلها لغتين: العربية والحبشية، وتعدّ أقوى سلطنة إسلامية قامت في الحبشة؛ بسبب بتحكمها بالطريق التجاري إلى ميناء الزيلع الرئيس في تجارة الحبشة، وهي سوق تجارية^(٢)، وقد أسسها قوم من قريش من بني عبدالدار أو من بني هاشم من ولد عقيل بن أبي طالب، وقد اشتهر قوم منهم بالصلاح، وظهر من بينهم رجل يسمى عمر، ويلقب بـ(ولشمع)، حكم مدينة أوفات، واعترف بسلطان النجاشي الذي ولاه، وظل على ذلك حتى قوى أمره^(٣).

وإنّ التاريخ السياسي لمدينة أوفات بدأ يتضح نحو سنة (٥٧٠٠هـ/١٣٠٠م)؛ إذ أورث عمر تلك السلطة لأولاده الأربعة أو الخمسة، الذين ملكوا أوفات من بعده واحداً بعد الآخر، ومنهم: حق الدين الأول حتى كان آخرهم صبر الدين محمد بن نجوي بن منصور بن عمر، ولشمع ملك أوفات في حدود سنة (٥٧٠٠هـ)، وطالت مدته، ولما مات قام بعده ابنه علي بن صبر الدين محمد بن عمر ولشمع، وقد ذاعت شهرته في البلاد؛ إذ يُعدُّ أول من خرج على طاعة الحطي؛ ولكنه لم يلبث أن عاد إلى طاعته؛ إذ تخلى عنه أنصاره، وأنَّ أول من استبد بالأمور، وحارب ملك الحبشة فعلاً، وأسر الكثير من عساكر الحطي، وغنم كثير من الأموال هو حق الدين، الذي نجح في جمع الناس حوله، واستطاع أن يهزم جيوش الحطي سيف أردد (١٣٤٤-١٣٧٢م)، ويعدّ حق الدين أيضاً أول السلاطين الذين حكموا أوفات الذين خرج على أهله وحاربه؛ إذ اشتهر في

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣١١/٥؛ وينظر: المقرئزي، الإمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، ص ٨٣.

(٢) العمري، مسالك الأبصار، ٤/٣٩-٤٢.

(٣) المقرئزي، الإمام، ص ٨٦؛ وينظر: العمري، مسالك الأبصار، ٤/٣٩.

بداية حكمه بالإصلاح، والتقوى، وطلب العلم؛ ولكن ما لبث أن رأى انحراف جده عنه، ومعاداة أعمامه له؛ حتى إنَّه خرج من مدينة أوفات إلى بعض أعمالها، وألزم تلك الجهة، وجمع النَّاس حوله؛ حتى قوى جانبه، واستطاع تكوين عصابة قوية من الأتباع، استطاع بتلك العصابة أن يحارب عمه أبا بكر ويقتله، واستتجد العم الآخر ملا أصفح بسيف أرداد؛ ولكنه انتصر عليه وقتل ذلك العم، وبعدها هجر حق الدِّين مدينة أوفات العاصمة، وأمر الكثير من أهلها بالهجرة معه إلى العاصمة الجديدة، التي أسسها في بلاد الشوا وسماها بـ(وحل)؛ إذ سكن فيها مع من هاجر معه من أوفات، ومنذ ذلك الحين خربت مدينة أوفات، ولم تعدّ دار الملك؛ حتى سقطت أمام هجمات الأحباش المستمرة عام (٨٠٥هـ/٤٠٢م)^(١).

ب. سلطنة دوارو:

بفتح الدال المهملة، وواو، ثمّ راء مهملة وواو، طولها خمسة أيام وعرضها يومين، وهي على ضيق وذات عسكر جم^(٢)، أهلها حنفية^(٣) المذهب.

ت. سلطنة أرابيني:

وهي مملكة مربعة، طولها أربعة أيام وعرضها كذلك، عسكرها ما يقارب عشرة آلاف فارس، أمّا الرجالة فكثيرة للغاية^(٤)، أهلها حنفية، وهي تلي دوارو^(٥).

ث. سلطنة هدية:

(١) المقرئزي، الإمام، ص ٨٦-٩٨؛ وينظر: العمري، مسالك الأبصار، ٤/٣٩-٤٢.

(٢) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٥/٣١٢.

(٣) المقرئزي، الإمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، ص ٨٤؛ وينظر: مسالك الأبصار، ٤/٧٥.

(٤) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٥/٣١٣.

(٥) المقرئزي، الإمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، ص ٨٤، وينظر: العمري، مسالك الأبصار، ٤/٧٥.

بالهاء، والبدال المهملة، والياء المثناة التحتية، ثم هاء في الآخر، موقعها بين الإقليم الأول من الأقاليم السبعة وبين خط الاستواء، طولها سبع وخمسون درجة والعرض سبع درجات، وتقع جنوب أوفات تلي أرابيني، وملكها أقوى ملوك ممالك الطراز الإسلامي، وأكثرها رجالاً وخيلاً^(١)، ملكها من العسكر نحو أربعين ألف فارس^(٢)، أرضها كثيرة الرمل وشديدة الحرارة^(٣)، ومنها تجلب الخدام^(٤)، وأهلها لا دين لهم^(٥)، وتعدّ هدية من أهم مراكز تجارة الرقيق، وكانت تجارة رائجة، وقد ظلت تلك التجارة مزدهرة في هدية^(٦)، وقد جلب لمصر هؤلاء الرقيق، وكانوا يعرفون باسم الطواشية^(٧)، وذكرهم المقرئزي وقال: "... وإليها يجلب الخصيان الخدام الذين يعرفون باسم الطواشية"^(٨)، وكان السلاطين والأمراء يفضلون هؤلاء العبيد للخدمة في بيوت الحريم فيما سمي بوظيفة ذمام الدار، التي تولّاها عدد من الأقباش^(٩).

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣١٣/٥.

(٢) المقرئزي، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، ص ٨٤؛ وينظر: العمري، مسالك الأبصار، ٧٧/٤.

(٣) ابن ناصر الدين، عبدالله بن الحسين بن الحسين بن مرعي البغدادي (ت ١١٧٤هـ/١٧٦٠م)، النفحة المسكية في الرحلة المكية، المجمع الثقافي، (أبو ظبي، ٢٠٠٣م)، ص ٣٠٢.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣١٣/٥.

(٥) المقرئزي، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، ص ٨٤؛ وينظر: العمري، مسالك الأبصار، ٧٧/٤.

(٦) عابدين، عبدالمجيد، بين الحبشة والعرب، دار الفكر العربي، (القاهرة، ١٩٤٧م)، ص ١٦١.

(٧) الطواشية: جمع طواشي، وهم الممالك الخصيان المعينون للخدمة في بيوت السلطان في أجنحة الحريم، ومن الطواشية أعيان تولوا أعلى المناصب في العصر المملوكي. ينظر: ابن طولون، نقد الطالب لزغل المناصب، تحقيق: مُحَمَّد أحمد دهمان ونزار أباطة، دار الفكر (بيروت، ١٩٩٢م)، ص ٧٠.

(٨) الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، ص ٨٤.

(٩) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٦٨/١٣.

ج. سلطنة شرخا:

بفتح الشين المعجمة، وسكون الراء المهملة، وحاء، ثمَّ ألف، وهي مدينة تلي هدية، طولها ثلاثة أيام وعرضها أربعة، عساكرها ثلاثة آلاف فارس^(١)، عرفت عند المقرئزي (ت ٨٤٥هـ) باسم شرخا، أهلها مسلمون على المذهب الحنفي^(٢).

ح. سلطنة بالي:

بفتح الباء الموحدة، وألف، ثمَّ لام، وباء في الآخر، وهي مدينة تلي شرخا؛ ولكنها أكثر خصبًا، وأطيب سكانًا، وأبرد هواء، أهلها حنفية^(٣)، طولها عشرون يومًا وعرضها ستة أيام^(٤)، وهي أكثر بلاد الزيلع خصوبة، تختلف عن شقيقاتها الممالك الإسلامية في أنَّ الحكم فيها لم يظل محفوظًا في أسرة معينة، بل حدث في القرن الثامن الهجري أنَّ انتقل الحكم إلى رجل ليس من بيوت الملك^(٥)، الرجال فيها كثيرون؛ إذ يقارب عدد عساكرها ثمانية عشر فارس^(٦).

ش. سلطنة داره:

-
- (١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣١٤/٥.
 (٢) الإمام، ص ٨٤، وينظر: العمري، مسالك الأبصار، ٧٩/٤.
 (٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣١٤/٥؛ وينظر: المقرئزي، الإمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، ص ٣٩.
 (٤) العمري، مسالك الأبصار، ٨١/٤.
 (٥) طرخان، إبراهيم، الإسلام والممالك الإسلامية في الحبشة في العصور الوسطى، مجلة التاريخية المصرية، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، م ٢، ١٩٥٩م، ص ٣٩.
 (٦) العمري، مسالك الأبصار، ٨١/٤.

بفتح الدال المهملة، وألف بعدها راء، ثمَّ هاء، وهي مدينة تلي بالي، طولها ثلاثة أيام وعرضها كذلك، وهي أسوء الممالك حالاً، واقلها خيراً ورجالاً، وعسكرها لا يزيد عن ألفي فارس، أهلها مسلمون حنيفة^(١).

٣. مدن أخرى مشهورة:

أولاً: جزيرة دهلك:

بفتح الدال المهملة، وسكون الهاء، ثمَّ الهاء، ثمَّ لام مفتوحة، وكاف، وهي جزيرة في بحر القلزم، واقعة في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة، طولها أحد وستون درجة والعرض أربع عشر درجة، وهي جزيرة مشهورة في بحر عيذاب إلى اليمن غرب مدينة حلي^(٢) في بلاد اليمن، وملكها من العرب المسلمين^(٣)، وجزيرة دهلك مجموعة الجزر في البحر الأحمر صغار، أكبرها جزيرة كمران، وهي مسكونة^(٤)، بينها وبين الحبشة مسيرة نصف يوم في البحر، وكانت من عاداتهم إذا تعرضوا للهجوم من لدن الأحباش صعدوا جبلاً عالياً وأوقدوا ناراً؛ فيخرج المسلمون لنجدتهم؛ وبسبب الصراعات التي حدثت داخل الدولة الإسلامية التي صاحبت وصول العباسيين إلى الحكم صارت تلك الجزر ملجأً للمناوئين للدولة العباسية^(٥).

ثانياً: مدينة عوان:

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣١٤/٥؛ وينظر: المقرئزي، الإلمام ص ٨٤؛ العمري، مسالك الأبيصار، ٨١/٤.

(٢) حلي: بفتح الحاء المهملة، وكسر اللام وتخفيفها، تعرف باسم ابن يعقوب، وكان من سلاطين اليمن، ساكن بها وهي كبيرة حسنة العمارة، يسكنها طائفتين من العرب، وهم: جذام وبنو كنانة، طولها نحو مائتين ميل بينها وبين اليمن نحو ثلاثين ميلاً. ينظر: ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ١٠١/٣.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣٢٠/٥.

(٤) المقرئزي، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، ص ١٠٠.

(٥) الحميري، الروض المعطار، ص ٢٤٤.

بفتح العين المهملة، والواو، والألف، ثمَّ النون، وهي مدينة على ساحل بحر القلزم، حيث الطول ثماني وسبعون درجة والعرض ثلاث عشرة درجة^(١)، وهي بلدة مشهورة، سكانها أحباش مسلمون^(٢).

ثالثاً: مقديشو:

بفتح الميم، وسكون القاف، وكسر الدال المهملة، ثمَّ شين معجمة، وواو في الآخر، تقع بين الأقاليم الأول من الأقاليم السبعة وخط الاستواء، طولها اثنان وسبعون درجة وعرضها درجتان، وهي مدينة كبيرة بين بلاد الزنج والحبشة، وهي على البحر المحيط، ولها نهر عظيم شبيه بنيل مصر، وهو شقيق لنيل مصر، مخرجه من بحيرة كورا، ومصبه ببحر الهند بالقرب من مقديشو، أهلها مسلمون^(٣)، وليسوا بسودان، ولا ملك لهم إنما يدير أمورهم المتقدمين على الإصلاح لهم^(٤)، يحمل منها: الصندل، والأبنوس، والعنبر، والعاج، إلى غيرها من البلاد^(٥)، وهي بلاد متناهية الكبر^(٦).

رابعاً: بلاد الزنج:

وهي بلاد شرقي خليج البربري على البحار التي تقابل الحبشة من البر الآخر^(٧)، الآخر^(٧)، مسيرة شهرين، شمالها اليمن، وشرقها النوبة، وغربها الحبشة، وبلاد الزنج شديدة الحرارة جداً، وسوادهم لا تحترقهم بالشمس، وهي بلاد قليلة المياه، قليلة الأشجار، وسقوف بيوتهم من عظام الحوت، وهم من أكلة لحوم البشر في الحروب، وأكثرهم عراة

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣٢٠/٥.

(٢) المقرئزي، الإمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، ص ٩٩.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣٢٠/٥؛ وينظر: المقرئزي، الإمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، ص ١٠٣.

(٤) ياقوت، معجم البلدان، ١٧٣/٥.

(٥) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٣.

(٦) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص ٢٥٣.

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣٢١/٥.

لا لباس لهم^(١)، قاعدتهم سفالة الزنج بالسین المهملة، والفاء، ثمَّ ألف، واللام، وهاء في الآخر، موقعها جنوب خط الاستواء؛ إذ الطول خمسون درجة والعرض في الجنوب درجتان، أهلها مسلمون، وأكثر معاشهم من الذهب والحديد، لبسهم جلود النمر والخيول، لا تعيش عندهم يقاتلون على البقر^(٢).

(١) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٣.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣٢١/٥؛ وينظر: المقرئ، الإمام بأخبار من بأرض الحبشة من

ملوك الإسلام، ص ١٠١.

الفصل الثاني

المظاهر السياسية والإدارية لإفريقيا جنوب
الصحراء.

من خلال روايات القلقشندي (ت ٨٢١ هـ)

والمقرئزي (ت ٨٤٥ هـ)

١. المظاهر السياسية لبلاد البجة.
٢. المظاهر السياسية لبلاد النوبة.
٣. المظاهر السياسية لبلاد الكانم والبرنو.
٤. المظاهر السياسية لبلاد مالي.
٥. المظاهر السياسية لمملكة الحبشة.

١. المظاهر السياسية لبلاد البجة:

أ. نظام الحكم:

لم يتفق المؤرخون العرب على إعطاء وصف نظام الحكم في البجة؛ فمنهم من عدّه نظامًا قبليًا، يقوم على أساس قبلي^(١)، ومنهم من عدّه نظامًا ملكيًا؛ إذ هو عبارة عن ممالك^(٢).

وسنقف على حقيقة ذلك ممّا أدلى به المؤرخون من روايات بشأن هذا الموضوع. يشير المقرئزي إلى أنّ البجة اعتمدت النظام القبلي في الحكم بقوله: "... إنهم بدوا يتبعون الكلا؛ حيث ما كان الرعي بأخبية من جلود، وأنسابهم من جهة النساء، ولكلّ بطن منهم رئيس، وليس عليهم ممتلك، ولا لهم دين، وهم يورثون ابن البنت، وابن الأخت دون ولد الصلب... وكان لهم رئيس يرجع جميع رؤساءهم إلى حكمه، يسكن قرية تعرف بهجر^(٣)، وهي أقصى جزيرة البجة"^(٤)، وأضاف في موضع آخر: إنّ في آخر بلاد البجة جنس يُقال له الياز، وأضاف أنّ هناك جنس آخر يسمى بالحدارب، ووصفهم بأنّ إسلامهم ضعيف، وهم شوكة القوم، ووجوههم وهم ممّا يلي مصر من أول حددهم العلاقي، وعيذاب، والمعبر منه إلى جدة وما وراء ذلك، ومنهم جنس يعرفون بالرفانج، وهم أكثر عددًا من الحدارية، غير أنّهم تبع لهم، وخرائهم يحمونهم، ويجبونهم المواشي، ولكلّ رئيس من الحدارية قوم من الرفانج في حملته، وهم كالعبيد يتوارثونهم

(١) المقرئزي، الخطط، ٣٥٨/١؛ وينظر: ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٥١.

(٢) اليعقوبي، تاريخ، ١٩٢/١-١٩٣.

(٣) هجر: وتعرف أيضًا بأب حجار أو أم هجر، وقد اكتسبت هذه البلدة موقعًا مهمًا ومركز تجاري للقوافل في بلاد البجة، وتميز موقعها بقيامه على المدخل بين حوض النيل وإثيوبيا، وهذا الأمر جعل القوافل تتخذة منفذًا لها بين تلك البلد وساحل البحر الارتييري في مختلف موانئه من مصوع، وياضع، وسواكن، وغيرها وهناك مدينة بالاسم نفسه على ساحل الخليج العربي عُرفت بهجر أبي البحرين. شاطر، بصيلي، معالم تاريخ السودان وادي النيل، (القاهرة، ١٩٥٥م)، ص ٢٣-٢٤.

(٤) الخطط، ٣٥٨/١.

بعد أن كانَ الزفانج قديماً قد ظهروا^(١)، وفي معرض حديث المقريري (ت ٨٤٥هـ) عن هذا الموضوع يذكر أيضاً أن هناك أجناساً أخرى تقطن صحراء علوة^(٢) ممّا يلي بحر القلزم إلى حدود الحبشة، وهم غير مسلمين، ولهم كهنة يقتدون بهم^(٣).

وأشار اليعقوبي^(٤) (ت ٢٩٢هـ) إلى كون نظام حكم البجة حكماً ملكياً، ذاكرًا خمس ممالك للبجة في كلِّ مملكة ملك منفرد، تمتد المملكة الأولى وهي مملكة علوة من حدّ أسوان شمالاً إلى حدّ بركات (خور بركة) جنوباً، وهم الجنس الذي يُقال له نقيس، ومركز المملكة مدينة هجر يُقال لها: هجر، ولهم بطون وقبائل، ومن قبائلهم الحدرات، وحجاب، والعمائر، وكوبر، ومناسة، ورفة، وربيعة، والزفانج، وفي بلادهم المعادن من التبر، والجوهر، والزمرد، وهم مسالمون للمسلمين، ويعملون في بلادهم في المعادن. أمّا المملكة الثانية فهي مملكة بقلين، وتضم هذه المملكة على مدن كبيرة واسعة، وديانتهم المجوسية والوثنية، والمملكة الثالثة هي مملكة بازين، يحدّها شرقاً مملكة بقلين، وغرباً وجنوباً مملكة علوة، وسكانها قوم مزارعون يزرعون الدخن والذرة، ويعتمدون عليها في غذائهم^(٥).

أمّا المملكة الرابعة فهي مملكة جارين، وتمتد من ميناء باضع على ساحل البحر الأحمر إلى حدّ مملكة بقلين، والمملكة الخامسة فهي مملكة قطعة، وهي آخر ممالك البجة، وهي مملكة واسعة، تمتد من ميناء باضع إلى مكان يُقال له (فيكون)، ومقاتلوها

(١) المقريري، الخطط، ٣٦١/١.

(٢) علوة: وهي إحدى ممالك النوبة، وهي أعمر بلادها، وهي ناحية لها قرى متصلة لها مساحات واسعة من الأرض، أمطارها كثيرة، ولنهر النيل فروع كثيرة، كما أن فيها جيش عظيم، اليعقوبي، البلدان، ١٢٤-١٢٥؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ١/١٦١؛ شيخ الربوة الدمشقي، نخبة الدهر، ص ٢٦٨.

(٣) الخطط، ٣٦٣/٢.

(٤) تاريخ اليعقوبي، ١/١٩٢-١٩٣.

(٥) اليعقوبي، تاريخ، ١/١٩٢-١٩٣.

ذو بأس شديد وجلادة، ولهم دار للحرب تدعى بدار (السوا)، وهم مستعدون للحرب والقتال^(١).

ويبدو لنا من استعراض الرأيين أنّ النظام السياسي الذي يسود مملكة هو أقرب إلى النظام القبلي منه إلى الملكي، أمّا وجود الممالك ووجود الملك فإنّه لا يعدو أنّ يكون رمزياً، ولا يتعدى التسمية؛ إذ ليس هناك ما يشير إلى وجود نظام سياسي متطور يرتقي إلى مستوى الملك، والمملكة خاصة، وأنّ البجة تتكون من قبائل ويطون طبيعتها أقرب إلى البدوية منها إلى الاستقرار؛ إذ كانوا يعتمدون على التنقل والترحال؛ أي لا توجد مقومات حضارة بمعنى الكلمة، وهي النظم، والعلوم، والفنون.

فضلاً عن ذلك وعلى الرغم ممّا أطلقه اليعقوبي (ت ٢٩٢هـ) من وصف لنظام حكم البجة الملكي، إلا أنّهُ يفهم من كلامه في موضع آخر من أنّهم بدو؛ فيصف إحدى قبائلهم وهي الرنافج بأنّهم ينتقلون من مكان إلى آخر، وهم رحل غير مستقرين، ويصف البجة الحدارية بأنّهم ينزلون بخيام من جلود^(٢)، زيادة على ما ذكره ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ) عن الحدارية من أنّ "جمعهم متجمعون لا حاضرة لهم"^(٣)، وانساق المقريري (ت ٨٤٥هـ) مع السياق نفسه عندما أشار بالقول: "وهم بادية يتبعون الكلاء حيثما كان الرعي بأخبية من جلود"^(٤).

(١) اليعقوبي، تاريخ، ١/١٩٢-١٩٣.

(٢) اليعقوبي، تاريخ، ١/٣٣٦.

(٣) صورة الأرض، ص ٥٤.

(٤) الخطط، ١/٣٥٨.

وقد حرصت قبائل البجة على إتباع نظام الحكم السائد عند الأمم والشعوب الإفريقية، وهو النظام الوراثي القائم على أساس النسب إلى الأم^(١)؛ فمن سنة جميع السودان أنهم "إذا هلك الملك أن يقعد بن أخته دون كل قريب وحميم من ولد وأهل"^(٢). ويبدو أن هذه الظاهرة التي سادت المجتمع الإفريقي بصفة عامة ناتجة عن المركز الاجتماعي التي كانت تحظى به المرأة عند تلك الشعوب؛ فكان الفتى يعلو شأنه بعلو شأن خاله، ويظهر هذا في أحاديثهم، وقصصهم، وأغانيهم^(٣). وعلى هذا فقد أصبحت النسبة إلى الأم مِمَّا هو متعارف عليه؛ فهي عماد الأسرة وأساسها، وبهذا الشأن يقول المقرئزي (ت ٨٤٥هـ): "وأنسابهم من جهة النساء... وهم يورثون ابن البنت دون ولد الصلب"^(٤)، ويضيف أن ولادة ابن الأخت وابن البنت أصح فإن كان من زوجها أو من غيره فهو ولدها على كل حال^(٥). وعليه فإن السبب واضح في ذلك؛ حتى لا يصار إلى الاختلاف في صحة النسب إلى الأب؛ فيكون الإثبات عن طريق الأم الذي لا يمكن الاختلاف عليها^(٦). ويورد المقرئزي (ت ٨٤٥هـ) نصًا يفيد أن نساء البجة كن لا يختلطن بالرجال، ولاسيما النساء العاملات في صنع الحراب^(٧)؛ خوفًا من الاعتداء عليهن؛ ما يفقدن عفافهن، وكُنَّ يقلن: إنَّ الرجال بلاء وحرب^(٨).

(١) مُحَمَّدٌ عوض، السودان الشمالي، ص ٣٨.

(٢) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٥٧.

(٣) مُحَمَّدٌ عوض، السودان الشمالي، ص ٣٨.

(٤) الخطط، ٣٥٩/١.

(٥) الخطط، ٣٥٩/١.

(٦) رمضان، الحدود المصرية السودانية، ص ٣٠٧.

(٧) الحراب: سلاح أهل البجة، وتسمى هذه الحراب بالحراب السباعية، مقدار طول الحديد ثلاثه أذرع،

أذرع، والعود أربعة أذرع؛ وبذلك سميت سباعية، والحديدة في عرض السيف لا يخرجونها من أيديهم

إلا في بعض الأوقات، وصناع تلك الحراب نساء. المقرئزي، الخطط، ٣٥٩/١.

(٨) الخطط، ٣٥٩/١.

ومهما كانت الأسباب التي جعلت شعب البجة يحرصون على إتباع النظام الوراثي المتعلق بالأم، إلا أنه كان من أهم الوسائل التي مكّنت العرب المسلمين من بسط سلطانهم على تلك القبائل، عن طريق التزاوج، وما يترتب على ذلك من حقوق تقضي بوراثة الأم، فضلاً عما ترتب من زيادة لأعداد المسلمين في البجة دفع إلى قيام عملية استقرار عربي إسلامي في تلك المنطقة، وكان ذلك بعد سنة (١٠٧هـ/٧٢٥م)، عندما حصل أول لقاء حربي هناك، وكان من نتائج الإقامة الدائمة هناك، وبعد أن حصلت عملية الاختلاط والتزاوج^(١).

ومن القبائل العربية التي أشار إليها المقرئزي (ت ٨٤٥هـ) وكان لها شأن في الاستقرار والاختلاط مع شعب البجة قبيلة ربيعة، التي كان أبناءها يتطلعون إلى الزواج من بنات رؤساء البجة؛ لينجبوا أبناء يرثوا الإمارة من أحوالهم^(٢)، وكان أن تحقق لهم ذلك بعد أن توافرت لهم الفرصة المناسبة في السيطرة؛ فورثوا الإمارة عن أحوالهم^(٣)، وذكر في هذا الشأن أنه في النصف الثاني من الرابع الهجري حدث أن ترأس الحدارية بأجمعها رجلان هما: عيدك وهو خال ولد أبي بكر إسحق بن بشير صاحب العلاقي، وكوك: خال أبو القاسم حسين بن بشير^(٤). يتضح لنا من هذا القول: إن إسحق بن بشير أصبح رئيس إمارة العلاقي التي جمعت بين عرب ربيعة وحدارية البجة، وكان ذلك عن طريق وراثته لها من خاله عيدك بحسب ما يقتضيه نظام وراثة الحكم عند البجة.

(١) المقرئزي، الخطط، ٣٦٣/١.

(٢) المقرئزي، الخطط، ٣٦٤/١.

(٣) مصطفى مسعد، البجة والعرب، ص ٣٩.

(٤) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٥٥.

ب. المنازعات والخلافات الداخلية:

أُتسم الوضع الداخلي لقبائل البجة قبل وصول الإسلام إليهم بالعداء والتمرد، وكان للطبيعة الصحراوية الجافة أثر في ذلك؛ إذ صبغتهم بقسوتها، وأصبحوا جزءاً منها، وأصبح الطابع الحربي يغلب عليهم، وأصبحت حياتهم عبارة عن غارات غلب عليها السلب، والنهب، والفساد، ومحاولة الهيمنة، والسيطرة على الأماكن التي تتوافر فيها وسائل العيش^(١)، وكان للكهنة أثر في ذلك؛ إذ كانوا يحثون عليه، "فكان لكلّ بطن كاهن تضرب له قبة من آدم (خيمة جلد) معبودهم فيها، فإذا أرادوا استخباره عمّا يحتاجون إليه تعرى ودخل إلى القبة مستديراً، ويخرج إليهم به أثر جنون وصرع، ويقول: الشيطان يقرؤكم السلام ويقول لكم: ارحلوا عن هذه الحلة منزل القوم، فإن الرهط الفلاني يقع بكم، وسئلتم عن الغزو إلى بلد كذا؛ فسيروا فإنكم تظفرون، وتغنمون، كذا، أو كذا، والجمال التي تأخذونها من موضع كذا هي لي، والجارية الفلانية التي تجدونها في الخباء الفلاني والغنم التي من صفاتها كذا نحو القول؛ فيزعمون أنه يصدقهم في أكثر من ذلك؛ فإذا غنموا، أخرجوا من الغنيمة ما ذكر ودفعوه إلى الكاهن"^(٢).

ومن الملاحظ أنّ هذا القول ينقصه التوضيح في ذكر موقع الغزوات والغارات، وتحديد البلدان التي يقع عليها ذلك الغزو، وذكر الأحداث، إلا أنه يحمل في مجمله أنّ تلك الغزوات والغارات تقع بين قبائل البجة أنفسهم؛ وذلك أنه ذكر ما يطلبه الكاهن من الغنيمة، وهي الجمال، والجارية الموجودة بالخباء، والغنم، وتلك الأشياء تتطابق مع بيئتهم ووسائل معيشتهم؛ ولكن على أي حال فإن ذلك يعكس حالة النزعة الحربية التي تتغلغل في نفوس أهل البجة.

ومن الجدير بالذكر والملاحظة بشأن هذا الموضوع أنّ النزاعات كانت غالباً ما تحدث بين قبيلتين مهمتين في البجة، وهما: الحدارية والرنافجة؛ إذ إنّ الرنافج وهم أكثر

(١) المقرئزي، الخطط، ١/٣٦٤.

(٢) المقرئزي، الخطط، ١/٣٦٣.

عددًا من الحدارب، غير أنَّهم تبع لهم وخفرائهم، يحمونهم ويجلبوا لهم المواشي^(١). وكان لهذا أثره في حالة التشنج الحاصلة بين الطرفين، ولاسيما أنَّ الرنافج كانت لهم القوة والمنعة من قبل، وشكل ذلك هاجسًا من الخوف لدى قبيلة الحدارية، التي كانت تخشى من زيادة نفوذ القبيلة الأخرى، وأدى ذلك في النهاية إلى سيطرة الحدارية، وأصبح الرنافج كالعبيد؛ حتى قيل: "كَانَ لِكُلِّ رَئِيسٍ مِنَ الْحَدَارِيَةِ قَوْمٌ مِنَ الرِّنَافِجِ فِي حَمَلَتِهِ كَالْعَبِيدِ يَتَوَارِثُونَهُمْ بَعْدَمَا كَانُوا أَظْهَرَ عَلَيْهِمْ"^(٢).

لقد كانت قبيلة الحدارية من القوَّة بحيث لم تخضع قبيلة الرنافج فحسب، وإنما دانت القبائل الأخرى وخضعت للحدارية، وهناك ما يشير إلى أنَّ بطون من السواكن تعرف برقابات، وهنديبا كانوا خفراء للحدارية^(٣)، وقاد ذلك في نتيجة الأمر إلى سيطرة قبيلة الحدارية، التي أصبحت تشكل الطبقة الحاكمة لأهل البجة، وقد أشار إلى ذلك المقرئزي بالقول: "كَانَ لَهُمْ رَئِيسٌ - أَيْ الْبَجَّةُ - يَرْجِعُ جَمِيعَ رُؤَسَاؤِهِمْ إِلَى حُكْمِهِ، يَسْكُنُ قَرْيَةً تَعْرَفُ بِهَجْرٍ، وَهِيَ أَقْصَى بِلَادِ الْبَجَّةِ"^(٤)، وأنَّ تلك البلدة هي التي يقيم بها رئيس الحدارية^(٥).

(١) المقرئزي، الخطط، ٣٦١/١.

(٢) المقرئزي، الخطط، ٣٦١/١.

(٣) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٥٦.

(٤) المقرئزي، الخطط، ٣٥٩/١.

(٥) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٣٦.

ت. علاقة بلاد البجة بالعرب المسلمين:

في المُدَّة التي شهدت أحداث فتح مصر سنة (٢١هـ) وما تلاها من سنوات لم يهتم العرب بإرسال حملات إلى بلاد البجة لتأمين الحدود الجنوبية الشرقية مثلما فعلوا مع النوبة^(١)، ورُبَّمَا يعود السبب في ذلك إلى عدم وجود أي نوع من الاحتكاك بين الطرفين^(٢)؛ إذ لم تذكر المصادر التي تحدثت عن أحداث الفتح إلى ما يشير إلى ذلك، ولم يَقم أهل البجة بأي نشاط عدائي أو حربي ضد العرب الفاتحين، على الرغم من المحاولات التي بذلها المقوقس^(٣) من طلب المساعدة من رؤساء البجة والنوبة للوقوف بوجه العرب وطردهم من مصر^(٤) في أثناء محاصرة الأمير عمرو بن العاص لمدينة بلبيس^(٥)، ويصف الواقدي إلحاح الروم في طلب النجدة من البجة بقوله: "إنَّ المقوقس فتح خزائن أبيه وأنفق على الجند، وأعطاهم السلاح، وطلب من شباب مصر، ودعاهم للخروج وملاقاة العرب، وبعث يستنجد بملوك النوبة والبجة، وأقام مُدَّة ينتظرهم"^(٦).

وهذا بطبيعة الحال يبين أنَّ هناك علاقة كانت قائمة بين الروم والبجة في أثناء عملية الفتح الإسلامي لمصر؛ إذ كان فراعنة مصر تغزوهم وتوادعهم أحياناً؛ لحاجاتهم إلى المعدن، وكذلك الروم^(٧)؛ ولكن ليس هناك ما يشير إلى رواية صريحة تدلّ على

(١) الطبري، مُحمَّد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: مُحمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب العلميَّة، (بيروت، ١٩٩٧م)، ٢٠٥/٣.

(٢) الحويري، مُحمَّد، أسوان في العصور الوسطى، ط٢، (القاهرة، ١٩٩٦م)، ص ٦١.

(٣) المقوقس: البطريرك المقوقس كيرس، الحاكم البيزنطي لمصر في مُدَّة الفتح الإسلامي لمصر. معلوف، لويس، المنجد في اللُّغة والأدب والعلوم، المطبعة الكاثوليكية، (بيروت، ١٩٦٦م)، ص ٥٠٨.

(٤) الواقدي، فتوح الشام، ٢٧/٢.

(٥) بلبيس: هي موضع قرب مصر، وسميت بأرض حاشان، وفيها نزل نبيّ الله يعقوب عليه السلام على ولده يوسف عليه السلام. المقرئزي، الخطط، ٣٣٩/١.

(٦) فتوح الشام، ٥٨٠/٢.

(٧) المقرئزي، الخطط، ٣٦٠/١.

استجابة البجة لنداء البيزنطيين واشتراكهم في أي عمل حربي ضد العرب في أثناء فتح مصر؛ فعدم الإشارة إلى البجة في عقد الصلح الذي عقد بين المقوقس وعمرو بن العاص والمعروف بـ(عين شمس) ^(١) يدلّ على ذلك ^(٢)، في حين أنّ ذكر اسم النوبة في ذلك العقد يدلّ على اشتراك النوبيين بصورة من الصور في القتال ضد العرب المسلمين ^(٣)؛ ولكن مع هذا إذا تناولنا الموضوع من جانب آخر واستناداً إلى حيثيات أخرى يمكن القول: إنّ البجة كانت حاضرة مع النوبيين في مقاتلة العرب المسلمين في مصر؛ فهم عنصر واحد؛ أي النوبيين وأهل البجة، على الرغم من عدم حضور اسم البجة؛ فهم يتشابهون في أشكالهم، وأجسامهم، وألوانهم، وأنّ العرب لم يكونوا يميزون بينهم، وظلوا غير عارفين بهم إلا بعد عشر سنوات من فتح مصر؛ إذ أشار ابن عبدالحكم إلى ذلك في معرضه عن حديثه عن عبدالله بن سعد بن أبي السرح رضي الله عنه ^(٤)؛ إذ بعد انصرافه من غزو النوبة سنة (٣١هـ/٦٥٢م)، وتوقيع معاهدة البقط شاهد العرب الفاتحين أول مرة عناصر البجة، وهم قد تجمعوا له على شاطئ النيل، وسأل عنهم فأخبر بمكانهم؛ فهان عليه أمرهم ^(٥).

(١) عين شمس: اسم لمدينة في مصر، بينها وبين القسطنطينية ثلاثه فراسخ، ياقوت، معجم البلدان، ١٧٨/٤.

(٢) باز، كرم الصاوي، مصر النوبة في عصر الولاة، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة، ٢٠٠٦م)، ص ٢٧.

(٣) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٥٣.

(٤) هو عبدالله بن سعد بن أبي سرح بن الحارث بن جذيمة بن مالك الأشعري، وهو أخ الخليفة عثمان رضي الله عنه في الرضاة وكان أسلم قديماً، وكان يكتب للرسول صلى الله عليه وسلم الوحي، ولاه الخليفة عثمان رضي الله عنه الجند، والصلاة مع الخراج في مصر. ابن سعد، أبو عبدالله مُحَمَّد بن سعد (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م)، الطبقات الكبرى، تحقيق: عبدالعزيز عبدالله السلومي، مكتبة الصديق، (الطائف، د.ت)، ١/٤٤٧-٤٤٨.

(٥) الخطط: ١/٣٦٠.

وذكر المقرئزي (ت ٨٤٥هـ) رواية يفهم منها ما يفهم من رواية ابن عبدالحكم (ت ٢٥٧هـ) قال فيها: "عندما سألَ عبدالله بن سعد عن شأنهم أخبر أن ليس لهم ملك يرجعون إليه"^(١).

وعلى هذا فالفهم العام للروايتين يدور حول أن العرب المسلمين لم يكن ليعيروا أهمية لقبائل البجة وعرفوا حقيقة أمرهم وضعفهم؛ ممَّا هان عليهم أمرهم، ولم يفكروا أن يبعثوا حملة إليهم؛ ولكن هل أن الواقع التاريخي ينسجم مع هذا الفهم العام الذي خرجنا به، يبدو أن الأمر مختلف، ولاسيما إذا وقفنا عند رواية ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ)^(٢)، التي تشير إلى أن عبدالله بن سعد بن أبي سرح رضي الله عنه في سنة (٣١هـ) عندما فتح أسوان التي عبر إليها من الحجاز وكانت مدينة قديمة وقهر من كان في الصعيد كان فيها من فراعنة البجة وغيرهم أسلم أكثر أهل البجة، مظهرين الشهادتين، ودانوا في بعض الفرائض، وضبطوا بعض شروط الإسلام.

ولكن مع هذا فيبدو أن هناك نوعاً من الخلط والضبابية في رواية ابن حوقل بشأن إسلام أهل البجة؛ إذ لم ترد أية إشارة من هذا القبيل عند ابن الحكم (ت ٢٥٧هـ)، والبلاذري (ت ٢٧٩هـ)، والمقرئزي (ت ٨٤٥هـ)، والذين تحدثوا عن صلح النوبة، والذي يشمل أهل البجة أو لم يرد اسمهم فيه، ثم أن إسلام البجة سنة (٣١هـ) الذي أشار إليه ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ)، بقوله: "وكانت البجة أمة تعبد الأصنام، وما استحسنوه إلى سنة ٣١هـ"، وأضاف: "وأسلم أكثر البجة"^(٣)، يتعارض مع ما أشارت إليه بعض المصادر التي تحدثت عن هذه القبائل في القرن الثالث الهجري ومنهم اليعقوبي

(١) ابن عبدالحكم، أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله ابن الحكم القرشي (ت ٢٥٧هـ/٨٧٠م)، فتوح

مصر وأخبارها، تحقيق: عبدالمنعم عامر، (القاهرة، ١٩٩١م)، ص ١٨٩؛ والخطط: ٣٦٠/١؛

(٢) صورة الأرض، ص ٥٠-٥١.

(٣) صورة الأرض، ص ٥٠-٥١.

(ت ٢٩٢هـ)^(١) من أنَّهم كانوا يعبدون الأصنام، فكيف إذا أنَّهم اسلموا في بداية الفتح ثمَّ عادوا إلى الوثنية بعد قرنين من إسلامهم؟

وصفوة القول: إنَّ تاريخ البجة يكتنفه الغموض؛ بسبب عدم العناية بتلك القبائل بتدوين تاريخها من ناحية، وعدم تعرض المؤلفين المسلمين لذكر تاريخها من ناحية أخرى.

وإنَّ أوَّل غارة شنتها البجة على حدود مصر الجنوبية عند أسوان كان في سنة (١٠٧هـ/٧٢٥م) في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ)، وأنَّ المسلمين صدوا تلك الغارة، والدليل على ذلك ما ابرم من اتفاقية بين الطرفين التي عقدها معهم عبدالله بن الحباب السلولي^(٢)، والتي ذكر فيها أنَّ له من البجة ثلثمائة بكر (إبل صغيرة) في كُلِّ عام، وحين ينزلون الريف مجتازين غير مقيمين، ولا يقتلوا مسلماً ولا نميّاً، فإنَّ قتلوه فلا عهد لهم، ولا يؤووا عبيد المسلمين، وأنَّ يردوا إذا وقعوا في أيديهم^(٣).

إنَّ تلك الغارة لم تذكر الدوافع في قيامها، ورُبَّما كان الغاية منها السلب والنهب، أو رُبَّما يرجع إلى الاختلاف في المعاملات التجارية بين البجة وأهالي أسوان؛ لقربهم منهم، وعلى أية حال فإنَّ تلك الاتفاقية ضمنت للمسلمين تأمين حدودهم الجنوبية المطلّة على الحدود الشرقية^(٤).

وقد استمرت تلك العلاقات والمعاملات بين البجة والعرب المسلمين بقراية قرن من الزمن؛ إذ كانت تتردد بعض الجماعات البجاوية لقضاء كثير من المصالح التي

(١) البلدان، ص ٣٣٧.

(٢) هو عامل الخراج في مصر عُيِّن من لدن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، وكان من موالي قبيلة سلول القيسية. المقرئزي، تقي الدين بن علي (ت ٨٤٥هـ)، البيان والإعراب عمّا بأرض مصر من الأعراب، تحقيق: عبدالمجيد عابدين، عالم الكتب، (القاهرة، ١٩٦١م)، ص ٢٢.

(٣) الخطط، ١/٣٦٠.

(٤) الحويري، أسوان في العصور الوسطى، ص ٦٢.

تتطلبها قرب بيئة حضارية زاخرة بالحياة والحيوية من بيئة أخرى فقيرة^(١)، وأنَّ المسلمين في إقليم أسوان كانوا مستظهرين على من جاورهم من النوبيين والبجة، وعلى الرغم من تلك العلاقات التي تظهر الصفاء في المعاملة الحسنة، إلا أنَّ أهل البجة كان يتخلل في نفوسهم العداة ضد العرب^(٢)؛ إذ لم تمضِ سنة على إنهاء حرب حكم النابغي^(٣) على البجة حتَّى عادت إلى شن الغارات من جديد على جهة أسوان، وكثرت إيذائهم للمسلمين؛ فرفع ولاة الأمور في أسوان خبرهم إلى الخليفة المأمون سنة (٢١٦هـ/٨٤١م)؛ فجرّد إليهم بقيادة عبدالله بن الجهم، وكان له معهم وقائع انتهت بمواعتهم وعقد صلح جيد بينه وبين ملكهم (كنون بن عبدالعزيز^(٤)) أشار إلى شروطه المقريري (ت ٨٤٥هـ) بالآتي^(٥):

أولاً: أن يكون سهل بلاد البجة وجبلها من منتهى حدّ أسوان من أرض مصر إلى حدّ ما بين دهلك وباضع ملكاً للأمير المؤمنين.

ثانياً: أن يؤدي ملك البجة الخراج في كلّ عام مائة من الإبل، أو ثلثمائة دينار لبيت المال.

ثالثاً: إن قتل أحد البجة أحد من المسلمين حرّاً أو عبداً برأت منه ذمة المسلمين ودمه.

رابعاً: إذا دخل أحد من المسلمين بلاد البجة تاجرّاً، أو مقيماً، أو مجتازاً، أو حاجّاً، فهو آمن حتَّى يخرج.

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٥١.

(٢) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٥١.

(٣) حكم النابغي: رجل من قبيلة عيلان، وكان ذا يسار وخير، استتجد به أهل أسوان ضد البجة، وشكوا وطلبوا إليه أن يكيفهم شر أولئك وسار معهم سنة (٢١٢هـ)، وغزا البجة، وظل يحاربهم حتَّى

استرجع السبايا بعد أن قام في بلادهم ثلاث سنين. مسعد، البجة والعرب، ص ٢٩.

(٤) المقريري، الخطط، ٣٦٣/١؛ وينظر نص العقد: الملحق (٢).

(٥) الخطط، ٣٦٣/١.

خامساً: على البجة إذا نزلوا ريف صعيد مصر تجاراً أو مجتازين لا يظهرون سلاماً، ولا يدخلون القرى أو المدن.

سادساً: على البجة أن لا يمنعوا المسلمين وأهل ذمتهم من الدخول في بلادهم للتجارة فيها براً وبحراً، ولا يقطعوا عليهم الطريق ولا يخفوا السبيل ولا يسرقوهم.

سابعاً: على البجة أن لا يهدموا شيئاً من المساجد التي ابتناها المسلمون بصنجة^(١) وهجر.

ثامناً: أن يقيم كنون بن عبدالعزيز بريف مصر وكيلاً يفي للمسلمين شرط من دفع الخراج وردّ ما أصابه البجة للمسلمين من مال ودم.

تاسعاً: على كنون أن يدخل أعمال أمير المؤمنين بلاد البجة لقبض صدقات من أسلم منهم.

ويبدو من هذه الشروط التي احتواها الاتفاق أو العقد أن بلاد البجة قد أصبحت أول مرة تحت نفوذ دولة المسلمين؛ بدليل فرض الخراج عليها، عدم التعرض للأفراد الذين يجتازون البلاد للحج، والتجارة، والإقامة بأذى، فضلاً عن جمع صدقات من أسلم من البجة، وهذا بطبيعة الحال يؤشر إلى أن الإسلام بدأ ينتشر في تلك البلاد، وأن المسلمين بدأوا يقيمون بها، إلا أن الأمور ما لبثت أن عادت إلى حالة التآزم بعد خمسة عشر عاماً، وعاود أهل البجة شن الغارات من جديد على مدن صعيد مصر؛ فتوجه إليهم ابن الجهم للمرة الثانية في عام (٢٣٢هـ/٨٤٧م) في عهد الخليفة المتوكل (٢٣٢-٢٤٧م)؛ لردهم عن إيذاء المسلمين من أهل مدينة أنبو^(٢)، الذين تعرضوا لهجوم البجة^(٣).

(١) صنجة: هي محطة لها أهميتها على مفترق طرق القوافل بين بور السودان ونهر عطبرة. بصيلي، تاريخ وحضارات السودان، ص ١٥٨.

(٢) أنبو: هي مركز أسوان. بصيلي، تاريخ وحضارات السودان، ص ١٥٣.

(٣) بصيلي، تاريخ وحضارات السودان، ص ١٥٣.

ولم يكتفِ البجاويون بالغارات، بل تبعوها بالتحلل من أداء ما كان يؤدونه من معادن الذهب بأرضهم^(١)، وقطعوا ما كان يؤدونه من الخُمس من الذهب، والفضة، والجوهر الذي يُستخرج^(٢)، فضلاً عن هذا فإنهم امتنعوا عن أداء ما نصت عليه المعاهدة بينهم وبين المسلمين من أتوات في كلِّ سنة^(٣)، كان يتخلل ذلك بعض القرى مثل أسنا^(٤)، وكانت النتيجة أن فرَّ أهل الصعيد من أوطانهم؛ خوفاً منهم^(٥)، وعندما وصلت الأخبار إلى الخليفة العباسي المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ) أرسل لحربهم مُحَمَّد بن عبدالله السقمي، وسأله أن يختار رجال أشداء؛ لصعوبة المسالك؛ فخرج إليهم من منصور في عدَّة قليلة ورجال منتخبون، لا يتجاوز عددهم الألف ما بين فارس وراجل، وكان للقبائل من ربيعة ومضر واليمن المقيمين في طريقه إسهاماً فاعلاً في ذلك؛ إذ أمده بثلاثة آلاف رجل من كلِّ بطن ألف رجل^(٦)، وأنضم إليه جميع ما كان يعمل من المعدن؛ فأصبح معه قوم كثيرون من المتطوعة^(٧)؛ حتَّى بلغت عدته نحو سبعة آلاف مقاتل ما بين فارس وراجل^(٨)، وأوغل بهم في بلاد البجة حتَّى قارب مدينة دنقلة وشاع خبر قدومه إلى أقصى بلاد السودان^(٩).

(١) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م)، فتوح البلدان، (القاهرة، ١٣١٨هـ)، ص ٢٤٠.

(٢) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم مُحَمَّد (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، تحقيق: أبو الفدا عبدالله، ط ٢، دار الكتب العلميَّة، (بيروت، ١٩٩٥م)، ٧/٧٧.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢/٢٩٥.

(٤) أسنا: مدينة بأقصى صعيد مصر وليس وراءها إلا أسوان، ثمَّ النوبة، وهي على شاطئ النيل من الجانب الغربي الغربي، وهي مدينة عامرة، طيبة، كثيرة النخل، والبساتين، والتجارة. ياقوت، معجم البلدان، ١/١٨٩.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢/٢٩٦.

(٦) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٥٣.

(٧) الطبري، تاريخ، ٩/٢٠٥.

(٨) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٤٠.

(٩) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢/٢٩٧.

وعلى أية حال فإنَّ العلاقة يمكن أن توصف بأنَّها كانت مضطربة أسهمت فيما بعد، بعد تلك الحملة التي قادها القمي إلى عقد الصلح، وكفل ذلك الصلح وقف الغارات على الصعيد مُدَّة من الوقت استطاع المسلمون العرب من مواصلة العمل في مناجم الذهب والمعادن من دون خوف من تعرض البجة لهم، واجتذبت حالة السلم تلك جماعات عربية أخرى للبحث عن الثروة، وكان من نتيجته مخالطة أهل البجة وإسلام أعداد كبيرة من رجالاتهم والتزواج منهم^(١).

ويبدو لنا من خلال تعرض أهل البجة المتكرر لمدن الصعيد المصري أنَّ البجاويين لم يكن ليغادروا ما اعتادوا عليه من حالات التمرد والغارات المصحوبة بالنهب، والسلب، والإفساد، التي تعكس حالة البيئة التي يعيشون فيها.

ث. علاقة البجة بالدولة الطولونية (٢٥٤-٢٩٢هـ/٨٦٨-٩٠٥م):

عقب تأسيس الدولة الطولونية في مصر عام (٢٥٤هـ/٨٦٨م) على يد أحمد بن طولون (٢٥٤-٢٧٠هـ)^(٢) ظهر رجل بالصعيد يدعى عبد الحميد بن عبدالله بن عبدالعزيز بن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويكنى بأبي عبدالرحمن العمري^(٣)، قدم إلى مصر، وسمع منه النَّاس الحديث، ثمَّ غادرها إلى القيروان، ومضى بها وقت، ثمَّ عاد إلى مصر عام (٢٤١هـ/٨٥٥م)، وكان عارفاً بالفقه، والأدب، والشعر، والنجوم، والفلسفة، وما أنَّ بَلَّغ خبر المعدن وإشارة النَّاس إلى التبر قام بشراء العبيد للعمل

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٥٤.

(٢) أحمد بن طولون: أمير مصر، ومؤسس الدولة الطولونية في مصر والشام، كان والده أحمد المماليك الأتراك، بنى مدينة القطائع عاصمة له. ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١/١٧٣؛ والزركلي، الأعلام، ١/١٤٠.

(٣) البلوي، عبدالله بن عمير بن محفوظ (ت منتصف القرن الرابع الهجري)، سيرة أحمد بن طولون، تحقيق: مُحَمَّد كُرْد علي، (دمشق، ١٣٥٨هـ)، ص ٦٤. وعبدالرحمن العمري: ذكر اسمه بأشكال مختلفة عند المؤرخين؛ فقد ورد اسمه عند ابن خلدون، تاريخ، ٤/٦٤٦ ب(عبدالحميد بن عبدالعزيز بن عبدالله بن عمر)، وورد عند المقرئزي، المواعظ، ١/١٩٦ ب(أبي عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالحميد العمري)، وورد في المقتفى الكبير، ٤/٤٠٣، ب(عبدالله بن عبدالحميد بن عبدالله الناسك بن عبدالعزيز بن عبدالله بن عبيد الله بن عمرو بن الخطاب).

بالمعدن، ثمَّ اتجه إلى أسوان على سبيل التجارة، ونزل بها، وجالس شيوخها وجاراهم العلم^(١)، وبعد أن كثر المسلمون في المعدن اختلطوا بالبجة، وظهر التبر، وكثر المشتغلون به^(٢).

اتجه العمري إلى أرض المعدن، ونزل على حي من مضر، وكان أن حدث خلاف بين مضر وربيعة؛ بسبب قتل رجل من مضر، وكان اجتماع الفريقين من القبيلتين من دون دعوة العمري سبباً في غضبه ورحيله عنهم^(٣)، ويبدو أنه - أي العمري - كان ذا حظوة لديهم؛ إذ إنَّ رحيله لم يكن يسره؛ فلحقوه، وأعادوه، واسترضوه، ولكنه شرط عليهم أن لا يفعلوا عملاً إلاَّ بأمره؛ فوافقوا على ذلك، وكان ذلك مدعاة لأن يجعل منها بيعة في أعناقهم؛ فأغار الجميع إليه، وأخذ بهم إلى أرض المعدن ممَّا يلي جنوب البجة، ثمَّ أوغل في بلاد البجة وسيطر عليها، ودان لهم أهلها حتى أدوا له الجزية^(٤)، بعد أن أرغمهم على ذلك بالقوة بعد قيامهم بهجوم على مصلى في يوم العيد في جبل المقطم^(٥) من ناحية جبل الزمرد، وهو من جبال البجة الذي يتصل بجبل المقطم^(٦)؛ إذ كبسوا النَّاس في مصلاهم وقتلوهم، ورجعوا من حيث جاءوا سالمين؛ ولكن العمري كمن لهم وأوقع فيهم، وقتل رئيسهم ومن معه^(٧)، وأصبح بعد ذلك من عادة الطولونيين وغيرهم من أمراء مصر أن يجعلوا على سفح جبل المقطم

(١) المقرئزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، المقفى الكبير، تحقيق: محمود البعلاوي، دار الغرب الإسلامي، (بيروت، ١٩٩١م)، ٤/٤٠٤.

(٢) المقرئزي، الخطط، ٣٥٩/١.

(٣) البصيلي، تاريخ وحضارات السودان، ص ١٦٢.

(٤) البلوي، سيرة أحمد بن طولون، ص ٦٤.

(٥) المقرئزي، الخطط، ٣٥٩/١.

(٦) الهمداني، أبو بكر أحمد بن مُحَمَّد بن أبي عثمان (ت ٥٨٤هـ)، مختصر كتاب البلدان، (اليدن، ١٣٠٢هـ)، ص ٥٩.

(٧) البلوي، سيرة احمد ابن طولون، ص ٦٤.

بالموضع المعروف بالجيش جيشاً كثيفاً؛ مراعيًا للناس حتى ينصرفوا من عيدهم في كلِّ عيد^(١).

بعد أن ثبت العمري أقدامه في بلاد البجة وأرض المعدن واجهته مشكلة الحصول على المياه لندرتها؛ إذ كان يحصل عليها من النوبيين مقابل التبر؛ فأخذ أصحابه يفتشون ويبحثون عن مصدر للماء فوجدوه في بلدة قريبة تدعى مقرة^(٢)؛ ولكن النوبيين لم يسمحوا له ولرجاله بورود الماء^(٣)، وقبضوا على بعض جماعته؛ فسار يطلب خلاصهم بعد أن راسلهم وتلطف منهم؛ ولكن النوبيين امتنعوا من ذلك، وقتلوا من الأسرى من أصحابه؛ فكان ذلك سبباً في محاربتهم، تخريب ديارهم، ثم سبى منهم الكثير حتى يُقال إنَّ الرجل من أصحابه كان يبتاع الحاجة من الزيات والبقال بنوبي أو نوبية؛ لكثرتهم^(٤).

وعلى الرغم من النتائج الطيبة إلي حققها العمري على إثر نجاح حملاته في بلاد البجة والنوبة فإنَّ ابن طولون بدأت تساوره المخاوف والشكوك من جهة العمري، بعد أن ذاع صيته في الصعيد وبلاد النوبة، وخاف أن يدفع به طموحه إلى الاستقلال عن الدولة، ولاسيما أنَّه يمتلك من أدوات التمرد ما يمكنه من ذلك، وهي: المال والرجال؛ فهو صاحب مناجم الذهب، وقائد لعناصر عربية ساخطة، وعناصر بجاوية تهوى القتال^(٥)؛ فأرسل إليه جيشاً بقيادة أحد رجاله، يدعى شعبة بن حركان البابلي، الذي قدم على العمري الذي طلب منه أن يتمهل قليلاً حتى يرسل حقيقة الأمر إلى ابن

(١) المقرئزي، الخطط، ٣٥٩/١.

(٢) مقرة: وهي مدينة صغيرة وبها مزارع وحبوب، وأهلها يزرعون الكتان، وبين مقرة وطينة مرحلة، وبين طينة وبجاية ست مراحل، أهلها قوم من بني ضبة، وبها قوم من العجم، ولها حصون كثيرة. الحميري، الروض المعطار، ص ٥٥٦.

(٣) المقرئزي، المققى الكبير، ٤/٤٠٥.

(٤) المقرئزي، المققى الكبير، ٤/٤٠٥.

(٥) القوصي، عطية، دولة الكنوز الإسلامية، دار المعارف، (القاهرة، ١٩٧٦) ص ٣٣-٣٤.

طولون من أن تلك الشكوك لم تكن في محلها، ولم تكن إلا ظنونًا غير صحيحة، وما خروجه في تلك البلاد وحربه عليها إلا من أجل القضاء على الفساد ومحاربة أعداء الإسلام، مدللًا له في ذلك من أنه لم يؤذ مسلمًا أو ذميًّا^(١)؛ ولكن شعبة رفض ذلك؛ فوقعت الحرب بين الطرفين، وانتهت بهزيمة شعبة^(٢)، وبعد ذلك الانتصار سار وفرض سيطرته أكثر مما كان عليه، وفي أماكن عدّة من أرض المعدن وربيعة^(٣)، وبلغت قوته على ما يزيد عن مائة ألف من رجال القبائل المختلفة، وصارت البجة محط أنظار التجار؛ إذ تحمل إليها الأحمال من أسوان وغيرها^(٤)، أغاض ذلك ابن طولون وأمر بمنعه؛ ولكن العمري كتب له أنه في مائة ألف مقاتل أو يزيدون؛ فترك ابن طولون اعتراضه؛ ولكن الأمور سارت باتجاه معاكس بالنسبة للعمري؛ فقد أخذت الأمور تسوء في أرض البجة؛ فقد حدثت المنافسات والمنازعات بين العرب أنفسهم؛ مما انعكس سلبيًا على تحالفاته^(٥)؛ الأمر الذي شجع ابن طولون للتخطيط لقتله؛ فاغتيل على يد رئيس من مضر يعرف بمحمد بن هارون؛ ردًا على مقتل رئيس قبيلة ربيعة أشهب^(٦)، وبعد مقتله حمل رأسه إلى أحمد بن طولون مع غلامين من غلمانه، يزعم أنهم قتلاه؛ لأنهم أرادوا منه منزلة وقرب^(٧)؛ فذم ابن طولون ذلك الفعل، وأمر بضرب أعناقهم^(٨)؛ وبذلك انتهت قصة العمري، ذلك المغامر الجريء، الذي حاول أن يقيم أول إمارة عربية مستقلة في بلاد البجة؛ ولكن العمري لم يمتد به العمر ليحقق ذلك^(٩).

(١) ابن خلدون، تاريخ، ٦٤٧/٤.

(٢) البلوي، سيرة احمد ابن طولون، ص ٦٦.

(٣) ابن خلدون، تاريخ، ٦٦-٦٧/٤.

(٤) المقرئزي، الخطط، ٣٦١/١.

(٥) المقرئزي، المقفى الكبير، ٤١٣/٤-٤١٤.

(٦) المقرئزي، المقفى الكبير، ٤١٤/٤.

(٧) البلوي، سيرة احمد ابن طولون، ص ٦٧.

(٨) البلوي، سيرة احمد ابن طولون، ص ٦٧.

(٩) ابن سعيد، علي بن موسى المغربي (ت ٦٧٣هـ)، المغرب في حلي المغرب، تحقيق: زكي حسن

وسيد الكاشف، (القاهرة، ١٩٥٣)، ص ٩٤.

٢. المظاهر السياسية لبلاد النوبة:

أ. نظام الحكم:

أشار المقريري إلى أنّ نظام الحكم عند النوبة هو نظام ملكي^(١)، وكان الملك على رأس الهرم، وهو يتمتع بسلطة مطلقة؛ فهو يملك الأرض ومن عليها^(٢)، ولا يعصي يعصي رعاياه له أمرًا، وهو ملك رقابهم، وأنّ يتصرف في أموالهم كيفما يشاء، وحكمه نافذ فيهم، ويده مطلقة في رعيته^(٣)، ومن ذلك فهو يسترقهم متى شاء، ويجرّم من يشاء بغير جرم؛ حتّى أنّهم كانوا يسجدون له، وينادونه بعبارة الملك يعيش، وكان يتوج بالذهب^(٤)، هذا وكان الملك النوبي يعدّ الأرض ملكًا له؛ إذ لا يحق لأحد من رعاياه أن يمتلك أي شيء من تلك الأرض، ولا يحق لهم التصرف بها ببيع أو شراء^(٥).

ومجمل القول: إنّ الملك النوبي كان يتمتع بجميع الحقوق والامتيازات داخل حدود مملكته، أمّا عن كيفية توليه الحكم فقد اتبع النوبيون نظام وراثته الحكم، وهو نظام الوراثة المتعلقة بالنسب إلى الأم، وهي سنّة اتبعها السودان جميعهم؛ فإذا هلك الملك يتولى ابن أخته الملك من دون كلّ قريب وحميم من ولد وأهل^(٦)، أمّا عن طبيعة الوظائف الإدارية فليس هناك ما يشير إليها في مصادر موضوع البحث.

ولكن يمكن أن نرسم صورة متواضعة لطبيعة الأعمال الإدارية ممّا موجود من أمور متشابهة في ممالك النوبة الأخرى، ومن أهم تلك الأعمال وجود وظيفة نائب الملك؛ فالملك المريرس الذي لقب بصاحب الجبل الواقع في شمال مملكة المقررة، الذي

(١) الخطط، ٣٥٢/١.

(٢) الجمل، تاريخ السودان وادي النيل، ص ٢٢١.

(٣) القزويني، آثار البلاد، ص ٢٥١.

(٤) المقريري، الخطط، ٣٥٢/١.

(٥) مسعد، الإسلام والنوبة، ص ٨٧.

(٦) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٥٧.

كانَ أعظم أولئك الملوك الإقليميين قدرًا، وأعلى مقامًا^(١)، كانَ دوره قائمًا على إنابة الملك الكبير في تنفيذ أحكامه من أوامر، ونواهي، والدفاع عن حدود المملكة ضد أي غزو خارجي، وعدم دخول أي شخص مهما كانَ مركزه إلا بإذنه؛ وبذلك تنطبق تلك الأعمال على باقي حُكام الأقاليم، ولا محل للخلاف في أنَّ الطابع العام لحكومة الأقاليم في مملكة علوة يشبه ما كانَ معمولًا به في دولة مقرة؛ فقد انقسمت المملكة على ولايات عرفت كُلَّ واحدة منها بالمملكة، وعلى رأس كُلِّ منها ملك^(٢)، وكان ملك إقليم الأبواب في شمال المملكة أعظم أولئك الملوك الذين ينوبون الملك الكبير في سوبا^(٣)، وكان يعرف بالدحداح.

وكان هناك طبقة من موظفي الدولة تكون الجهاز الإداري للمملكة، الذي يرأسه الملك في العاصمة، ثم نواب الملك في الأقاليم، وكان الجهاز الإداري يشتمل على الوزراء^(٤).

ب. علاقة بلاد النوبة بالعرب المسلمين:

في أثناء المُدَّة التي شهدت أحداث فتح مصر، اتجهت سياسة المسلمين إلى بسط نفوذهم ممَّا يلي البلاد جنوبًا، ولاسيَّما بلاد النوبة؛ للمحافظة على حدود مصر الجنوبية، بعد شن غارات متكررة على صعيد مصر؛ فكانت الحملة الأولى في بداية الفتح العربي الإسلامي لمصر؛ إذ غزا المسلمون النوبة؛ فقتلوا بالجراحات، وذهب الحدق من جودة الرمي؛ فسموا رماة الحدق^(٥).

(١) المقرئزي، الخطط، ٣٥٠/١.

(٢) مسعد، الإسلام والنوبة، ص ٨٩.

(٣) سوبا: عاصمة مملكة علوة المسيحية إحدى الممالك الثلاث، التي قامت في السودان وادي النيل في العصور الوسطى. باز، ممالك النوبة في العصر المملوكي، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة، د.ت)، ص ١٤٧.

(٤) المقرئزي، الخطط، ٣٥١/١.

(٥) الطبري، تاريخ، ٢٥/٣.

وكان قائد تلك الحملة عقبة بن نافع الفهري^(١)، وحين تولى عبدالله ابن سعد بن أبي سرح^(٢) ولاية مصر واصل جهوده؛ لوضع حدٍّ للخطر النوبي، الذي يهدد الحدود الجنوبية لمصر، وتمثلت تلك الجهود في عدد من الحملات والسرايا واجهها النوبيون بعنف؛ ولذلك استعد الوالي عبدالله بن سعد بن أبي سرح^(٣) لملاقاتهم؛ رغبة منه في استكمال الفتوحات الإسلامية، واستطاع أن يعدّ جيشاً كبيراً توجه به جنوباً سنة (٣١هـ)؛ وذلك لوضع حدٍّ نهائي لذلك الخط، وتأمين الطريق التجاري الذي عطلته الحروب والغارات^(٤)، وتمكن من حصار مدينة دنقلة حصاراً شديداً ورماهم بالمنجنيق، الذي لم تعرفه النوبة من قبل، وخسف بهم كنيستهم بحجر؛ فطلب ملكهم قليدوروث الصلح^(٥)، ووافق العرب المسلمون على الهدنة؛ لكثرة ضحاياهم، واشتهر ذلك الصلح بالبقط^(٦)، وكتب بهذه عهد اشتمل على عدد من الفقرات أجملها المقريري^(٧) ب:

أولاً: عهد من الأمير عبدالله بن سعد بن أبي سرح لعظيم النوبة، ولجميع أهل مملكته عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة من حدّ أسوان إلى حدّ أرض علوة.
ثانياً: إنَّ عبدالله بن أبي سرح جعل له أماناً وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة، إنَّكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله مُحَمَّدٍ ﷺ، أن لا نحاريكم ولا ننصب لكم حرباً ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم.

(١) عقبة بن نافع الفهري: ولد في حياة النبي ﷺ قبل الهجرة بعام واحد، وله صلة قرى مع عمرو بن العاص من جهة الأم، اشترك في الجيش الذي توجه لتحرير مصر بقيادة عمرو بن العاص، وأرسل إلى بلاد النوبة ففتحها. ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ص ٤٦٦.

(٢) الفراجي، عمر هلال عبد، تاريخ قبائل البجة السياسي والاجتماعي والاقتصادي حتى (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الحرة في هولندا، ٢٠١١م، ص ٩٦.
(٣) المقريري، الخطط، ٣٦٩/١.

(٤) أمين، متوكل أحمد، النوبة التراث والإنسان عبر القرون، ص ٧٨. والبقط: ما يقبض من سبي النوبة في كل عام، ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم. المقريري، الخطط، ٣٦٩/١.

(٥) الخطط، ٣٦٩/١-٣٧٠؛ وينظر: الملحق (٣).

ثالثًا: أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه، وندخل بلادكم مجتازين غير مقيمين فيه، وعليكم حفظ منزل بلدكم أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم. رابعًا: عليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم، ولا تمنعوا منه مصليًا، وعليكم كنسه، وإسراجه، وتكرمته.

خامسًا: عليكم في كل سنة ثلثمائة وستون رأسًا تدفعونها إلى أمام المسلمين من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب يكون فيها ذكران وإناث ليس فيها شيخ هرم، ولا عجوز، ولا طفل لهم يبلغ اللحم، تدفعون ذلك إلى والي أسوان.

سادسًا: فإن أويتم مسلم أو قتلتم مسلمًا أو معاهدًا، أو تعرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم أو منعتم شيئًا من الثلثمائة والستين رأسًا فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان، وعندنا نحن وانتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

وبعد النظر إلى مضمون المعاهدة نجد أنها تنص على ما يرفعه النوبيون، في حين لم يلتزم المسلمون بدفع شيء؛ ولكن جرى العرف على إرسال كمية من الحبوب والملابس؛ لحاجتهم لها، وأصبح ذلك العرف رسميًا، اتبعه كل من جاء من الولاة بعد عبدالله بن أبي سرح رضي الله عنه، ويرى أحد المؤرخين المحدثين أنها أشبه بالتبادل التجاري بين الطرفين^(١).

ويبدو أن البقظ هو الذي كان يقرر العلاقات بين العرب والنوبة لعدة قرون، وكان النوبيون يشكون من بنوده، ولاسيما تلك التي تنص بدفع (٣٦٠) رأس من الرقيق، وقد أثار ذلك جدلاً في بلاط الملك زكريا بن ينس الملك النوبي وابنه الأمير جورج؛ الأمر الذي أدى بالملك إلى أن يقرر إرسال ابنه إلى دار الخلافة العباسية في بغداد؛ لمقابلة الخليفة العباسي المعتصم بالله (٢١٨هـ/٢٢٧هـ)، وحمله في بعض الوصايا، منها: أنه إذا تبين له ما للمسلمين من بأس وشدة فما عليه إلا أن يسأل الخليفة ويتواضع في تخفيف مواد البقظ، وأمّا إذا كانوا غير ذلك فلا بد من عدّ العدة

(١) المقرئزي، الخطط، ٣٧٠/١؛ وينظر: مصطفى محمد سعيد، الإسلام والنوبة، ص ١١٤.

لمحاربتهم^(١)، غير أنّ الأمير جورج تفاجأ بحسن الاستقبال، وتقريب المعتصم له، وإحسانه إليه، وقبول هديته، وكافئه بأضعافها، ثمّ أجابه بما طلب من إطلاق المحبوسين، ثمّ وهب له الدار التي نزل فيها، وأمر له أنّ يشتري له في كلّ منزل من طريقه لتكون داراً لرسلمهم^(٢).

ويتضح من هذا الموقف الذي اتخذته المعتصم أنّ النوبيين قد نجحوا في كسب ود الخليفة عن طريق المرونة والتواضع الذي كان عليه الوفد برئاسة ابن الملك، فضلاً عن ذلك فإنّ العرب المسلمين لم يكن لهم موقف عدائي تجاه أهل النوبة في تلك البلاد، وكان أنّ توقفوا بعد ذلك عن تنفيذ بنود المعاهدة المذكورة آنفاً، ولاسيماً أنّ دولة المسلمين في مصر قد ضعفت^(٣).

أمّا في العهد الفاطمي (٢٩٧-٥٦٧هـ/٩٠٩-١١٧١م) فقد اتسمت العلاقة مع النوبيين بالهدوء وحسن الجوار، على الرغم من التحرشات التي كانت تحدث بين الحين والآخر، ولاسيماً بعد أنّ ازدادت أعدادهم من الجنود في الجيش الفاطمي^(٤).

أمّا في عهد الدولة الأيوبية (٥٦٧-٦٤٨هـ) فلم نجد في المصادر التاريخية التي بين أيدينا إلى ما يشير إلى أحداث قد جرت بين السلاطين الأيوبيين والنوبيين بعد صلاح الدين الأيوبي^(٥)، أمّا ما جرى من أحداث فكان على عهد صلاح الدين؛ إذ خرج النوبيون في سنة (٥٦٧هـ/١١٧١م) بأعداد كبيرة؛ بقصد غزو مصر، وهاجموا أسوان وحاصروها، ونهبوا قراها؛ فأسرع صلاح الدين بالعمل على إحباط تلك المحاولة، وأناط

(١) أمين، النوبة والتراث، ص ٩.

(٢) المقرئزي، الخطط، ١/٣٧١.

(٣) أمين، النوبة والتراث، ص ٨٠.

(٤) أمين، النوبة والتراث، ص ٨١.

(٥) صلاح الدين الأيوبي: السلطان صلاح الدين يوسف بن الأمير نجم الدين أيوب أبو المظفر الملك

الناصر، ولد سنة (٥٣٢هـ)، وكانت دولته نيفاً وعشرين سنة، توفي بقلعة دمشق في صفر سنة

(٥٨٩هـ). المغراوي، أبو سهل محمّد بن عبدالرحمن، موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج

والتربية، ٧/١٩٤.

الأمر بالشجاع البعلبكي على رأس قوّة من جنده، ودخل أسوان؛ فهرب النوبيون عائدين إلى بلادهم، ولم يكن الأمر يقف عند ذلك الحدّ؛ ولكن الأيوبيون طاردوا النوبيين عن طريق من اشترك معهم من بني الكنز^(١)، وأوصلوهم إلى أرض مرسيس، وهناك اشتبكوا معهم في معركة حامية، ثمّ عادوا إلى القاهرة بعد أن قتلوا منهم مقتلة عظيمة^(٢).

ثمّ عاود الأيوبيون حملاتهم اتجاه النوبة؛ ففي جمادى الأولى سنة (٥٦٨هـ/١١٧٣م) سار شمس الدولة توران شاه بن أيوب^(٣) من مصر إلى بلاد النوبة في محاولة لجعلها موضعاً بديلاً فيما إذا تعرضوا لهجوم من نور الدين^(٤)، لم يقووا عليه، وعلى الرغم من دخول توران شاه بلاد النوبة واحتلال قلعة أبريم؛ لكنه سرعان ما تركها عائداً إلى مصر؛ نظراً لشظف العيش في تلك البلاد بما غنم^(٥).

وبعد ذلك لم يكن هناك من جديد يغري الأيوبيون بفتح بلاد النوبة، بعد أن عرفوا فقرها وقلة خيراتها بعد حملة توران شاه، فضلاً عن ذلك فإنّ المشكلات الداخلية والخارجية التي كان عليها الأيوبيون كانت عائناً وسبباً في صرف الأنظار عن ذلك الموضوع^(٦)، زيادة على ذلك فإنّ الممالك النوبية في ذلك الوقت عرفت أهم مقوماتها، وهو عنصر الجند، وذلك منذ أن بدأ ولاة مصر يستعملون عناصر غير عربية في

(١) بني الكنز: هم النواة الأولى التي تالف منها جماعة الكنوز الذين يعيشون في بلاد النوبة، يرجع نسبهم إلى قبيلة ربيعة التي استقرت جنوب أسوان؛ إذ قوى نفوذهم، وأسسوا إمارة اتخذت من أسوان مركزاً لهم، اعترفت بها الدولة الفاطمية. أمين، النوبة والتراث، ص ٨٠.

(٢) المقرزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمّد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلميّة، (بيروت، ١٩٩٧)، ١/١٥٧.

(٣) توران شاه: الملك المعظم شمس الدولة بن أيوب بن شاوي بن مروان الملقب بفخر الدولة، أخو صلاح الدين الأيوبي. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١/٣٠٦.

(٤) نور الدين: محمّد بن زكي بن آقر سنقر الملك العادل، صاحب الشام، مولده في (٥١١هـ)، قتل في حصار جعبر سنة (٥٤١هـ). الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٠/٥٣١.

(٥) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٥/٢٦٦، وينظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١/٤٥-٤٦.

(٦) المقرزي، الخطط، ١/٣٥٣.

الجيش، وكان ابن طولون أوّل من استعمل النوبيين في الجيش الطولوني، وبلغت عدتهم آنذاك أربعون ألفاً، ولم تتوقف عمليّة جلب النوبيين للخدمة في الجيش المصري بعد وفاة ابن طولون، بل استمرت في الجيش الأخشيدي^(١)، ثمّ ازدادت أعدادهم في عصر الفاطميين، ولاسيّما في عهد المستنصر بالله (٤٢٧-٤٨٧هـ)؛ حتّى بلغ عددهم خمسين ألفاً، وشارك أولئك النوبيين في حوادث الدولة الفاطمية؛ فاستعان بهم الحاكم في القضاء على الثورات^(٢)، وفي عهد صلاح الدّين (٥٦٩-٥٨٩هـ) خرج النوبيون عليه عندما عزف عن استخدامهم في الجيش الأيوبي، واستبدلهم بعناصر كُردية، وتركية، وديلمية؛ لذلك قام النوبيون بعدّة محاولات لإعادة الفاطميين ليستردوا مركزهم الذي كانوا عليه في الجيش الفاطمي^(٣).

أمّا عن علاقة النوبيين بالدولة المملوكية (٦٤٨-٩٢٣هـ) فقد استغل هؤلاء حالة الصراع القائمة بين الممالك والقوى المحلية من العرب عندما رفضت القبائل العربيّة الخضوع للمماليك؛ بوصفهم رقيقاً وأنّهم أولى بحكم مصر منهم^(٤)؛ ممّا أدى إلى قيام ثورات للقبائل العربيّة بصورة مستمرة، ولاسيّما في الوجه القبلي؛ فاستغل النوبيون ذلك الأمر، وحاولوا الامتناع عن دفع البقظ السنوي المقرر عليها منذ أيام عبدالله بن أبي سرح^(٥)؛ فكانوا يماطلون بها تارة، ويتمنعون تارة أخرى من أدائها، وكان ذلك سبباً لتعرضهم لحمات عسكرية من مصر؛ بهدف إذعانهم للامتثال لما كانوا عليه^(٥)، وكانت أوّل حملة عسكرية ضد النوبيين أرسلها الظاهر بيبرس^(٦) بقيادة والي قوص سنة

(١) المقرئزي، الخطط، ٣٥٣/١.

(٢) المقرئزي، الخطط، ٢٣٥/١.

(٣) المقرئزي، الخطط، ٣/٢.

(٤) المقرئزي، البيان والأعراب بأرض من مصر من الأعراب، ص ٩-١٨.

(٥) ابن خلدون، تاريخ، ٤٩١/٥.

(٦) الظاهر بيبرس: الملك الظاهر ركن الدّين أبو الفتح بيبرس البندقداري الظاهر صاحب الفتوحات،

لقب قسيم أمير المؤمنين وهو أوّل لُقّب به. السيوطي، حسن المحاضرة، ٩٥/٢-٩٦.

سنة (٦٧١هـ/١٢٧٢م) وكان السبب في إرسالها هجوم الملك داود^(١) ضد عيذاب وأسوان؛ بحجة تأثره لما أصاب الأقباط في مصر من اضطهاد على يد السلطان بيبرس؛ لاتهامهم بحرق بعض أحياء القاهرة سنة (٦٦٣هـ/١٢٦٤م)، ووصلت تلك الحملة دنقلة، غير أنّها لم تستطع الظفر بداود فعادت بعدد من الأسرى إلى القاهرة من بينهم صاحب الجبل^(٢).

أمّا الحملة الثانية فكانت سنة (٦٧٤هـ/١٢٧٥م) عندما أغار النوبيون على أسوان وقاموا بأعمال السلب، والنهب، والتخريب فيها، وأسروا عددًا من أهلها، سخروهم في بناء مدينة كنيسة سوس (المسيح) في دنقلة^(٣)، فأدت تلك الأحداث إلى أن يجرد السلطان المملوكي حملة ويتوغل في بلاد النوبة، وخرج النوبيون إلى لقائه في ملابس سود يطلقون عليها اسم الدكاكيك، وقاتلوا الجيش المملوكي قتالًا عنيفًا انتهى بهزيمة النوبيين وفرارهم^(٤)، ثمّ عادت الحملة إلى دنقلة بعد إخضاعهم وتتويج شكندة ملكًا للنوبة^(٥).

(١) الملك داود: وهو أحد ملوك النوبة في عصر السلطان الظاهر بيبرس، وقد اعتقل هذا الملك من لدن الظاهر حتى موته. الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٦٦/٥.

(٢) صاحب الجبل: هو حاكم إقليم المريس، وهو أكثر الولاة مكانة؛ بوصفه المسؤول عن الجزء الشمالي. الخطط، ١٩٠/١.

(٣) المقريري، الخطط، ٣٧٢/١؛ والنويري، شهاب الدّين أحمد (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، (القاهرة، ٢٠٠٢م)، ص ٢٠٢/٣.

(٤) المقريري، الخطط، ٣٩٩/١.

(٥) المقريري، الخطط، ٣٧٣/١.

ومن اللافت للنظر أنّ تلك الحملة تختلف في طابعها العام عمّا سبقها ضد النوبة؛ فهي تُعدُّ فتحًا حقيقيًا للنوبة^(١)؛ لأنّها وضعت أساسًا جديدًا للعلاقات بين البلدين؛ بدليل الشروط الجديدة التي قطعها الملك شكندة على نفسه للسلطة المملوكية^(٢)؛ ومن هنا أصبح السلطان المملوكي بيده عزل ملوك النوبة وتعيينهم، وأنّ حصيلة بلاد النوبة أصبحت مناصفة بين السلطان والملك النوبي، ولا يعني هذا أنّ هذه الشروط هي بديلة لاتفاق أو معاهدة البقط، وإنّما استمر ذلك بدليل قول المقريري: "والتزم شكندة أنّ يحمل جميع ما لداود، ولكلّ من قتل وأسر من مال ودواب إلى السلطان مع البقط القديم"^(٣)، وأصبح النوبيون أهل ذمة؛ ولذلك أنشأ السلطان بيبرس في مصر ديوانًا سماه ديوان النوبة، ومهمته مراقبة جمع الجزية والخراج من النوبة، وتعيين عمال لذلك^(٤)، ثمّ إنّ بلاد الجبل أصبحت تابعة تبعية إقطاعية مطلقة للسلطان، وتقدر بربع بلاد النوبة^(٥)، ثمّ إنّ الملك النوبي شكندة أكد ولاءه للسلطان بيمينٍ وحلف ثانٍ مضمونه: "متى ورد مرسوم السلطان في ليل أو نهار يطلبه - أي شكندة - إلى الأبواب الشريفة يحضر لوقته وساعته، ولا يتأخر بوجه من الوجوه إلّا بقدر ما يدبر ما يحتاج من أمور

(١) المقريري، السلوك، ٤٥/٧.

(٢) المقريري، الخطط، ٣٧٣/١. والشروط التي وضعها الملك شكندة هي:

أ. أصبح الملك شكندة تابعًا للسلطان المملوكي ونائبًا عنه في حكم بلاد النوبة.

ب. أنّ يرسل ملك النوبة نصف حصيلة ما يجمعه من بلاد النوبة خالصًا للسلطان، فضلًا عن

ثلاث فيلة، وثلاث زرافات، وخمس من إناث الفهود، ومائة من الجياد الأهلية، وأربعمائة بقرة.

ت. أنّ يدفع كلّ فرد من العقلاء البالغين دينارًا للسلطان ممن بقوا على النصرانية.

ث. أنّ لا يترك شكندة أحدًا من العربان في بلاد النوبة، ومن وجده أرسله للسلطان.

ج. أنّ يطلع ملك النوبة السلطانة بكلّ ما يصل إليه من أخبار.

وتأكدت هذه الشروط كلّها بيمين حلف شكندة. النويري، نهاية الأرب، ٢٢١/٣٠-٢٢٢؛ ابن

أبي الفضائل، مفضل بن أبي الفضائل البقطي (ت ٧٥٩هـ/١٣٥٧م)، النهج السديد الدرر الفريد

في ما بعد تاريخ ابن العميد، (باريس، ١٩٢١م)، ٢٣٦/٢.

(٣) المقريري، الخطط، ٣٧٣/١.

(٤) المقريري، الخطط، ٣٧٣/١.

(٥) المقريري، الخطط، ٣٧٣/١.

السفر^(١)؛ وبذلك أكملت الحملة مهمتها بعد أن أطلقت أسرى عيذاب وأسوان، ويقال: إنَّ الحملة خربت كنيسة سوس بدنقلة^(٢)، وأخذت ما فيها من أدوات ذهبية نفيسة، ثمَّ غادرت دنقلة في ذي الحجة من السنة نفسها (٦٧٤هـ/١٢٧٦م) إلى القاهرة مصطحبة معها عشرين أميرًا نوبيًا؛ لضمان وفاء النوبيين بالتزاماتهم إزاء السلطنة المملوكية، أمَّا بشأن الرقيق الذين غنمهم المماليك؛ فيقال: إنَّه بلغ من كثرتهم أن يباع الرأس بثلاثة دراهم، وقد قتل وبيع عشرة آلاف نفس^(٣)، وبطبيعة الحال يدلُّ هذا العدد على مدى ما تعرضت له النوبة من نقص في الرجال والأموال.

ولم تكن تلك الحملة هي نهاية المطاف في علاقة المماليك مع النوبة، بل تلتها فيما بعد حملات أخرى في عهود السلاطين المماليك، وشهدت العلاقة حالة من التوتر؛ فعندما اعتلى السلطان قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ) عرش السلطنة المملوكية أرسل حملة بقيادة سنجر^(٤) إلى بلاد النوبة، فقبض سنجر على ملكها وأبدله بملك آخر، ولكن ذلك الملك لم يفِّ بالتزاماته التي عهد أن يقوم بها تجاه الدولة المملوكية؛ الأمر الذي أدى إلى إرسال حملات عدَّة لتأديبه، والعمل على استقرار الأوضاع هناك، فضلًا عن إرسال ما تمَّ الاتفاق عليه من التزامات سنوية منذ عهد الظاهر بيبرس^(٥)، وتمكن قادة الحملات

(١) ابن أبي الفضائل، النهج السديد، ٣٩٩/٢.

(٢) المقرئزي، الخطط، ٣٧٣/١.

(٣) المقرئزي، الخطط، ٣٥٩/١.

(٤) ابن عبدالظاهر، محي الدين أبو الفضل عبدالله بن رشيد (ت ٦٩٢هـ)، تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق: مراد كامل، الشركة العربيَّة للطباعة والنشر، (القاهرة، ١٩٦١م)، ص ١٥٤. وسنجر: هو المعروف بالخياط علم الدين سنجر المسروري، وهو والي القاهرة في عصر السلطان سيف الدين قلاوون؛ إذ تولى ولاية القاهرة سنة (٦٨٦هـ/١٢٨٧م)، وهو الوحيد الذي ينطبق عليه هذا اللقب؛ إذ فاقت صلاحياته غيره الولاة. كامل، مُحمَّد سيد، منصب الوالي في عصر المماليك البحرية بمصر، مجلة التاريخ والمستقبل، جامعة المنيا، عدد يناير، ٢٠١١م، ص ٢٢٧.

(٥) المقرئزي، السلوك، ١٩٩/٢؛ وينظر: أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ٢٢/٤.

الحملة تلك من إقرار الأوضاع وفرض القطيعة^(١)، مع ترك بعض الجند من أجل استتباب الوضع^(٢).

وقد أورد القلقشندي^(٣) نصًا لاتفاقية جديدة تشبه في محتوياتها المعاهدة التي عقدت مع شكندة أيام السلطان بيبرس مع وجود بندين مختلفين هما: أولاً: عدم وجود شرط طرد العريان الذين يلجأون إلى مملكة النوبة، ولعل ذلك ناتج عن تبدل العلاقة بين المماليك والقبائل العربيّة؛ نظرًا إلى الدور الذي أدته في مناصرة القوات المملوكية التي هزمت الملك النوبي سامون.

ثانيًا: ينص البند الثاني على وجوب مصادرة جميع أنواع الأسلحة من أيدي السكان المحليين، وهذا الشرط وقائي؛ لمنع الناس من الثورة على الملك الجديد الموالي للسلطان المملوكي، فضلًا عن محاولة إضعافهم؛ حتّى لا يصار إلى القيام بهجمات على الحامية المملوكية في دنقلة.

أمّا قادة الحملة فقد عادوا مع باقي العسكر إلى القاهرة في التاسع من رجب عام (٦٨٧هـ/١٢٨٨م) بعد أن ملكوا بلاد النوبة^(٤)؛ إذ غنموا الكثير من الرقيق، والخيول، والجمال، والأبقار، والأكسية؛ فأحسن السلطان استقبالهم، وكان يومًا مشهودًا، ووزعت السبايا على خواص السلطان وحواشيه، والأمراء، والجند، وبيع ما تبقى بأبخس الأثمان^(٥).

ولكن ما أن عاد الجيش المملوكي حتّى ظهر التمرد من جديد؛ فما كان من السلطان المملوكي إلّا أن يجهز حملة جديدة أقوى من تلك التي كانت من قبل، واسند

(١) القطيعة: ما يفرضه السلطان على الولاة من المال سنويًا، أو ما يقرره في الأحوال غير العادية. علي مبارك، الخطط الجديدة التوقيفية، لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها، مطبعة بولاق، ١٣٠٥هـ، ٤/١١.

(٢) ابن الفرات، ناصر الدّين مُحَمَّد بن عبدالرحيم (ت ٨٠٧هـ/٤٠٤م)، تاريخ الدول والملوك، تحقيق: قسطنطين زريق ونجلاء عز الدّين، دار الفكر، (بيروت، ١٩٣٨م)، ٥٢/٨-٥٣.

(٣) صبح الأعشى، ٢٩٠/١٣-٢٩١.

(٤) ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، ٥٣/٨.

(٥) المقرئزي، السلوك، ٢٠٦/٢.

قيادتها إلى ثلاثة من الأمراء^(١)، وكان ذلك سنة (٦٨٨هـ/٢٨٩م)^(٢)، وقد حققت الحملة أهدافها، واجتمع قادتها في دنقلة للاحتفال وتنصيب ملك جديد للنوبة، وألبسوه التاج على عادة ملوكهم، حلفوا للسلطان قلاوون^(٣)، وحلف الرعية أنّهم لا يطيعونه؛ أي ملكهم إلا ما دام في طاعة السلطان، وأنّه إذا خرج عن طاعته ينزع التاج منه بقولهم: "لولا مولانا السلطان ما أطعناك، ومتى تغيرت أمسكانك، ونحن نرضى أن يقيم مولانا السلطان لنا ملكًا فلاحًا أو جبليًا؛ فإنّ بلاد النوبة ما لها ملك إلا مولانا السلطان ونحن رعيته"^(٤)، وقرر قادة الحملة على بلاد النوبة ما كان تقرر على من سبق من البقظ^(٥).

ولكن مع ذلك بقيت العلاقات قلقة وتخضع للظروف والمتغيرات بين الآونة والأخرى؛ فلم تستقر على حال؛ فعلى الرغم مما حقته الحملة الأخيرة من أهداف، وما أعلن من نتائج عادت الأمور من حيث كانت، وتمكن الملك سامون من الهجوم على الملك المنصب من لدن قادة الحملة العسكرية الأخيرة، وأوقع به، وتفادياً لوصول حملات عسكرية جديدة من لدن المماليك حاول سامون التودد إلى السلطان قلاوون، وأرسل إليه رجالاً من قبله مع الهدايا في محاولة لاستعطافه، متعهداً بالالتزام والطاعة، وإرسال البقظ، وما يزيد عليه منذ عهد الظاهر بيبرس^(٦)، وكان وصول تلك السفارة في وقت كان فيه السلطان منشغلاً بأمور هي أهم من النوبة؛ إذ كان يستعد للزحف على عكا؛ لتخليصها من بقايا الصليبيين؛ فكان أن قبل السلطان بتنصيب سامون ملكاً بعد أن حلف على اليمين^(٧)، ولكن الأخير لم يكن عند عهده الذي قطعه على نفسه، فما أن

(١) المقرئزي، السلوك، ٢٠٦/٢.

(٢) النويري، نهاية الأرب، ٢٩/٣١. وللمزيد من التفاصيل حول تلك الحملة ينظر: ابن الفرات، تاريخ، ٨٣/٨؛ المقرئزي، السلوك، ٢١٢-٢١٣؛ ابن عبدالظاهر، تشریف الأيام، ص ١٥٤-١٥٥؛ ابن خلدون، تاريخ، ٤٩١/٥.

(٣) المقرئزي، السلوك، ٢١٦/٢.

(٤) ابن عبدالظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص ١٥٥.

(٥) المقرئزي، السلوك، ٢١٦.

(٦) المقرئزي، السلوك، ٢١٦/٢.

(٧) ابن الفرات، تاريخ، ٩١/٨.

أنَّ سمع بوفاة السلطان قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ) حتَّى امتنع عن إرسال البقط والجزية سنة (٦٨٠هـ/١٢٨١م)، وبعث إلى السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (ت ٦٨٩-٦٩٣م) رسالة يعتذر إليه عن عدم ذلك؛ متعللاً بما أصاب بلاده من التخريب، وأنَّ الحملات الإسلامية قد كلفت البلاد غالياً^(١).

ويبدو أنَّ السلطان خليل قلاوون لم يقبل بتلك الأعذار؛ فأوفد إليه الرسل تنذره بعواقب تأخير البقط؛ فأرسل سامون فسأله الأمان، ووعد بإرسال البقط سريعاً، فقبل السلطان خليل ذلك الوعد^(٢).

ولم تتحدث المصادر بعد ذلك عن علاقة سامون والمماليك الذي بقي قائماً على عرش النوبة إلى أيام الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوري (٦٩٤-٦٩٦هـ)، ولم توضح المصادر الكيفية التي انتهى عليها سامون إذا ما كانت قد خلع عن العرش أو مات ميتة طبيعية^(٣).

وإذا انتقلنا إلى عهود السلاطين المماليك بعد تلك المُدَّة نجد أنَّ الأمر لم يختلف في العلاقة مع النوبيين؛ إذ شهدت العلاقة المدّ والجزر، ممثلة في الوفود التي يرسلها الملوك النوبيين وهم محملين بالهدايا؛ في محاولة لاستمالة السلطان، والتعهد بتسليم ما التزموا به من أداء ما مقرر عليهم تارة^(٤)، أو الجنوح للعصيان والامتناع عن دفع البقط وبقية الالتزامات الأخرى من الخراج والجزية تارة أُخرى، وهذا بطبيعة الحال يترتب عليه إرسال حملات عسكرية من لدن هذا السلطان أو ذاك^(٥)، فضلاً عما كان يترتب على الدولة المملوكية الكثير من جهد، ومال، وأنفس، ممَّا لا يمكن الاستمرار في تحمله.

(١) ابن الفرات، تاريخ، ٩/٩١؛ الصاوي، ممالك النوبة، ص ١١٧.

(٢) الصاوي، ممالك النوبة، ص ١١٨-١١٩.

(٣) الصاوي، ممالك النوبة، ص ١١٩.

(٤) المقرئ، السلوك، ٢/٣٧٩، ٢/٤٧٢.

(٥) النويري، نهاية الأرب، ٣٢/١٨١.

ثالثاً: المظاهر السياسية لبلاد الكانم والبرنو:

أ. نسب أسرة الكانم:

سميت الأسرة الحاكمة في الكانم بالأسرة السيفية؛ اعتماداً على إدعاء هذه الأسرة من أنّها تنتسب إلى سيف بن ذي يزن، الذي نجح بطرد الأحباش من اليمن، ودخول صنعاء سنة (٥٧٥م)^(١)؛ فقد أكد هذا النسب الماي عثمان بن إدريس، أحد حُكام دولة الكانم والبرنو في رسالة بعثها إلى سلطان مصر في عهد السلطان المملوكي برقوق سنة (٧٩٥هـ/١٣٩٢م) يشكو فيها من اعتداءات العرب؛ إذ قال في رسالته: "ونحن بنو سيف بن ذي يزن والد قبيلتنا العربيّ القرشي كذا ضبطناه عن شيوخنا"^(٢)، وعلى الرغم من ذكر القلقشندي (ت ٨٢١هـ) بانتماء القبيلة إلى قريش؛ لكنه استدرك بأنّ سيف بن ذي يزن هو من أعقاب تبابعة اليمن من حمير^(٣)، وقد حرصت تلك الأسرة أو القبيلة على إثبات نسبها العربيّ بطريقة أو بأخرى؛ فهي لم تدع النسب السيفي وحسب، وإنّما أدعت النسب الأموي^(٤)، بل إنّها أدعت أنّها من العلويين^(٥).

ويبدو أنّ الإدعاء الأوّل الذي أدعت به أسرة الكانم من أنّها تنتسب إلى سيف بن ذي يزن لا يأتي من فراغ، بل إنّ له صلة بواقع تاريخي معين؛ فقد عثر على مخطوطة عربية في تنبكت^(٦)، وردت فيها إشارة إلى أنّ سيف بن ذي يزن كان متزوجاً من إحدى

(١) ابن خلدون، تاريخ، ٧٣/٢.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٦٩/٥.

(٣) صبح الأعشى، ٢٦٩/٥.

(٤) البكري، المسالك والممالك، ص ١١؛ الجميلي، عمار مرضي علاوي، المؤثرات الإسلامية في مملكة برنو الإفريقية، مجلة كلية الإمام الأعظم، العراق، ٢٠١١م، ص ٣١٧.

(٥) العمري، التعريف بالمصطلح الشّريف، ص ٤٧؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨١/٥.

(٦) تنبكت: بضم التاء المعلّوة، وسكون النون، وضم الباء الموحدة، وسكون الكاف، وضم التاء. فنون في الآخر، مدينة بينها وبين النيل أربعة أميال، أكثر سكانها مسوفة أهل اللثام. ينظر: ابن بطوطة،

رحلته، ٢٦٩/٤.

إحدى السيدات التومارغويين، وهي القبيلة التي ينتمي إليها حُكام الكانم أو ينتمون إليها؛ ومن هنا جاءت الصلة وبرز هذا الإدعاء^(١)، ولاسيما أنّ الاختلاط الحاصل للقبائل العربيّة القادمة إلى المنطقة مع السكان المحليين كان قائمًا، وما حصل من تصاهر فيما بينهم قد امتد إلى أن يتزوج عربي من العائلة الحاكمة^(٢)، وعندها يأخذ حُكامها النسب العربيّ من أمهاتهم، وقد ساعدت سياسة التزاوج مع القبائل في دعم مركز الأسرة الحاكمة من عدد من القبائل الموالية لهم، وعزز ذلك من مركزهم في الحكم^(٣)، ولكن على أية حال وعلى الرغم من المسوغات في هذا الموضوع يبقى النسب السيفي مجرد إدعاء يحتاج إلى كثير من الإثباتات، ولاسيما إذا أخذنا بالحسبان أنّ هذا الرجل قتل في اليمن على إثر طرد الأحباش^(٤)، فضلًا عن هذا فإنّ هذا الإدعاء لم يأت إلا بعد اعتناق الأسرة الحاكمة الإسلام، ويبدو أنّه جاء بحثًا منهم عن نسب عربي تستمد منه هذه الأسرة نفوذًا معنويًا يضيف إليها شرعية تعزز به مكانتها، ولاسيما أنّه لم تبقَ واحدة من الأسر الحاكمة إلا وقد اصطنعت لنفسها نسبًا عربيًا؛ فقد انتسب مثلًا سلاطين الكانم إلى حمير؛ ليحافظوا على تلك القرابة بهذا النسب التقليدي^(٥).

(١) الشيخلي، الوجود العربيّ في كانم، ص ١٣٠.

(٢) الشيخلي، الوجود العربيّ في كانم، ص ١٣١.

(٣) الشيخلي، الوجود العربيّ في كانم، ص ١٣١.

(٤) ابن قتيبة الدينوري، عبدالله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م)، المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، منشورات المعارف، وزارة الثقافة والإرشاد القومي المصريّة، (القاهرة، ١٩٦٠م)، ص ٦٣٨.

(٥) الرياصي، العلاقات بين بلاد المغرب ودولة كانم والبرنو، ص ٣٦.

ب. نظام الحكم لمملكة الكانم:

كان نظام الحكم في مملكة الكانم نظاماً ملكياً، وكان الملك يحظى باحترام كبير من عامة الناس في مملكته؛ ولكنه كان يتعالى على ناسه؛ فكان يحتجب حتى لا يراه أحد إلا في يومي العيدين صباحاً وعصراً^(١)؛ وذلك ليعطي لنفسه قدرًا من القدسية والهيبة، وقد كان له ذلك؛ فكانت الرعية تقدسه، ويتوهمون أنه لا يأكل كسائر البشر، بل له خصوصية في مأكله ومشربه، وهو المتحكم في كل شؤون العباد^(٢).

لقد توسعت مملكة الكانم وامتد نفوذها إلى مساحات واسعة في المنطقة، وصار لها أقاليم عدّة ووحدات إدارية يتولى شؤونها أمراء يعينهم الملك، ويكونون تابعين مباشرة لهم^(٣).

ومن أهم أمراء الأقاليم (الغالادима Gladima) حاكم إقليم الغرب، و(المستريما Mistrema) حاكم إقليم الشرق، و(اليريما Yareima) حاكم إقليم الشمال، فضلاً عن (كيجاما Keghamma) الذي يجمع بين قيادة الجيش وحكم إقليم الجنوب^(٤). وكان للمرأة أثر كبير في الحياة السياسية في مملكة الكانم؛ فكانت الملكة الأم تعرف ب(الماجيرا Magera)^(٥)، تتدخل في تعيين الحاكم وعزله؛ ولذلك عرف المجتمع الكانمي بالمجتمع الأمومي؛ لأنه ينقاد إلى المرأة ويحترمها غاية الاحترام والثناء^(٦).

(١) العمري، مسالك الأبصار، ٢٩٥/٤؛ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص ٤٥٤؛ الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧١/٥؛ المقرئزي، الخطط، ١٩٣/٢.

(٢) ياقوت، معجم البلدان، ١٤٢/٣.

(٣) لانجي، ممالك تشاد وشعوبها، ٢٥٦/٤.

(٤) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م، ص ١٥٥.

(٥) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص ١٥٧.

(٦) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص ١٥٧.

أمّا من الناحية العسكرية فكان للمملكة جيش قوي عرف بقوة البأس، وكان سلاح ذلك الجيش يصنع من دبابيس الأبنوس المتوافرة^(١)، وكان المقاتلون يستعملون البقر في القتال؛ وذلك لأنّ الخيل والإبل لا تعيش عندهم؛ لوجود البعوض الذي يؤذيها ويقتلها^(٢)؛ فكانوا يضعون السروج على الأبقار وتجري بهم مثل الخيل^(٣).

أمّا عن القضاء في المملكة فكان يتم على وفق الشريعة الإسلامية؛ إذ كانت أحكام القضاء مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة^(٤)؛ ممّا جعل العدل ينتشر في كلّ أرجاء المملكة، وكانوا على مذهب الإمام مالك^(٥).

وعلى الرغم من التطور السياسي والإداري الذي شهدته المملكة إلا أنّ بعض المؤرخين والجغرافيين أعرضوا عن ذكر ممالك السودان الأوسط والغربي؛ لأنّهم كانوا يعدّون تلك الممالك بعيدة عن أي تنظيم أو تطور حقيقي في أي مجال، وهي ممالك أقل من أن تذكر^(٦).

ت. علاقة بلاد الكانم بالعرب المسلمين:

يمكن القول: إنّ التنظيم السياسي الذي تمتعت به مملكة الكانم على وجه الخصوص قد أثمر؛ إذ أصبحت هذه المملكة من أهم الممالك الإسلامية التي قامت في بلاد السودان الوسطى؛ إذ امتد نفوذها للسيطرة على بلاد حوض بحيرة تشاد، وقد سمح لها وضعها ذلك في أنّ تقيم صلات قوية مع بلدان العالم الإسلامي بشطريه الشرقي والغربي، ولعله من الملزم توضيح علاقات الكانم وصلاتها بما حولها من الدول،

(١) ابن سعيد، بسط الأرض، ص ٢٥.

(٢) ابن سعيد، الجغرافيا، ص ٩٧.

(٣) النويري، نهاية الأرب، ٥/٢٨٨.

(٤) الدكو، الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية الكانم، ص ٢١٣.

(٥) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٥/٢٧١.

(٦) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٤؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ١٥١؛ الحسن الوزان، وصف

وتمثلت هذه العلاقات في نشاطات متنوعة، ومنها علاقاتها بمصر؛ إذ لا بُدَّ من العودة إلى ما اصطلح عليه المسلمون من أنَّه لا سيادة من دون تفويض من خليفة المسلمين؛ فكان الخلفاء العباسيين في مصر يصيغون الشرعية على حكم ملوك السود والمسلمين في السودان، مثلما كانوا يفعلون بالنسبة للسلطين في مصر والحكام المسلمين في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وكان السود يجدون في ذلك التقليد الشرعي نوعًا من التبرك، والشعور بالفخر والاعتزاز، فضلًا عمَّا يضيفه عليهم من سمات الهيبة والإجلال بين رعاياهم؛ ومن هنا فقد اكتسب هؤلاء ألقابًا تعبر عن ذلك كسيف الخلافة، وظهر الإمامة، وعضد الدولة، وأمير المؤمنين، وغير ذلك^(١)، ولكن بعد سقوط الخلافة العباسية على يد المغول (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) حاول هؤلاء إضفاء ذلك التقليد الشرعي على سلطتهم من لدن خليفة مصر، الذي انتقلت إليه الخلافة بعد هذا التاريخ؛ إذ هيا الظاهر ببيرس الخلافة العباسية وأصبح حاميًا للإسلام^(٢)؛ وهكذا أصبح يفد إلى مصر في عصر السلطين المماليك رسل الحكام والملوك من مختلف أنحاء العالم الإسلامي يحملون الأموال والهدايا، ويطلبون التقليد من الخليفة^(٣).

أمَّا عن مشاركة الكانميين في الجيوش فهو تحصيل حاصل؛ إذ إنَّ احتياج الفاطميين إلى قوة كبيرة ليوطدوا أركان دولتهم كان يستدعي إنشاء قوة عسكرية ضمت أجناسًا عديدة من المغاربة، والترك، والأكراد، والبربر، والسودانيين، وغيرهم^(٤). ومن المؤكد أنَّ الكانميين قد انضم أعداد منهم إلى ذلك الجيش، أو تلك القوة، ولاسيما أنَّ الصلات كانت مستمرة بينهم، وأنَّ الأدلة في هذا المجال كثيرة، وميادينها

(١) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٥٩/٦، ٧/٨؛ العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٢٩.

(٢) عاشور، سعيد عبدالفتاح، الظاهر ببيرس، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، (القاهرة، ١٩٦٢م)، ص ٦.

(٣) ابن عبدالظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص ٣٥.

(٤) ابن عبدالظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص ٣٥.

متنوعة في علاقات مصر بالكانم؛ ففي مراسلات ديوان الإنشاء^(١) بمصر نجد ما يؤكد سلامة الاحترام المتبادل والتعاطف بينهم؛ فالدعوات فيها تنهال على ملك الكانم والبرنو، ومباركة خطواته، وترجو له الفوز والنصر على أعدائه الكفرة المجاورين، زيادة على وصفه بالعالم المجاهد، الذي أعزَّ الإسلام ونصره^(٢)، ويمكننا الحكم باستمرار العلاقة ومثانتها حتى ظهور الوثيقة التي أوردتها القلقشندي (ت ٨٢١)^(٣)، وفيما بعد التي تدلّ على توتر العلاقة وتجميدها، وهذا ما ظهر بعدم الردّ أو إهماله مُدّة عامين على رسالة ماي الكانم، ثمّ جاء الردّ بعد ذلك على ظهر الرسالة نفسها^(٤).

ومن علاقات الكانميين بغيرهم علاقتهم بالدولة الحفصية^(٥) في تونس منذ نشأتها^(٦)، وكان ماي الكانم قد أرسل في سنة (٦٥٧هـ/١٢٥٩م) وكالة ومعها هدايا إلى المستنصر مؤسس الدولة الحفصية ضمت زرافة أثارت الحيرة، والتعجب، والاستغراب، وابتهج بها العامة، وامتلأت الساحات بجمهرة النّاس الذين سعدوا لرؤيتها، وكانت بالنسبة لهم حيوان جديد عليهم آثار فضولهم^(٧)، وكانت الهدية الأولى استهلالاً موفقاً، وفألاً عظيماً لمستقبل العلاقات؛ فقويت أوامر الصداقة وامتد الود، وساد

(١) ديوان الإنشاء: هو من الوحدات الإدارية الرئيسية، وصاحبها يقوم بإعداد المكاتبات الرسمية وصياغتها التي تصدر عن السلطان، كالرسائل، والمراسيم، والتعيينات، والوصايا، والأوامر الإدارية، وتحريّر المكاتبات الرسمية للدول الأجنبية. ينظر: المقرئزي، الخطط، ٢/٢٢٦.

(٢) العمري، التعريف بالمصطلح الشّريف، ص ٢٩.

(٣) صبح الأعشى، ١١٦/٨، ١١٧، ١١٨.

(٤) صبح الأعشى، ١١٦/٨، ١١٧، ١١٨.

(٥) الدولة الحفصية (٦٢٥-٩٥٠هـ/١٢٢٨-١٥٣٤م): قامت هذه الدولة في إفريقيا إحدى أقاليم الدولة الموحدية؛ نسبة إلى الأسرة التي أنشأتها وحكمتها، وهم: بني حفص أبناء الشّيخ أبي محمّد بن عبدالواحد بن أبي حفص بن عمر بن يحيى. محمّد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، (القاهرة، ١٩٩٠م)، ٤/٣٨٠.

(٦) ابن خلدون، تاريخ، ٦/٤١٢.

(٧) بصيلي، تاريخ وحضارات السودان، ص ٤١٨.

التفاهم، وحسنت النيات، وأخذ التاريخ مجراه؛ ممّا ساعد دولة الكانم على الاحتفاظ بنفوذها على فزان^(١)، وأدى التعاون بينهما إلى سيادة الأمن في منطقة شمال إفريقيا والسودان؛ ممّا انعكس أثره في ازدهار التجارة، وجلب مزيداً من الرخاء والرفاهية على البلاد بأكملها^(٢)؛ حتى إنّ من قوة الصلات بين الطرفين أنّ سلطان الكانم كانت تصله الثياب الفاخرة من الحضرة التونسية^(٣).

ث. نظام الحكم لسلطنة البرنو:

وردت إشارات إلى أنّ إقليم البرنو قد تمتع بسلطة مستقلة عن سلطة مملكة الكانم في بداية نشأتها، ثمّ خضعت لسلطتها، وجاءت أول هذه الإشارات عند ابن سعيد المغربي (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، الذي ذكر: "مدينة جاجا - كاكاه وهي كرسي مملكة برنو، ولها مدن وبلاد وهي الآن لسلطان الكانم"^(٤)، واستمر حكم الأسرة السيفية لإقليم البرنو في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، وقد أشار إلى ذلك ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ)، عندما ذكر أنّ ملك البرنو هو إدريس، ويقصد الماي إدريس بن إبراهيم (٧٥٤-٧٧٨هـ/٣٥٣-٣٧٦م)^(٥)؛ ممّا يدلّ على استقلالية البرنو ما كان يدور من حديث، ورسائل، ومخاطبات لملوك السودان، فقد أشار العمري (ت ٧٤٩هـ) إلى المخاطبات لملوك السودان من أنّها انحسرت في ثلاثة ملوك، وهم ملك التكرور، وصاحب البرنو، وصاحب الكانم، وكان ذلك في منتصف القرن الثامن الهجري/الرابع

(١) فزان: بلدة واسعة ومدينة عظيمة، وتسمى برقة طرابلس قديماً، افتتحها عمرو بن العاص سنة (٢٣هـ) صلحاً، ومن آخر أعمال فزان موضع يُقال له تورغة يبعد عن طرابلس ست مراحل. ينظر:

اليقوي، البلدان، ص ١٨٤؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤٤٠.

(٢) حسن، إبراهيم حسن، انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى شرقي القارة الإفريقية، وغربها، معهد الدراسات العربية العالمية، (القاهرة، ١٩٥٧)، ص ٨٩.

(٣) ابن سعيد، الجغرافيا، ص ٩٤.

(٤) ابن سعيد، الجغرافيا، ص ٩٤.

(٥) رحلة ابن بطوطة، ٢/٢٠٥.

عشر الميلادي^(١)، وأكد ذلك القلقشندي (ت ٨٢١هـ) أنه في بداية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي كانت تجري المخاطبات نفسها^(٢).

وبناءً على ما سبق يتضح أنّ سلطنة البرنو أنشأت في بدايتها كيان سياسي مستقل، وعندما اشتدت قوة مملكة الكانم فرضت سلطانها عليها، إلا أنّهُ في نهاية القرن الثامن الهجريّ تغير التوازن السياسي لمصلحة البرنو، وقد خضع إقليم البرنو في نهاية الأمر لحكم الأسرة نفسها التي كانت لها السلطة في إقليم الكانم وهي الأسرة السيفية.

ج. علاقة البرنو بالماليك:

كانت صلة سلطنة البرنو مع مصر صلة قديمة، توثقت بمجيء الإسلام، ثمّ توطدت وقويت في أثناء القرنين التاسع والعاشر الهجريين، وعملت السلطة على ترسيخ اتصالها بمصر عن طريق مظاهر عدّة، منها: الرسائل الدبلوماسية المتبادلة بين الطرفين، ووجود عبارات الاستلطاف والتقرب؛ ففي المكاتبات والمراسلات التي كانت توجه إلى سلطان البرنو كانت تفتتح بعبارات التمجيد بالإسلام، وإلى قوة الرابطة بين حُكام البلدين، مثل: "أدام الله الجناب الكريم، العالي، الملك، الجليل، الكبير، العالم، العادل، الغازي، المجاهد، الهمام، الأوحد، المظفر، المنصور، عز الإسلام"^(٣).

ويصف القلقشندي (ت ٨٢١هـ) المراسلات الواردة من صاحب البرنو وطريقة الكتابة فيقول: "إنّها تكتب في ورق مربع بخط المغاربة، وتفتح المكاتبة بخطبة مفتوحة بحمد الله، ومن أشهر المراسلات الرسالة المرسلّة بين الطرفين رسالة الماي - الملك - عثمان بن إدريس (٧٩٥-٨٤٩هـ)، التي بعثها إلى السلطان المملوكي الناصر أبو سعيد برقوق (٧٨٤-٨٩٩هـ)، تلك الرسالة التي اشتكى فيها الماي عثمان من تجار الرقيق من العرب الذين غزوا البلاد، وخطفوا الرجال والنساء لبيعهم في مصر والشام^(٤)، ويظهر واضحاً عن طريق هذه الرسالة قوة العلاقة بين الطرفين، وتشير إلى المكانة

(١) التعريف بالمصطلح الشّريف، ص ٤٤، ٤٦، ٤٧.

(٢) صبح الأعشى، ٩/٨.

(٣) العمري، التعريف بالمصطلح الشّريف، ص ٤٦.

(٤) صبح الأعشى، ١١٦/٨.

السامية لمصر في علاقاتها مع كيانات السودان الأوسط والغربي الذين كانوا ينظرون إليها نظرة خاصة عبّر عنها السلطان عثمان في رسالته: "بأنّها أرض الله المباركة أم الدُّنيا"^(١).

وَمِمَّا يَشِيرُ إِلَى قُوَّةِ الصَّلَةِ بَيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ تَأْسِيسَ مَدْرَسَةِ ابْنِ رَشِيقٍ فِي مِصْرَ سَنَةِ (١٢٤٢هـ/١٨٤٢م)، الَّتِي خَصَّصَتْ لِتَعْلِيمِ الدَّارِسِينَ الوَافِدِينَ إِلَى مِصْرَ مِنَ الْكَانِمِ وَالْبِرْنُو، وَتَدْرِيسِهِمْ، وَتَلْقِيهِمُ الْمَذْهَبَ الْمَالِكِي، وَأَوْقَفَتْ لِذَلِكَ أَمْوَالًا طَائِلَةً^(٢)، وَيُضِيفُ الْمُقْرِيزِي (ت ٨٤٥هـ) فِي وَصْفِ تِلْكَ الْمَدْرَسَةِ: "هِيَ بَخْطِ حَمَامِ الْعَرِيشِ مِنْ مَدِينَةِ مِصْرَ كَانَ الْكَانِمُ مِنْ طَوَائِفِ التَّكْرُورِ، لَمَّا وَصَلُوا إِلَى مِصْرَ سَنَةَ سِتْمِائَةَ وَأَرْبَعِينَ قَاصِدِينَ الْحَجَّ دَفَعُوا لِلْقَاضِي عِلْمِ الدِّينِ بِنِ رَشِيقٍ مَالًا بَنَاهَا بِهِ، وَدَرَسَ بِهَا، فَعَرَفَتْ بِهِ، وَصَارَ لَهَا فِي بِلَادِ التَّكْرُورِ سَمْعَةٌ عَظِيمَةٌ، وَكَانُوا يَبْعَثُونَ إِلَيْهَا فِي غَالِبِ السَّنِينَ الْمَالِ"^(٣).

وَكَانَ سُلَاطِينُ الْبِرْنُو يَشْجَعُونَ الطُّلَّابَ عَلَى الرَّحِيلِ إِلَى مِصْرَ؛ لِمُغْرَضِ تَلْقَى الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَالْعَوْدَةِ إِلَى الْوَطَنِ؛ لِنَشْرِ هَذَا الدِّينِ، وَكَانَ أَكْثَرُ السُّلَاطِينِ يَصْطَحِبُونَ فِي رِحْلَتِهِمْ لِلْحَجِّ الْكَثِيرَ مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ؛ فَشَجَعُوا الْعُلَمَاءَ، وَاسْتَقْدَمُوا الْعَدِيدَ مِنْهُمْ إِلَى بِلَادِهِمْ، وَلَا سِيَّمَا أُولَئِكَ الَّذِينَ دَرَسُوا فِي مِصْرَ، وَتَلَقَوْا تَعْلِيمَهُمْ فِي الْأَزْهَرِ الشَّرِيفِ^(٤).

(١) صبح الأعشى، ١١٧/٨.

(٢) المقرئزي، الخطط، ٣٦٥/٢؛ وينظر: الملحق (٤).

(٣) الخطط، ٣٦٥/٢.

(٤) ركو، الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية كانم، ص ٢٤١.

رابعاً: المظاهر السياسية لبلاد مالي:

أ. نظام الحكم:

كانَ نظامَ الحكم في مالي ملكي وراثي في الغالب، وأنَّ تولي عرش المملكة لم يكن ليقترصر على أبناء الملك، وقد يكون لإخوة الملك نصيب في العرش، ومن المؤلف عندهم أنَّ يولي الملك أبناء الأخت، وقد أورد ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ) ^(١) أنَّه رأى في مدينة أيواالتن التابعة لمملكة مالي الإسلامية أنَّ الرجل لا يرثه إلاَّ أبناء أخته من دون بنيه؛ إذ يقول: "وذلك شيء ما رايته في الدُّنيا إلاَّ عند كفار بلاد المليبار ^(٢) من الهنود، وكذلك مدينة تكده التي زارها في أثناء رحلته لمالي شهد سلطانها وهو بربري الأصل اسمه آزار يركب فرساً ومعه أبناء أخته وهم الذين يرثون ملكه" ^(٣)، ويتمتع ملوكها بمنزلة رفيعة في أعين الرعايا تكاد تقترب من درجة التقديس والعبودية ^(٤)، ويطلق على حاكم الولاية في دولة مالي أكثر من لقب؛ فهناك لقب كي ^(٥) الذي يُعدُّ أعلى لقب حُكام الولايات في مالي، وكان يطلق على منسا نفسه فيقال "كي مل" ^(٦).

وعلى الرغم من قلة المعلومات في المصادر التاريخية عن قيام مملكة مالي، إلاَّ أنَّه ذكر أنَّ أوَّل من أسلم من ملوك مالي شخص يدعى برمندانة، الذي قام بأداء فريضة الحج، واتبعه الملوك الذين جاءوا من بعده ^(٧)، ثمَّ جاء بعده ملك اسمه (ماري جاظة) ومعنى ماري الأمير الذي يكون من نسل السلطان، ومعنى جاظة الأسد فيكون

(١) رحلة ابن بطوطة، ص ٦٧٧.

(٢) رحلة ابن بطوطة، ص ٦٩٨، وبلاد المليبار: إقليم كبير وسط الهند، يشتهر بوجود شجر الفلفل، الذي يجلب إلى جميع الدُّنيا. ياقوت، معجم البلدان: ١٩٦/٥.

(٣) رحلة ابن بطوطة، ص ٦٩٨.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣٠٠/٥.

(٥) كي: بمعنى حاكم، ويلقب به سلطان مالي نفسه. طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص ١٨٨.

(٦) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص ٦٨٥.

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٢/٥؛ وابن خلدون، تاريخ، ٢٠٠/٦.

الأمير الأسد^(١) (٦٥٠-٦٧٤هـ/١٢٣٠-١٢٥٥م)، وهو المؤسس الحقيقي للمملكة^(٢)، ولاسيما بعد أن جمع القبائل ووحدها، واستطاع هزيمة الصوصو العدو اللدود للمملكة، وانتزع ما كان بأيديهم من ملكهم القديم، وملك غانة الذي يليه إلى بحر المحيط^(٣).

ثم تولى بعد ماري جازة عدد من الملوك وهم: منسا ولي، وهو ابن ماري جازة، معنى: منسا بلغتهم السلطان، ومعنى ولي (علي)، وكان من أعظم ملوكهم حج أيام السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨هـ/٦٧٦هـ)^(٤)، ثم ملك من بعده أخوه (والي)، ثم تولى من بعده أخوه (خليفة)، وكان أحق يغلب عليه الحمق؛ فيرمي الناس بالسهام فيقتلهم؛ فوثب به أهل المملكة وقتلوه^(٥).

وملك بعد (خليفة) سبط من أسباط (ماري جازة)، واسمه أبو بكر، وتولى الملك على قاعدة تمليك البنات وابن البنات^(٦)، ثم تولى على الملك مولى من مواليتهم واسمه (ساكبورة)، ويقال (سيكرة)، وقد اتسع نطاق المملكة في عهده، وفرض سلطته على البلاد المجاورة؛ إذ فتح بلاد كوكو وأضافها إلى مملكته، ووصل ملكه من بحر المحيط الغربي إلى بلاد التكرور؛ فقوي سلطانه وهابته كل أمم السودان، ورحل إليه التجار من بلاد الغرب وإفريقية، حج ساكبورة أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وعند عودته من الحج قتل في الطريق^(٧).

(١) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٢/٥؛ المقرئزي، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق: جمال الدين الشيال، المكتبة الثقافية الدينية، (القاهرة، ٢٠٠٠م)، ص ١٤١، وينظر: الملحق (٥).

(٢) ابن خلدون، تاريخ، ٢٠٠/٦.

(٣) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٢/٥.

(٤) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٢/٥.

(٥) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٢/٥؛ المقرئزي، الذهب المسبوك، ص ١٤٠.

(٦) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٢/٥.

(٧) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٢/٥؛ المقرئزي، الذهب المسبوك، ص ١٤١.

ثمَّ ملك من بعد ساكبورة مُحَمَّد بن بقو، وهو أحد أولاد ماري جازطة، ومن بعد هذا الملك انتقل حكم بلاد مالي إلى أبناء ابن أخيه أبي بكر^(١).
ومن ثمَّ ابنه منسا موسى (٧١٢-٧٣٨هـ/١٣١٢-١٣٣٧م)^(٢)، كان رجلاً صالحاً، وملكاً عظيماً، وعظمت المملكة في أيامه وافتتح الكثير من البلاد^(٣)؛ فقد شهدت مالي في عهده أفضل مراحل ازدهارها، وتقدمها، وقوتها؛ إذ عملت على تكوين جيش قوي، تميز بحسن التدريب، والعدة، والعتاد^(٤)، ودعم منسا موسى العلاقات والصلات مع الدول الإسلامية في الشمال، ولاسيماً المغرب ومصر؛ على أساس حسن الجوار، والاحترام، والتقدير المتبادل، وكانت رحلته للحج لأداء الفريضة تصب في ذلك الاتجاه؛ إذ عدَّ موكبه للحج من أروع مشاهد الحج التي مرَّت على مصر في القرن الثامن الهجري^(٥)؛ إذ استقبله المهمندار بتكليف من السلطان؛ فأكرمه إكراماً عظيماً، وقال المهمندار^(٦): "... عاملني بأجمل الآداب؛ ولكنه كان لا يحدثني إلا بترجمان مع إجادته اللسان العربيّ وقال: لما قدم للخزانة السلطانية حملاً من التبر ولم يترك أميراً ولا ربّ وظيفة سلطانية إلا وبعث إليه بالذهب، وكنت أحاوله في طلوع القلعة للاجتماع بالسلطان حسب الأوامر السلطانية، فأبى؛ خشية تقبيل الأرض للسلطان، ويقول: جئت للحج لا غير، ولم أزل به حتّى وافق على ذلك، فلما صار إلى الحضرة السلطانية قيل له: قبل الأرض، فتوقف وأبى إباءً ظاهراً، وقال: كيف يجوز هذا!، فأسر إليه رجل كان إلى جانبه كلاماً فقال: أنا أسجد لله الذي خلقني وفطرني، ثمَّ سجد، وتقدم إلى السلطان فقام له بعض القيام وأجلسه إلى جانبه وتحدثنا طويلاً، ثمَّ قام السلطان موسى فبعث إليه

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٣/٥.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٣/٥.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٣/٥.

(٤) طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص ٧٦.

(٥) محمود كعت، تاريخ القتاش، ص ٣٦.

(٦) المهمندار: هو الذي يستقبل الرسل والوافدين، ويسهر على راحتهم، والكلمة فارسية الأصل أصلها

(مهمن) بمعنى: الضيف أو المسافر، و(دار) مخففة من (داردنه) بمعنى: صاحب. دهمان، محمد

أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، (دمشق، ١٩٩٠م)، ص ١٤٧.

السلطان بالخلع الكاملة له ولأصحابه خيلاً مسرحية ملجمة... ولما آن أوان الحج بعث إليه السلطان بمبلغ كبير من الدراهم وهجن - الخيل التي ولدن من حصان عربي - جليلة كاملة الأكوار والعدة لمركبه"^(١)، وبقي ملكه عليهم خمسة وعشرون عامًا حتى مات^(٢).

ثمّ ملك بعد منسا موسى عدد من الملوك، منهم: (منسا مغارمغاشتي مُحَمَّد) بقي في الحكم أربع سنين ثمّ مات^(٣).

ملك بعده أخوه (منسا سليمان) بن أبي بكر، واجتمع له ما كان أخوه افتتحه من بلاد السودان، وبنى الكثير من المساجد، والجوامع، والمنارات، وجلب إلى البلاد الفقهاء من مذهب الإمام مالك، ودام ملكه أربع وعشرون سنة ثمّ مات^(٤)، وبعد وفاة منسا سليمان سليمان بدأت حالة من الضعف والتدهور تتتاب المملكة، وقد أسهم في ذلك التدهور والضعف عدّة عوامل وأسباب، منها: تولي ملوك ضعفاء، فضلاً عن انتشار الفوضى، وكثرة الفتن الداخلية والمؤامرات بين الأسرة المالكة، والإسراف والبذخ من لدن بعض الملوك، أمثال: ماري جازة الثاني (٧٦١-٧٧٦هـ/١٣٦٠-١٣٧٤م)، الذي أنهك اقتصاد المملكة وخزائنها^(٥)، حتى انتهى به الحال في الإسراف والتبذير إلى بيع حجر ذهب زنته عشرون قنطار^(٦)، وهو من أنفس الذخائر لديهم إلى تجار مصر الذين كانوا يترددون عليه بأبخس الأثمان، وصرف كلّ تلك الأموال على ملذاته الخاصة^(٧)، ثمّ توفي على إثر مرض أصابه مدّة سنتين^(٨).

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٤/٥؛ المقرئزي، الذهب المسبوك، ص ١٤٢.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٥/٥.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٥/٥.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٥/٥.

(٥) ابن خلدون، تاريخ، ٢٠٢/١.

(٦) القنطار: اسم لمعايير يوزن، كما هو الرطل والرّبع، ويقال: لما بلغ ذلك الوزن: هذا قنطار، وقيل:

القنطار هو القعدة الكبيرة من المال. ينظر: مُحَمَّد، المكايل والموازين الشرعية، ص ٢٤.

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٥/٥.

(٨) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٥/٥.

ب. مراسيم القصر السلطاني:

يُعَدُّ بلاط السلطة الأكثر أهمية في مالي؛ لما كان يتمتع به من مراسيم دقيقة؛ فقد كان الملك مصدر السلطة، ويتمتع بتعظيم كبير يقترب من القدسية من لدن الرعية، والقادة، والأمراء؛ بصفته أبًا للجميع^(١)، ويتضح ذلك من مخاطبتهم له بقولهم له: (مغا منا)، التي تعني (أبي الملك)، ويذكر أنَّ السودان أعظم النَّاس تواضعًا لملوكهم، وأشدَّهم تذللًا له، ويحلفون باسمه^(٢)، وكانت هناك مراسيم عِدَّة يجب فعلها من لدن الأمراء، والقادة، وكبار الموظفين، والرعية عند حضورهم مجالس الملك، أو مخاطبته، أو شكره^(٣).

ووصف قصر السلطان وطبقاته بأنَّها مغشاة بصفائح الذهب والفضة، أو بصفائح الفضة المذهبة على الأصح، وذكر أنَّه إذا جلس بالقبة رفعت الستور، وأُخرج من شباك إحدى الطاقات شرابية حرير ربط فيها منديل مصري مرقوم، فإذا رأى النَّاس المنديل ضربت الطبول، ونفخت الأبواق المصنوعة من أنياب الفيلة، ثمَّ يخرج من باب القصر نحو ثلاثمائة من العبيد يحمل بعضهم القسي^(٤)، وبعضهم يحمل الرماح، والدروع، ويقفون على ميمنة السلطان وميسرته، ثمَّ يؤدي بفرسين مسرجين وملجمين ومعهما كبشان يُقال إنَّهما تتضح من العين^(٥).

أمَّا جلوس الملك أو السلطان في قصره فإنَّه يجلس فوق مصطبة كبيرة على دكة كبيرة من أبنوس^(٦)، كالنحت على قدر المجلس العظيم المتسع عليها أنياب فيلة في

(١) ابن بطوطة، رحلته، ص ٦٨١.

(٢) ابن بطوطة، رحلته، ص ٦٨١.

(٣) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٨/٥؛ العمري، مسالك الألبصار، ٦٦/٤.

(٤) ابن بطوطة، رحلته، ص ٦٨٣.

(٥) ابن بطوطة، رحلته، ص ٦٨٣؛ والقسي: اسم من أسماء السيوف. ابن منظور، لسان العرب،

١٧٥/٦.

(٦) أبنوس: شجر يصنع منه السهام وهو من شجر الجبال. ابن منظور، لسان العرب، ٢٠٠/٣.

جميع جوانبها الناب إلى الناب، وعنده سلاح له من ذهب كُله سيف وفرراق^(١)، وقوس وتركاش^(٢)، ويقف خلفه نحو ثلاثين مملوكًا من الترك وغيرهم ممن تباع له من مصر، ويبد واحد منهم جتر من حرير عليه قبة وطائر من ذهب صفة يازي^(٣)، يحمل على يساره^(٤)، وأمرأوه جلوس حوله يمينًا وشمالًا، ثمّ دونهم أعيان من فرسان عسكره جلوس، وبين يديه شخص يغني له، وآخر سفير بينه وبين الناس يسمى الشاعر، وتنتهي إليه الشكاوى والمظالم، فيفصلها بنفسه، ولا يكتب شيئًا في الغالب، بل يأمر بالقول بلسانه وأمامه فرسان مشددان محصلان لركوبه متى أحب، ومن التقاليد السلطانية أنه لا يسمح لأحد بالعطاس، وإذا جاءت أحد الحاضرين العطسة انبطح أرضًا؛ حتى لا يعلم به، ولا يسمع، ومن لا يفعل ذلك يضرب ضربًا مؤلمًا، وأمّا الملك إذا عطس ضرب جميع الحاضرين بأيديهم على صدورهم رُيمًا لأحداث ضجة وصوت؛ كي لا يسمع عطاسه^(٥)، عطاسه^(٥)، كذلك لا يدخل دار السلطان منتعلًا كائنًا من كان، ومن لم يخلع نعليه قتل بلا عفو عامدًا كان أو ساهيًا^(٦).

ويبدو لنا من هذا التشدد مدى التسلط الذي كان يفرضه السلطان على رقاب الناس وانصياعهم، وانقيادهم الأعمى له، وبالتأكيد أنّ تلك التقاليد السلطانية بعيدة عن

(١) فرراق: رمح قصير. عبدالمنعم، محمود عبدالرحمن، معجم المصطلحات الفقهية، دار الفضيّلة، (القاهرة، ١٩٩٩م)، ٢٦٧/٣.

(٢) تركاش: الجعب التي يوضع فيها النشاب. غرس الدّين خليل بن شاهين الظاهر (ت ٨٧٣هـ)، الإشارات في علم العبارات، دار الفكر، (بيروت، د.ت)، ص ٧٨٤.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٨/٥، والجتر: تعني مظلة، وهي قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب تحمل على رأس السلطان في العيدين. القلقشندي، صبح الأعشى، ٧/٤-٨، واليازي: جنس من القصور الصغيرة. الدالي، عبدالهادي، مبروك المعجم الوجيز، (مصر، ١٩٩٢م)، ص ٤٩.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٨/٥.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٨/٥.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٨/٥.

روح الإسلام، وهي ناجمة عن السلطة المفرطة التي كان يتمتع بها حُكام مالي وملوكها، ولكن ذلك لم يكن ليمنع بعض العادات والتقاليد التي انتقلت إلى مالي نتيجة للاتصال الثقافي والتجاري بالعالم الإسلامي، ومن هذه التقاليد ما يتعلق بأمور السلطنة من شعار، ومواكب، وجلوس، ووسائل تسلية؛ فشعار سلطان مالي أعلام وألوية كبار جدًا رتكه^(١) أصغر في أرض صحراء^(٢).

أمّا هيئة ركوب سلطان مالي فقد جرت العادة أن يحمل على رأسه الجتر^(٣)، وينشر على رأسه علم، وتضرب أمامه الطنابير^(٤)، والطبول، والبوقات بقرون لهم فيها صناعة محكمة^(٥)، وأنّ أزياء الملك وملابسه كانت حكرًا عليه فقط، ولا يجوز لأحد لبس لبس مثلها^(٦)، ومن عادات الملوك أنّه يأكل منفردًا وحده^(٧).

ومن هنا وبعد هذا الاستعراض لوضع السلطان وما يتمتع به من مراسيم فهي إن دلت على شيء فإنّما تدلّ على الثراء والرفاهية التي كان يعيش فيها سلاطين مالي، وبما كانوا يتمتعون به من قوّة، ونفوذ، وسلطان.

(١) أعلام: هي عدّة رايات عظيمة من حديد أصغر مطرز بالذهب عليها ألقاب السلطان واسمه، وتسمى العاصبة راية عظيمة فيها خصلة شعر تسمى جاليش. والقلقشندي، صبح الأعشى، ٥/٤، أمّا رتكه فهي لفظ فارسي، وتعني اللون، واستعمل كشعار أو رمز الذي يتخذه الأمير أو السلطان. طرخان، إبراهيم، مصر في عصر دولة المماليك، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة، ١٩٥٩م)، ص ٣٢٤.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٥/٢٨٩؛ طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص ١٥٨.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٤/٤-٨.

(٤) الطنابير: مفردتها: طنبور، وهي آلة من آلات اللعب، واللهو، والطرب، ذات غنق وأوتار. الدالي، المعجم الوجيز، ص ٣٩٥.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ٥/٢٨٨؛ العمري، المسالك والممالك، ٤/٦٦.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ٥/٢٨٨.

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ٥/٢٨٩.

ت. النظم الإدارية:

امتلكت مملكة مالي نظامًا إداريًا متنوعًا على درجة جيدة من التنظيم؛ فالملك له وزراء وحكام للأقاليم والمدن يساعده في إدارة البلاد، وقضاة يعملون على نشر العدل، وفض المنازعات بين الرعية، وكُتّاب، ومستشارون، وأصحاب دواوين، وغيرها من التنظيمات الإدارية، وقد عدّت وزارة الغابات من أهم الوزارات؛ لما تمثله بصفتها مصدرًا للطاقة والصناعة، ولاسيما صناعة السفن والقوارب، وبعض الأسلحة، وتربية الماشية، واحتياجات الناس الأساسية، ويطلق على ملك الغابات (التوتيجي)، وهو المسؤول عن إدارة الغابات وتنظيم شؤونها من إيرادات ومصروفات، ومن يتولى ذلك المنصب يجب أن يكون على دراية بأمور الحسابات والنظم المالية الإسلامية^(١).

أمّا التقسيم الإداري للمملكة فهي مقسمة على خمسة أقاليم^(٢)، ومدن، وقرى، وعلى رأس كل إقليم نائب للملك يطلق عليه (كي)^(٣)، وهو المسؤول عن الأقاليم، وله سلطات وصلاحيات واسعة، ومعه إدارة تعمل تحت سيادته لتسيير شؤون الأقاليم، ويطلق عليها اسم (الديامانا)^(٤)، وأمّا المدن والمراكز الكبرى التي تحمل اسم الكافو^(٥)، فيكون على رأس كل واحد منها رئيس يحمل لقب (فريا)^(٦).

وكانت هناك أقاليم وسلطنات سابقة تدار بإدارة محلية مستقلة، ويكون حكامها من أبناء ملوكها السابقين يؤدون الضرائب، ويعترفون بالولاء لمملكة مالي^(٧)، ويؤكد هذا

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٦/٥.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٢/٥.

(٣) العمري، مسالك الأبصار، ٦٠/٤؛ ابن خلدون، تاريخ، ٢٠٠/٦.

(٤) طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص ١٨٥.

(٥) الدالي، عبدالهادي مبروك، التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء، الدار المصرية، (القاهرة، ١٩٩٩م)، ص ٦٩.

(٦) ابن بطوطة، رحلته، ص ٢٧١.

(٧) ابن بطوطة، رحلته، ص ٢٧٤.

هذا العمري (ت ٧٤٩هـ) عند حديثه عن غانة: "أما غانة فإنَّه يملكها بعصر ملك مالي، وكأنَّه مالكها، ويتركها في قدرة عليها"^(١).

ويتضح ممَّا سبق أنَّ مملكة مالي كانت تمتلك تنظيماً إدارية سواء كان على مستوى الأقاليم، أو المدن، أو المراكز جيدة وحضارية استطاعت بها تسيير شؤون المملكة بأمان، واستقرار، وازدهار.

ث. النظام العسكري:

تمتلك مالي تنظيماً عسكرية جيدة، ويظهر هذا ممَّا ظهر على الجيش من تطور من ناحية التجهيزات، والمعدات، وأساليب القتال، وأعداده، وعناصره، وذلك طبقاً لما مرَّت به هذه المملكة من تطورات، ويعدّ ماري جازة (٦٢٨-٦٥٣هـ/١٢٣٠-١٢٥٥م) من الملوك الذين اعتنوا بالتنظيمات العسكرية، وإنشاء جيش قوي منظم، هزم به قبائل الصوصو، وأسس مملكة قوية بسطت نفوذها وسيطرتها على أغلب ممالك السودان الغربي وأقاليمه وقبائله^(٢)، وهذا يدلّ على أنَّ ملوك مالي أولوا عناية كبيرة بالجيش، وأمدوه بالأموال، والتجهيزات، والمعدات، وأكثروا العطاء، والهدايا، والهيئات لقادته^(٣).

أما عدّة الجيش المالي الذي انتشر في أرجاء المملكة جميعها فهو مائة ألف تقريباً^(٤)، وينقسم بصورة عامة على قسمين: شمالي، وعلى رأس قيادته يطلق عليه (فرن (فرن سراً)^(٥)، وآخر في الجنوب، وعلى رأسه قائد يطلق عليه (سنفر زومع) ، فضلاً عن وجود حاميات في بعض المدن الكبرى أو المراكز التجارية المهمة^(٦).

(١) التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٤٤.

(٢) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٧/٥؛ العمري، مسالك الأبصار، ٦٦/٤.

(٣) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٧/٥.

(٤) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٧/٥؛ شبيب، دولة مالي، ص ١٥.

(٥) السعيد، عبدالرحمن بن عمران بن عامر (ت ١٠٦٧هـ/١٦٥٦م)، ملوك السودان أهل سنغي وقصصهم وأخبارهم، وغزواتهم وذكر تنبكت ونشأتها ومن ملكها من الملوك، تحقيق: هوداس،

مطبعة أنجي، (باريس، ١٨٩٨م)، ص ١٠.

(٦) السعيد، ملوك السودان، ص ١٠.

وتدل خزانة الملك من الأسلحة التي شاهدها ابن بطوطة في رحلته على مدى التطور الذي حظي به الجيش، فعندما زار إحدى المناطق السودانية وجد عند حاكمها في بيته خزانة أسلحة فيها الكثير من الرماح، والقسي، والدروع، وهي جيدة الصنع^(١)، وللجيش نظام حسن في التدريب، والترقيات، وتتوع آلية الفرسان بحسب ما يبذلونه من شجاعة وفروسية قتالية في المعارك^(٢).

أمَّا الأسلحة فهي أسلحة تقليدية، تتكون من السيوف، والرماح، والقسي، والسهام المسمومة، والدبابس، والحراب، وقد تميز فرسان جيش مالي وجنوده بإجادتهم وإتقانهم استعمال تلك الأسلحة، وكانوا يصنعون أسلحتهم من الحديد والأشجار، ولاسيما أشجار الأبنوس^(٣)، ومن أسلحتهم المهمة الدروع، التي يمتاز بعضها بالجودة، والخفة، ولاسيما الدروع اللمطية المنوعة من حيوان يطلق عليه اللمط^(٤).

هذا عن الجيش، أمَّا عن الأسطول فقد كانت مملكة مالي تمتلك أسطولاً يضم أعداداً لا بأس بها من السفن والقوارب التي تختلف في حمولتها وأحجامها، وقد أورد لنا القلقشندي (ت ٨٢١هـ)^(٥) رواية منقولة عن منا موسى عن كيفية توليه الحكم، يستخلص يستخلص منها قوة أسطول المملكة، وازدهار صناعة السفن والقوارب التي وصل عددها إلى أكثر من ألفين ما بين سفينة وقارب، وهذه الرواية تدلّ على قوة الأسطول المائي الذي امتلك الخبرة، والمعدات، والتجهيزات، والقادة، والبحارة المتدربين.

(١) رحلة ابن بطوطة، ص ٢٨٦.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٧/٥؛ العمري، مسالك الأبيصار، ٦٥/٤.

(٣) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ٢٠/١.

(٤) الغرناطي، أبو حامد مُحَمَّد بن عبد الحميد الأندلسي (ت ٥٦٥هـ/١١٦٩م)، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، (القاهرة، ٢٠٠٣م)، ص ١٨. واللمط: حيوان مثل الثور الكبير له قرنان كالرمح تطول بطول بدنة ممدودة على ظهره ويتخذ من جلده دروع تسمى اللمطية نسبة إلى هذا الحيوان، وهي خفيفة لينة لا ينفذ منها النشاب ولا يؤثر فيها، وتكون بيضاء تستر الفارس وفرسه. الغرناطي، تحفة الألباب، ص ١٨.

(٥) صبح الأعشى، ٢٨٣/٥.

خامساً: مملكة الحبشة:**أ. نظام الحكم:**

الحبشة مملكة عظيمة، جليلة القدر، متسعة الأرجاء؛ ولكن أرضها صعبة المسالك؛ لكثرة جبالها؛ حتى إنَّ ملك الحبشة إذا أراد السير في المملكة خرجت فرق من العمال والجيش لإصلاح الطريق أمامه، والحبشة أحد عشر إقليمًا^(١)، وهي على قسمين، بلاد النصرانية وبلاد المسلمين^(٢)، ولكلِّ إقليم من تلك الأقاليم ملك، وأنَّ جميع هؤلاء الملوك تحت يدي الحطي^(٣) (السلطان - ملك الملوك).

يذكر السيوطي (ت ٩١١هـ)^(٤) أنَّ بلاد الحبشة ليست مملكة واحدة، بل هي عديد من الإمارات والأقاليم الصغيرة، على رأس كلِّ إمارة، أو إقليم ملك، أو أمير يحكمها نيابة عن ملك الملوك، الذي كان يسمى النجاشي، والذي له الكلمة العليا، وأنَّ هذا النجاشي أو الحطي هو ينتقل طوال الوقت من إقليم لآخر حتى يباشر سلطته على كلِّ أقاليم الحبشة؛ في محاولة لإشعار حكامه بنفوذه ووجوده الذي لا يغيب. أمَّا دار الملك أو الحكم التي يستقر بها ملك الحبشة فتسمى أمهرا^(٥)، يتوجه إليها إليها من ساحل البلاد حيث كثرة العسكر، وهو يحكم أكثر ملوك الحبشة^(٦).

(١) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٩/٥.

(٢) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٣١٠-٢٩١/٥.

(٣) المقرئزي، الإمام، ص ٧٧-٧٨.

(٤) رفع شأن الحبشان، ص ١٨-١٩.

(٥) أمهرا: وهو أوسع أقاليم الحبشة بداخل هذا الإقليم بلاد أمهرا التي كان يطلق عليها (بيتا أمهرا)، ويعدّ إقليم أمهرا المركز الحضاري الرئيس الذي انحدر منه كلُّ حكام الحبشة؛ إذ يضم أقوى الجماعات الحبشية منذ حكم الأكسوميين. السيوطي، رفع شأن الحبشان، ص ١٩.

(٦) الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: أولرخ هارمان، المعهد الألماني للآثار، (القاهرة،

لم يكن للحبشة ديوانًا للجند، فإذا خرج حطي الجيش للغزو أمر جنده بالخروج، وأمرهم أن يضع كل واحد منهم حجرًا في موضع معين، فإذا رجع من غزوته أخذ كل واحد منهم حجر فما فضل من الحجور يدلّ على عدد من قُتل من الجند^(١).

وبنفرد المقرئزي (ت ٨٤٥هـ) بذكر بعض ملوك الحبشة، ومنهم: إسحاق بن داود بن سيف بن أركد الذي تولى حكم المملكة بعد سنة (٨١٢هـ)، وكان له أثرًا في ترتيب المملكة أو قانونها؛ فرتب المملكة، وانضبطت عنده الأمور؛ إذ استعمل مجموعة من المماليك الجراكسة ممن كان زركاش، صناع أسلحة والمشرفين عليها بديار مصر، وعملوا له الزردخانات (مخازن الأسلحة)، وتشتمل على آلات السلاح من السيوف، والرماح، وغيرها، وقدم إليه شخص من مصر يُقال له (الطنبغا مفرق) ترقى وهو من الأمراء ولي بعض بلاد الصعيد، ثم فر إلى حطي الحبشة إسحاق بن داود بن سيف بن أركد-، وكان معروف عن هذا الرجل اللعب بآلات الحرب أنواع الفروسية؛ فقربه الحطي، ودرّب عسكره على رمي النشاب، واللعب بالرمح، والضرب بالسيوف، وقدم إلى الحطي رجلاً من أقباط مصر نصراني يعقوبي يعرف بفخر الدولة، رتب له المملكة، وجبى له الأموال، وكان له أثرًا في تأسيس ديوان المملكة، وكان أن ترتبت المملكة في عهد هذا الحطي وأصبح له زي خاص يتميز به عن رعيته؛ إذ بدأ يرتدي الملابس الفاخرة، ويخرج بموكب جليل يعصب رأسه بعصابة خضراء، وفي يده اليمنى صليب من ياقوت أحمر قد قبض عليه بكفه وهلك هذا الحطي سنة (٨٣٣هـ)^(٢).

وتولى على مملكة الحبشة عدد كبير من الحطي لم تصلنا تفاصيل أخبارهم، غير أن المشهور أن ملكهم كان يلقب بالنجاشي، وهو سمة لكل من ملك عليهم^(٣)،

(١) المقرئزي، الإلمام، ص ٧٩.

(٢) الإلمام، ص ٨٠-٨١.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣٠٨/٥.

وسمي الملك الأكبر الحاكم على أقاليم الحبشة جميعها (الخطي)، ومعناه السلطان وتحت يده تسع وتسعون ملكًا وهو لهم تمام المائة^(١).

وتقسم بلاد الحبشة على قسمين:

أولاً: القسم النصراني:

منذ أن نشأت كنيسة الحبشة خلال القرن الرابع الميلادي^(٢) أقرت إحدى المجاميع الدينية التي عقدت في نيقيا خضوع كنيسة الحبشة لمصر ومضمون القرار: "إن مسيحيي الحبشة لا يجوز لهم الاستقلال بأمورهم الدينية، وإنما هم تابعون للكرسي الإسكندري"^(٣)، وكان لأبد للحبشة من مطران يوليه بطريق النصارى اليعاقبة بمصر بعد سؤال الخطي لسلطان مصر في ذلك بكتاب يبعثه مع مرسله صحبة هدية؛ فيتقدم البطريرك بتعيين المطران^(٤).

وكان لمطران مصر مكانة محترمة في نظر الأحباش، وقد أشار القلقشندي إلى هذه العلاقة بالقول، "ولهذا المطران المصري مكانة محترمة في نظر الأحباش، وأن الأوامر البطريرك المصري من الاعتبار بقدر ما لشريعته من الحرمة، وإذا كتب - إلى ملك الحبشة - كتابًا فأتى ذلك الكتاب أول مملكته، خرج عميد تلك الأرض فحمل الكتاب على رأس علم ولا يزال يحمله بيده حتى يخرج من أرضه وأرباب الديانة في تلك الأرض حوله مشاة بالأدخنة، فإذا خرجوا من أرضهم تلقاهم من يليهم... حتى يصلوا إلى أمهرة فيخرج صاحبها بنفسه، ويفعل مثل ذلك الفعل الأول، إلا أن المطران هو الذي يحمل الكتاب لعظمته... ثم لا يتصرف الملك في أمر ولا نهى ولا قليل ولا

(١) العمري، مسالك الأبصار، ٨٦/٤؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ٣٠٨/٥.

(٢) زاهر رياض، كنيسة الإسكندرية في إفريقيا، مطبعة الجيش، (القاهرة، ١٩٦٢م)، ص ٨١.

(٣) القنائي، الشيخ أحمد الحنفي الأزهري (ت ١٣٢١هـ/١٩٠٣م)، الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان، المطبعة الأميرية الكبرى، (القاهرة، ١٩٠٣)، ص ٩.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٩٥/٥؛ وينظر: المقرئ، الإمام بأخبار من بأرض الحبشة،

كثير حتى ينادى للكتاب ويجتمع له يوم الأحد في الكنيسة ويقراً الملك واقف ثم لا يجلس مجلسه حتى ينفذ ما أمره به"^(١).

ثانياً: بلاد المسلمين (بلاد الزيلع):

وهي البلاد المقابلة لبر اليمن على أعالي بحر القلزم (الأحمر)، وما يتصل به، ويطلق عليها الطراز الإسلامي؛ لأنها على البحر على شكل طراز، وسميت بلاد الزيلع أيضاً، والزيلع هي قرية من قراها؛ ولكن غلب عليها اسمها^(٢)، وهذه البلاد سبع ممالك، كل مملكة مستقلة عن الأخرى، وبها ملك مستقل^(٣)، وبخضعون جميعاً يلحطي ملك أمهرة^(٤)، وأن أمراءها من جملة التسعة والتسعين الذين تحت يد الحطي، وأن الحكم في تلك الإمارات السبع وراثي في أسر معينة، إلا أن أمراءها لا يتولون العرش إلا بأمر من الحطي وموافقته؛ فإذا مات أحدهم وكان من أهل بيته من يصلح للملك توجه إلى الحطي منزلاً إليه، فإذا اختاره سمع له البقية وأطاعوه، وأن أمراء تلك الممالك جميعهم لا يخرجون عن كونهم نواب له^(٥).

وعلى تلك الممالك ضرائب معينة في كل سنة، تدفع لملك الحبشة من القماش، والحريز، والكتان مما يجلب إليها من مصر، واليمن، والعراق^(٦)، وتتفرد إمارة هدية بجزية من نوع خاص، وهي أن تقدم هذه الإمارة إحدى بناتها المسلمات في كل سنة إلى الحطي لينحرها بنفسه، وقد جرت هذه العادة بمقتضى معاهدة يقول أهل هدية فيها: "وحكم علينا... ونعطيه مخافة أن يقتلنا ويخرب مساجدنا وإذا أرسل الذي يتقبل البنت

(١) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٩٥/٥؛ وينظر: العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٣٠-٣١.

(٢) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٣١٠/٥؛ وينظر: المقرئزي، الإمام بأخبار من بأرض الحبشة، ص ٨٥؛ العمري، مسالك الأبصار، ٨٥/٤.

(٣) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٣١١/٥؛ المقرئزي، الإمام، ص ٨٢.

(٤) المقرئزي، الإمام، ص ٨٢.

(٥) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٣١٧/٥.

(٦) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٣١٧/٥؛ العمري، مسالك الأبصار، ٦٢/٤.

والمال أخرجنا له البنت على السرير ونغسلها ونكفنها بثوب، ونصلي عليها ونحسب أنّها ميتة، ونعطيها له فأنا وجدنا آباءها وأجدادنا يفعلون ذلك" (١).

وإذا أردنا أن نقف عند هذه الرواية فإننا لا نظن أن مثل هذا الأمر كان يحصل في هذه البلاد بعد دخولها الإسلام، وإذا كان يحدث مثل ذلك فلربما أنه كان يحدث في مراحل سابقة لذلك، وإذا كان يحدث مثل ذلك فلربما أن إرسال هذه البنت إلى الحطي كان جرت عليه العادة لتكون في ضمن نساءه؛ إذ ما فائدة نحرها من قبله أنّها تدلّ بطبيعة الحال على ضعف هذه البلاد من الناحية العسكرية.

ونخص بالذكر بلاد المسلمين؛ فقد تعرض المسلمون في الحبشة والزيلع لأشد أنواع الاضطهاد؛ فقد اتخذ الملك سيف أَرعد (٧٤٥-٧٤٤هـ) تدابير صارمة ضد المسلمين، وأمر بقتل كل من أبى الدخول في المسيحية أو نفيه خارج البلاد (٢)، واتخذ سياسة أبيه عمد أحيون القائمة على تدريب ونفي وإعدام كل من يترك المسيحية ويدخل الإسلام (٣)، ويذكر ابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ) أن مسلمي الزيلع قد تعرضوا لأبشع الاضطهاد على يد الملك إسحاق بن داود (٨١٧-٨٣٣هـ)، فيقول: "... قتل عامة من كان في بلاده من رجال المسلمين، واسترق نساءهم وأولادهم، وعذبهم عذاباً شديداً، وهدم ما في مملكته من مساجد... فكانت في المسلمين ملحمة عظيمة في هذه السنة لا يحصى فيها من قتل من المسلمين" (٤).

(١) عابدين، بين الحبشة والعرب، ص ١٥٧-١٥٨.

(٢) ارنولد، توماس، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة، ١٩٧١م)، ص ١٣٥-١٣٦.

(٣) عبدالحليم، رجب مُحَمّد، العروبة والإسلام في إفريقيا الشرقية من ظهور الإسلام إلى قدوم البرتغاليين، دار النهضة العربيّة، (القاهرة، ١٩٩٩م)، ص ١١٣.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٨٠/١٤.

ويرجع ابن تغري بردي أسباب هذا الاضطهاد الذي تعرض له المسلمون في الحبشة إلى إغلاق كنيسة القيامة^(١) في بيت المقدس^(٢).

ب. مظاهر نظام الحكم:

تبدو مظاهر نظام الحكم في مملكة الحبشة إنها متشابهة إلى حد ما مع الممالك الأخرى؛ فالحطي كان له خيام هو وجيشه، وينقلونها معهم في الأسفار والنزهات، وأنه إذا جلس يجلس على كرسي ويجلس حوله أمراء مملكته على كراسي من حديد منها ما هو مطعم بالذهب ومنها ما هو متواضع على قدر مراتبهم^(٣)، أما مظاهر الحكم في ممالك الزيلع فهي متشابهة؛ إذ إن الملوك يتصدرون للحكم بأنفسهم، وإن كان لديهم علماء وفقهاء، جرت العادة أن يجلس الملك على كرسي من حديد مطعم بالذهب، وحوله أكابر الأمراء جلوس فوق مقاعد أقل ارتفاعاً من مقعد الملك، وبقية الأمراء وقوف، ولهم مواكب تقدمها الحجاب والنقباء؛ لإفساح الطريق، وتدق الطبول أمام الملك، وهذه الطبول معلقة في أعناق الرجال، وتسمى الواحدة منها طبول، وإذا مشى الملك توكأ على يد رجلين^(٤).

أما نظام الأقطيات للجند فهو ليس كما هو الحال في سلطنة الممالك المعاصرة لهم من ناحية الإقطاعات، وإنما لجنود هذه الممالك دواب سائبة، ومن شاء منهم

(١) كنيسة القيامة: شيدت هذه الكنيسة سنة (٣٣٨م) قامت بتشبيدها الملكة هيلانة والدة الإمبراطور قسطنطين الروماني، ويذكر أنها حضرت إلى بيت المقدس، وسألت عن الخشبة التي (صلب عليها السيد المسيح ﷺ)؛ فدلّت على مكانها فاستخرجتها وشيدت في ذلك الموقع كنيسة القيامة التي صارت من أهم الكنائس النصرانية، وأصبحت من المزارات الرسمية في رحلة حج المسيحيين، وخلال الحروب الصليبية تعرضت هذه الكنيسة للإغلاق أكثر من مرة؛ إذ استعملها الحكام المسلمون وسيلة للضغط على القوى الصليبية سواء في أوروبا أو الحبشة. الحميري، الروض المعطار، ص ٤٧٢.

(٢) النجوم الزاهرة، ٢٨٠/١٤.

(٣) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٣١٠/٥؛ وينظر: العمري، مسالك الأبصار، ٨٦/٤.

(٤) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٣١٨/٥؛ وينظر: العمري، مسالك الأبصار، ٨٦/٤.

الزراعة فليزرع واستغل الأرض من دون اعتراض، وجرت العادة أنّ الملك يوزع على جنوده وأمراء جيشه بقراً في كل عام، وأكثر ما يعطي للأمير الكبير مائتي بقرة^(١).
 أمّا أسلحتهم فقد استعمل مقاتليهم السيوف، والحراب، والمزاريق، والقسي، يرمون بها النبل، وهو نشاب صغير، رُتّمَا رمى بعضهم بالنبل عن قوس طويل يشبه قوس البندق ولهم مدورة، ودراق طوال يتقون بها^(٢)، وأنّ نبال المقاتلين في إضفاء الطراز الإسلامي أكبر ولهم أبواق من خشب القنا المجوف ومن قرون البقر المجوف^(٣).

ت. العلاقات بين ملوك الحبشة وسلطين الممالك:

تميزت العلاقة بين مصر والحبشة بأنّها كانت متذبذبة بحكم العوامل التي تحكم هذه العلاقات، ويمكن تقسيمها على قسمين، الأوّل: سفارات ومراسلات تحمل طابع الصداقة والود، والثاني: سفارات ومراسلات تحمل طابع التهديد والوعيد^(٤)، غير أنّ أغلب السفارات والمراسلات المرسلّة من لدن ملوك الحبشة، غرضها طلب تعيين مطران جديد لكنيسة الحبشة، ولاسيّما أنّ كنيسة الحبشة مرتبطة لكنيسة الإسكندرية، ولا يجوز تعيين المطران إلاّ من الطائفة البقراطية، ومن لدن بطريك الإسكندرية، الذي أصبح بمنزلة الخليفة على دين النصرانية؛ فهو له الحق والصلاحية في العزل والتولية^(٥)؛ وعليه فإنّ ملوك الحبشة يبعثون رسلهم وهم محملون بالهدايا؛ من أجل تعيين المطران ورعاية كنيستهم^(٦).

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣١٨/٥-٣١٩.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٩٤/٥.

(٣) العمري، مسالك الأبصار، ٨٦/٤.

(٤) قاسم، عبده قاسم، علاقات مصر بعالم البحر الأحمر، جامعة عين شمس، (القاهرة، ١٩٨٠م)، ص ١٣٦.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣٢٢/٥-٣٢٣. ينظر: الملحق (٦)

(٦) المقرئزي، الإمام، ص ٧٩. وللمزيد من التوضيح ينظر: المراسلات والسفارات بين السلاطين الممالك وملوك الحبشة في الملحق (٧).

الفصل الثالث

الحياة الاقتصادية لإفريقيا جنوب الصحراء.

من خلال روايات القلقشندي (ت ٨٢١ هـ)

والمقريزي (ت ٨٤٥ هـ)

١. الحياة الاقتصادية لبلاد البجة.

٢. الحياة الاقتصادية لبلاد النوبة.

٣. الحياة الاقتصادية لمملكتي الكانم والبرنو.

٤. الحياة الاقتصادية لبلاد مالي.

٥. الحياة الاقتصادية لمملكة الحبشة.

١. الحياة الاقتصادية لبلاد البجة.

أ. الرعي والثروة الحيوانية:

كانَ الرعي هو الحرفة الأساسيَّة لجميع أهل البجة على الرغم من اختلاف قبائلهم وأوطانهم، وإنَّ تعددت ضروب النشاط الاقتصادي في العصور اللاحقة، إلاَّ أنَّ هذا لا يخفى الحقيقة الأساسيَّة وهي أنَّ أهل البجة من الرعاة. ومن الممكن أنَّ تتصور أنَّهم في حين من الدهر لم يحترفوا حرفة أُخرى سواها^(١)، ويؤكد هذه الإشارة عدد من المؤرخين العرب منهم: البلاذري (ت ٢٧٩هـ)، يقول عنهم: "إنَّهم أهل بادية وأصحاب إبل"^(٢)، وكذلك الطبري (ت ٣١٠هـ): "إنَّهم قوم أهل بدو وأصحاب إبل وماشية"^(٣)، أمَّا الاصطخري (ت ٣٤٦هـ) فقال: ليس لهم قرى ولا خصب فيه غذاء، إنَّما هم بادية لهم نجب"^(٤)، أمَّا المقرئ (ت ٨٤٥هـ) فيتطابق بقوله مع من سبق؛ ولكنه يضيف أنَّهم بادية يتبعون الكلاً حيثما كانَ الرعي بأخبية من جلود^(٥).

أمَّا ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ) فيقف عند أهل البجة ليعطي صورة تبدو أكثر تفصيلاً بقوله: "إنَّهم أصحاب أخبية شعر... وهم أهل بادية متوغلون في الجبال والآجام في عدد لا يحاط به"^(٦)، وفي موضع آخر يذكر كيف ينتقل أهل البجة الرعاة إلى أماكن سقوط المطر بحثاً عن المراعي، ويذكر عن أهل البجة الحدارية "أنَّهم بدو غير مستقرين ينتقلون في طول البلاد وعرضها، وتكون بلادهم التي تمطر وتزرع، يقيمون فيها بمواشيهم طويلاً نحو شهرين، وتمتد من النيل إلى البحر الأحمر، فيقضون شتائهم

(١) مُحمَّد عوض، السودان الشمالي، ص ٢٣.

(٢) فتوح البلدان، ١/٢٤٠.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، ٩/٢٠٣.

(٤) المسالك والممالك، ١/٤٢.

(٥) الخطط، ١/٣٥٨.

(٦) صورة الأرض، ١/٥٠.

قرب ساحل البحر، والصيف في بطون الأودية والخريف جهة الغرب قرب النيل^(١). ومن هنا يمكن القول وعن طريق إشارات المؤرخين والجغرافيين العرب إلى أن مجتمع البجة رعوي، وأن هؤلاء الرعاة تمكنوا من توفير البيئة المناسبة لحيواناتهم، وكان هذا عن طريق التنقل والترحال إلى المناطق المطيرة التي أسهمت بدورها في توفير الكمية المناسبة من المشرب والمأكل من الأعشاب والنباتات لإطعام حيواناتهم، وكان جلّ اهتمامهم بالحيوانات ورعايتها؛ لأنّها مصدر طعامهم، الذي اعتمدوا عليه في هذه الصحراء القاحلة، وقد أشار ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ) إلى طعامهم؛ فقال: "وطعامهم الذي يأكلون اللحم واللبن"^(٢).

بما إنّ أهل البجة شعب رعوي فهذا يعني أنّه كان يمتلك قطعانًا من الحيوانات، وكانت الإبل تأتي في المرتبة الأولى من ناحية العناية في تربيتها، ثم تأتي الأغنام، والماعز، وغيرها من أنواع الماشية.

ومِمَّا لاشكّ فيه أنّ أهل البجة عندما بدأوا يقتنون الإبل قد عرفوا بعض القواعد الأساسية لتربيتها من الجماعات التي أخذوا عنها النوع الجديد من الحيوان، ولكن لاشكّ أنّهم زادوا كثيرًا على ما تعلموه وتخصصوا في تربيتها على أساليبهم؛ حتّى أصبحت نوعًا مميزًا خاصًا بهم ينسب إليهم^(٣)، وقد كانت لهم إبل فرهة (حسنة) تنسب إليهم يُقال لها بجاوية^(٤)، وتتميز هذه الإبل بأنّها سريعة، وشديدة العدو، وصبورة على العطش، يسابقون عليها الخيل، ويقاثلون عليها، وتدور بهم كما يشاؤون، ويقطعون عليها البلاد، ويطاردون عليها في الحرب؛ فيرمي الواحد منهم الحربة فإن وقعت الرمية طار إليها الجمل فأخذها صاحبها فإن وقعت في الأرض ضرب الجمل الأرض بجيرانه وأخذها

(١) صورة الأرض، ٥٧/١.

(٢) صورة الأرض، ٥٦/١.

(٣) مُحَمَّد عوض، السودان الشمالي، ص ٥٣.

(٤) ياقوت، معجم البلدان، ٣٣٩/١؛ ابن عبدالحق، مرصد الإطلاع، ١٦٣/١.

صاحبها^(١)، وقيل: "ولهم نجب يُقال إنَّ في النجب أسير منها، وسائر ما بأرضهم يقع إلى مصر"^(٢)، لاشكَّ أنَّ الدافع الأكبر الذي دفع أهل البجة إلى العناية بالسرعة هو ما لها من شأن كبير في الحرب وفي الكر، والفر، والانقضاض الفجائي على العدو؛ إذ استعملوها بدلاً عن الخيل؛ إذ قيل: "تتصل سراياهم ومناسرهم على النجب... إلى بلاد النوبة؛ فيغيرون ويسبون"^(٣).

وبما إنَّ الإبل البجاوية كان لها ما يميزها عن غيرها من الأنواع الأخرى جعل الآخرين يتطلعون للحصول عليها، ومن بينهم العرب على الرغم من أنَّ اقتنائهم لها كان أسبق من البجة؛ ولكنهم تطلعون للحصول عليها، ولاسيما أنَّهم عرفوا جودتها، وتميز أنواعها في أول احتكاك فعلي بينهم وبين أهل البجة عام (١٠٧هـ/٧٢٥م)^(٤)، وكان أنَّ اشتروا عليهم عند توقيع الصلح أنَّ يكون الخراج الذي يدفعونه من الإبل...^(٥)، ويبدو واضحاً هذا الشرط أنَّ العرب كانوا حريصين على الحصول على هذه الأنواع الجيدة من الإبل، وعلى الرغم من أنَّ الإبل كانت تشكل عماد الحياة الاقتصادية عند أهل البجة، إلا أنَّ الحيوانات والمواشي الأخرى كان لها أثراً أيضاً، ولاسيما الغنم والماعز، فضلاً عن البقر الذي كان مقتصوفاً على المناطق التي تتوافر فيها المراعي مُدَّة أطول من السنة^(٦)، ومن الطريف أنَّ أهل البجة اعتنوا بتربية الحمير التي كانت تستعمل في أعمالهم؛ إذ كانت لهم حمير صغار في مقدار الكباش تشبه البغال، إذا خرجت من موضعها لم تعيش، ولهم حمير يُقال لها السملاقية بأرض الصعيد^(٧)، ويشير المقرئ

(١) المقرئ، الخطط، ٣٥٩/١.

(٢) الاضطري، المسالك والممالك، ٤٢/١.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، ١٨/١.

(٤) ابن عبدالحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص ١٨٩.

(٥) مُحَمَّد عوض، السودان الشمالي، ص ٥٥.

(٦) مُحَمَّد عوض، السودان الشمالي، ص ٥٦.

(٧) الاضطري، المسالك والممالك، ص ٤٢.

(ت ٨٤٥هـ) إلى أنواع أخرى من الحيوانات والطيور كانت تعيش في بيئة البجة، منها: السباع، والفيلة، والنمور، والفهود، والقردة، والغزلان، فضلاً عن الطيور المتنوعة، مثل: البيغاء، ودجاج الحبش، وحمام بازيت، وغيرها^(١).
وصفوة القول ومن هذه الإشارات المتفرقة في المصادر إنَّ أهل البجة من الشعوب الرعوية التي حظيت بتنوع ملحوظ في الثروة الحيوانية التي ساعدتها في أن تصارع البيئة القاسية التي تعيش فيها.

ب. الصناعة:

على الرغم من أن بلاد البجة كان يتوافر فيها أنواعاً من المواد الأولية، التي يمكن أن تصلح للصناعة، ولاسيماً المعادن المختلفة، بما فيها: الذهب، والفضة، والنحاس، والحديد، وغيرها، فضلاً عما يمكن استعماله للصناعة من أشجار واعشاب، التي أشار إليها المقرئزي (ت ٨٤٥هـ)^(٢)، إلا أنَّها - أي الصناعة - كانت محدودة، ولم تحظْ بالقدر الكافي من العناية، ويبدو أنَّ سبب الحياة البدوية التي كان يعيشها أهل البجة، والتي تحتم عليهم التنقل والترحال، ومحدودية حياة الاستقرار؛ فأرضها بادية ليس فيها قرى، ولا خصب؛ ولكن على الرغم من قلة تلك العناية؛ لكن ذلك لا يعني انعدام الصناعة، وعدم وجود صناعات وحرف صناعية عند أهل تلك البلاد، ولاسيماً تلك الصناعات ذات المساس بحياة الفرد، التي تُعدُّ من ضروريات الحياة اليومية؛ لمقاومة الحياة القاسية للبيئة التي يعيشون فيها.

ومن الصناعات التي يمكن أن نشير إليها صناعة الجلود، التي أشار إليها المقرئزي (ت ٨٤٥هـ) في معرض حديثه عن مساكن أهل البجة من أنَّهم كانوا يقيمون

(١) الخطط، ٣٥٩/١.

(٢) الخطط، ٣٥٩/١.

في أخبية من جلود^(١)؛ وذلك يعني أنّ تلك الجلود كانت تخضع لعمل صناعي؛ حتى تكون مهيأة للاستعمال.

وقد استعملت الجلود لصناعة القرب التي تنقل فيها المياه، وقد أشار ناصر خسرو (ت ٤٨١هـ) إلى تلك القرب في طريقه إلى الحج عبر البجة من أنهم - أي البجة - كانوا يقدمون الماء للحجاج في تلك القرب^(٢).

ومن الطبيعي أنّ تكون الجلود المستعملة في تلك الصناعة هي من جلود الحيوانات؛ لكن ناصر خسرو (ت ٤٨١هـ) أشار إلى صناعات جلدية تصنع من جلد السمك تسمى بالشغف^(٣)، ولم يتم الإشارة إلى استعمال تلك الصناعات الجلدية الأخيرة، ويبدو أنّها محدودة الاستعمال.

ومن الصناعات الأخرى ذات المساس بحياة الفرد، وما يمكن أن نطلق عليه صناعة الأسلحة؛ إذ كان هناك سلاح يعرف بالحراب السباعية، وهي حراب طويلة يقدر طولها بسعة أذرع مصنوعة من الحديد تقوم النساء بعملية صنعها في أماكن خاصة لا يختلطن بالرجال^(٤)، فضلاً عن ذلك كانت هناك صناعة الدروع التي كان تدخل في صناعتها جلود البقر، ومن تلك الدروع ما يعرف بالدروع الأكسومية والدهلكية، وكانت هناك صناعة القسي الكبير، التي كانوا يعدّون لها نبلاً مسمومةً إذا أصابت الإنسان قتلته لوقته^(٥).

ومن الصناعات الأخرى التي أشير إليها في البجة هي تلك التي لها علاقة بالمعادن والأحجار الكريمة من الذهب والزمرد، التي اشتهرت بها البجة قديماً؛ إذ كان

(١) الخطط، ٣٥٩/١.

(٢) سفر نامه، ١٣٢-١٣٥.

(٣) سفر نامه: ص ١٣٥.

(٤) المقرئزي، الخطط، ٣٥٨/١.

(٥) المقرئزي، الخطط، ٣٥٩/١.

ذلك المعدن في أرض البجة، وأنَّ المسافة إليه من أسوان خمسة عشر يوماً^(١)، وكانت مشاراً لأطماع جيرانها؛ إذ أشار المقرئزي (ت ٨٤٥هـ) إلى ذلك بقوله: "كانت فراعنة مصر تغزوهم وتوادعهم أحياناً لحاجتهم إلى المعادن"^(٢).

وقد أثبتت الأبحاث أنَّ الفراعنة قاموا باستغلال مناجم الذهب لكلِّ البلاد؛ فقد عثر على أقدم خريطة في العالم يرجع تاريخها إلى عام (٣٥٠ ق.م) قد صور عليها أقدم مصور جغرافي عن مناطق استخراج الذهب بوادي العلاقي من أرض البجة، وكان أهم تلك المناجم (دار هيب)^(٣).

أمَّا في العصور الإسلامية فيبدو أنَّ العناية باستخراجه لم يكن يتعدى منطقة العلاقي؛ إذ كان من يقيم فيها وما حولها يعملون باستخراجه^(٤)، ورُبَّما ذلك ما دعا المقرئزي للتقليل من عناية أهل البجة باستخراج الذهب؛ وصف بأنهم لم يتعرضوا للعمل بحرفة استخراج الذهب^(٥)، ومن المؤكد أنَّ العمل بهذا المعدن الثمين بتلك الحرفة الصعبة لم يكن بالواسع الكثير؛ إذ يتطلب جهوداً مضنية واستثنائية في استخراجها، فضلاً عن أنَّ مناجم الذهب قد توقفت منذ عهد الخليفة الفاطمي العاضد (٥٥٦-٥٦٧هـ) آخر خلفاء الدولة الفاطمية، وتوقف استخراج الذهب منذ ذلك الحين^(٦)؛ ذلك ما دعا المقرئزي (ت ٨٤٥هـ) إلى أن يقلل من الاهتمام والعناية به.

أمَّا عن طريقة الاستدلال والعثور عليه فيظهر أنَّها كانت سهلة وتقليدية؛ فكان من يريدون التفتيش عنه يذهبون إلى الصحراء ليلاً ويتجولون فيها، وينظرون إلى

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٤٠/١.

(٢) الخطط، ٣٥٩/١.

(٣) القوسي، دولة الكنوز، ص ١١٣.

(٤) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٣٤.

(٥) الخطط، ٣٦٠/١.

(٦) ابن بكرة، منصور الذهبي الكامل (ت في المنتصف الأوَّل من القرن ٧ هـ)، كشف الأسرار العلميَّة

العلميَّة بدار الضرب المصرية، تحقيق: عبدالرحمن فهمي، (القاهرة، ١٩٦٦م)، ص ٣٩.

الأرض في ضوء القمر، وعندما يبصرون لمعاناً أو ضوءاً وضعوا عليه علامة، ثمَّ يبيتون ليلهم حتى يأتي النهار ليحمل أكوام الرمل التي وضعوا علاماتهم عليها، ثمَّ يذهبوا ليغسلوها في أوعية خشبية، وبعد استخراج التبر يمزج بالزئبق، ثمَّ يسبك، وما جمع يبايعوه بينهم، ثمَّ يحمله التجار إلى سائر الأقطار^(١).

أمَّا الزمرد أو ما يعرف بالزبرجد^(٢) عند الجغرافيين القدماء فيعدُّ من أهم المعادن وأثمنها التي استخرجت من أرض البجة؛ إذ قال الهمداني: "وفي بلادهم معدن الزبرجد"^(٣) ويرجع شغف استخراجها والعناية في الحصول عليه إلى العهود القديمة؛ فقد عرف المصريون القدماء مناجم استخراجها، وذكر أنَّها بالصحراء الشرقية في المناطق المتاخمة لأعلى الوجه القبلي، أمَّا في عهد اليونان فلم تقل أهمية استخراجها؛ بدليل ما ذكره بعض مؤلفيهم عن تحديد مواقعها في تلال البحر على خط عرض أسوان نفسه^(٤).

ومِمَّا هو جدير بالذكر هنا أنَّ مناجم الزمرد لا تتجاوز بلاد البجة، وبعبارة أخرى أنَّ الزمرد لا يتوافر إلا في مرتفعات البحر الأحمر في بلاد البجة؛ إذ إنَّ مناجم الزمرد تقع في أرض برية بعيدة عن العمارة في مرتفعات البحر الأحمر عند جنوب الصعيد على حدود مصر والنوبة من أرض البجة، وهذه هي الأرض الوحيدة بالعالم التي يتوافر فيها هذا المعدن^(٥).

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٤٦/١؛ والبكري، خريدة العجائب، ص ٤٨.

(٢) الاصطخري، مسالك والممالك، ص ٥١؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ١٥٠/١؛ ابن الفقيه الهمداني، البلدان، ص ٧٨.

(٣) البلدان، ص ٥١٢.

(٤) الحويري، أسوان في العصور الوسطى، ص ١١٠.

(٥) المقرئزي، الخطط، ٤٣١/١؛ اليعقوبي، البلدان، ص ٣٣٣؛ الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٥١؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ١٥٠/١؛ الهمداني، مختصر كتاب البلدان، ص ٧٨؛ ياقوت،

معجم البلدان، ٣٥٥/٢.

أمّا وسائل استخراجها فكان يبحث عنه في مغارات مظلمة، كان يدخل إليها بالمصاييح وبالحوال ويحفر عليه بالمعاول فيتوافر في وسط الحجارة^(١)، وأول ما يظهر منه شيء يسمونه الطلق، وهو ثلاثة أنواع: طلق كافوري أبيض، وآخر فضي، وآخر حدودي (أسود)^(٢)، ثمّ يستمر الحفر فيتوافر في تربة حمراء لينة مشتملة عليه، وما يتوافر في هذا التراب يسمى فصوصاً، أمّا ما يتوافر في طبقات من الحجر فيعرف باسم قصباً^(٣)، وهذه الأقسام هي خرز مستطيلة ذات خمسة أسطح، وبعدها يوضع في زيت حار مصنوع من بزر الكتان^(٤)، ثمّ يوضع بعدها في قطن، ثمّ يلف هذا القطن بقطع من القماش الخام لحفظه^(٥)، وظل يستخرج هذا المعدن من بلاد البجة حتّى أبطل أبطل العمل في استخراجها أيام السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون في سنة بضع وستين وسبعمائة^(٦)؛ إذ يبدو أنّ تلك المناجم التي كان فيها الزمرد الزمرد قد أنهكت ونضب ما فيها من معدن، ولم يعدّ العمل فيها ذا فائدة اقتصادية.

ت. التجارة:

لم يكن النشاط التجاري لبلاد البجة مرتبطاً بدخول العرب المسلمين بلادهم في العصور الوسطى، بل إنّ هذه البلاد شهدت نشاطاً تجارياً ملحوظاً عبر مراحل التاريخ المختلفة^(٧)، وقد أشار المقرئزي (ت ٨٤٥هـ) في معرض حديثه عن طريق قوص عيذاب

(١) المقرئزي، الخطط، ٤٣١/١.

(٢) العمري، مسالك الأبصار، ٧٩/٤.

(٣) التيفاشي، أبو العباس أحمد بن يوسف (ت ٦٥١هـ/١٢٥٣م)، أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، نشر أنطونيو دانييري، (فرنسا، ١٨١٨م)، ص ١٣.

(٤) الأكفاني، نخب الذخائر في أحوال الجواهر، ص ٥٠.

(٥) العمري، مسالك الأبصار، ٧٩/٤.

(٦) المقرئزي، الخطط، ٤٣١/٢.

(٧) للمزيد من التفاصيل بشأن معرفة النشاط التجاري في البجة ينظر: مُحَمّد عوض، الشعوب

والسلالات الإفريقية، ص ٢٥٦-٢٥٧؛ صلاح الدين الشامي، الموانئ السودانية، ص ٢٨-٢٩.

عذاب إلى هذا النشاط الذي اختصت به البجة؛ فقد يُعدُّ هذا الطريق من أكثر الطرق شيوعاً واستعمالاً في العصور الوسطى، ولاسيماً منذ منتصف القرن الخامس الهجري؛ وذلك بسبب ما أصاب مصر من أحداث داخلية، كالشدة العظمى في عهد الخليفة المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ)، وأحداث أخرى خارجية منها سيطرة الصليبيين على سواحل الشام وفلسطين، وقيام الإمارات الصليبية بها؛ ممَّا أدى إلى تحول قوافل التجارة والحجاج الوافدة على مصر من سائر البلدان الإفريقية والأندلس إلى الجنوب، وقد نال هذا الطريق النصيب الأكبر من هذا النشاط؛ ممَّا ضاعف من القيمة التجارية، ومنذ ذلك الوقت سيطر هذا الطريق على نشاط الحركة التجارية بمصر، وأصبح طريقها الأوَّل أكثر من قرنين من الزمن^(١)؛ لذلك فإنَّ هذا الطريق نجده من أكثر الطرق ذكراً في كتابات الرحالة العرب، ولاسيماً المغاربة الذين سلكوا هذا للحجيج، ومنهم الزهري (ت ٥٤٩هـ)، الذي ذكر أنَّ هذا الطريق يقدر بمسيرة ثمانية عشر يوماً، وقال: إنَّه ليس في هذا الطريق إلاَّ ثلاث آبار؛ ولكن لم يذكر أسمائها^(٢)، أمَّا الإدريسي (ت ٥٦٠هـ) فوصف هذا الطريق إجمالاً، وحدد طول الرحلة بمسيرة عشرين يوماً^(٣)، أمَّا المقرئزي (ت ٨٤٥هـ) فقد جعل الرحلة من قوص إلى عيذاب تستغرق سبعة عشر يوماً^(٤).

(١) الخطط، ١/٣٧٤.

(٢) أبو عبدالله مُحَمَّد بن أبي بكر (ت ٥٤٩هـ/١١٥٤م)، كتاب الجغرافية، تحقيق: مُحَمَّد حاج صادق، المعهد الفرنسي، (دمشق، ١٩٦٨م)، ص ٤٣-٤٤.

(٣) نزهة المشتاق، ١/١٣٤.

(٤) الخطط، ١/٣٧٤.

٢. الحياة الاقتصادية لبلاد النوبة.

أ. الزراعة:

لابدّ قبل الخوض في النشاط الزراعي لبلاد النوبة الإشارة إلى أهم مقوم أساسي من مقومات الزراعة، ألا وهو المناخ في تلك البلاد الذي يغلب عليه قلة المطر، وتسوده البيئة الصحراوية في الأماكن الشمالية منها^(١)، وتكاد تكون كمية الأمطار نادرة وغير مؤثرة في حياة النوبيين، ولا يعتمد السكان عليها، بل إنّ الاعتماد الأساسي على مياه نهر النيل، الذي هو عماد النشاط الزراعي؛ إذ يشكل واديه في هذه البلاد المساحة الزراعية؛ فهذا الوادي تنوعت ممراته لتتسع حينها وتضيق أحياناً أخرى في بعض الجهات، وتمثل المناطق المتسعة جانبي النيل في أقصى بلاد النوبة جنوباً، التي تعتمد اعتماداً كلياً على نهر النيل^(٢).

أمّا وسط هذا الوادي فيتصف بضيقه، وما يزيد الحياة صعوبة فيه أنّه يقع وسط نطاق عديم المطر، ويكتنف هذا الإقليم على جانبي النيل صحراء جافة جرداء تتعدم فيها مظاهر الحياة^(٣).

وعلى الرغم من هذه الظروف القاسية التي أحاطت بأرض النوبة حاول أبناؤها التمرس معها مستغلين في ذلك الوسائل كافة وللإفادة منها؛ ممّا جعلتهم يجيدون التعامل معها؛ لإقامة زراعة تكفيهم قوت العيش؛ فقد بلغت عناية النوبيين بالزراعة إلى عنايتهم بمياه النيل؛ فكانوا كالمصريين يقيمون ارتفاعه وانخفاضه بكلّ دقة بوسائلهم البدائية^(٤)، واستعملوا الآلات لرفع مياه النيل إلى أرضهم، ولاسيّما في المناطق التي ينخفض فيها

(١) مُحَمّد عوض، الشعوب والسلالات الإفريقية، ص ٢٤٦.

(٢) مُحَمّد عوض، السودان ووادي النيل، ص ١٣١.

(٣) مُحَمّد عوض، السودان ووادي النيل، ص ١٣٢.

(٤) أبو صالح الأرميني، أبو المكارم سعدالله أبو صالح الأرميني (ت في نهاية القرن السابع الهجري)،

تاريخ أبي صالح الأرميني، نشر ابغت، (أكسفورد، ١٨٩٣م)، ص ٩٨.

النيل، وأنَّ الأماكن التي ينخفض فيها هي أرض المريس؛ لذلك كانوا يستعملون البقر والآلات لرفع المياه إليها، ويذكر في هذا الصدد أنَّ النيل لا يروي مزارعها؛ لارتفاع أرضها، وزرعها الفدان والفدان والثلاثة على أعناق البقر بالدواليب^(١).

ومن دلائل عنايتهم بالزراعة أيضًا كانوا يقبلون الأرض ويضعون لها فضلات الحيوانات؛ لترطيبها، وزيادة خصوبتها^(٢).

ويبدو أنَّ النوبيين كانوا مدركون جيدًا لظروف بيئتهم، ولأنَّ النباتات ونموها ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالظروف المناخية والتضاريس؛ لذلك اختاروا أنواعًا من المحاصيل تتناسب مع ظروف بيئتهم؛ فاعتنوا في المقام الأوَّل بزراعة النخيل؛ حتَّى اشتهرت به بلادهم، وقد جاء ذلك النخيل في بلاد النوبة في أكثر من موضع، "وبلادهم بلاد نخيل، وزرع، وكرم"^(٣)، وقيل عن نخيل النوبة إنَّه عمَّ البلاد من أقصاها إلى أدناها^(٤).

ونتيجة لعناية النوبيين بالنخيل والاهتمام به أصبح لديهم أجود أنواع التمور، وقد فاقت شهرته تمر العراق، الذي يلي تمر النوبة في الجودة^(٥)، ويشير المسعودي (ت ٣٤٦هـ) إلى جودة التمر النوبي وجودة تربته التي يزرع فيها؛ بقوله: "... إنَّ النواة عندما توضع في أرض النوبية تثبت نخلة، ويؤكل من تمرها بعد عامين اثنين فقط من زرعها"^(٦)؛ وأرى أنَّ هذا القول فيه مبالغة كبيرة.

أمَّا في الأماكن السهلية الممهدة والصالحة للزراعة فإنَّهم كانوا يقومون فيها بزراعة الغلات الزراعية الحبوب، والبقول، ومنها: الذرة، والقمح، والشعير، والدخن،

(١) المقرئزي، الخطط، ٣٥٢/١.

(٢) المقرئزي، الخطط، ٣٥٢/١.

(٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٩١/١.

(٤) المقرئزي، الخطط، ٣٥٣/١.

(٥) ياقوت، معجم البلدان، ٢١٩/١.

(٦) مروج الذهب، ١٧/١.

والسمسم^(١)، وأيضًا الفول، والعدس، والبصل، والحمص، والزيتون، والفجل، وسائر البقول^(٢)، كذلك عرفت بزراعة القطن، وفي أرض سقلودا^(٣) بالذات، وهي إحدى ولايات مملكة مقرة النوبية، وذكر أَنَّ النوبيين يصنعون من هذا القطن أقمشة بدائية^(٤)، وعرفت بلاد النوبة بزراعة الرز؛ فإذا ما عرف أَنَّ هذا المحصول يحتاج إلى الماء الوفير عرفنا أَنَّ النوبيين أفادوا من مياه النيل بدرجة لا تقل عمًا وصل إليه المصريون في ذلك الوقت^(٥).

ب. الثروة الحيوانية:

اشتهرت بلاد النوبة لدى كُتاب العصور الوسطى ومؤرخيه بأنَّها مليئة بمختلف أنواع الحيوانات والطيور^(٦)؛ فيشير المسعودي (ت ٣٤٦هـ) إلى الحيوانات التي يقتنيها النوبيون بقوله: "وهم أصحاب نجب، وأبل، وبقر، وغنم"^(٧)، وقد أشار المقرئزي، (ت ٨٤٥هـ) إلى كثرة عناية النوبيين بالحيوانات والطيور^(٨)، ولم يكن الرحالة الفارسي ناصر خسرو (ت ٤٨١هـ) أقل من المقرئزي (ت ٨٤٥هـ) في وصف ما تحويه أرض النوبة من ثروة حيوانية^(٩).

(١) المقرئزي، الخطط، ٣٥٣/١.

(٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٣٧/١-٣٨.

(٣) سقلودا: تفسيرها باللغة النوبية سبع ولاة، وهي البلاد أو الإقليم الذي يلي المريس، متاخم لمصر من الجنوب. المقرئزي، الخطط، ٣٥٣/١.

(٤) المقرئزي، الخطط، ٣٥٣/١.

(٥) الإدريسي، صفة مغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مطبعة بريل، (اليدن، ١٨٦٦م)، ٣/١٥.

(٦) الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، ص ٧٧.

(٧) مروج الذهب، ١/١٦٨.

(٨) الخطط، ٣٥٥/١.

(٩) سفر نامة، ص ٧٣.

ت. النشاط الحرفي والمهن الصناعية:

قامت في بلاد النوبة بعض الصناعات البدائية أو الحرف اليدوية، التي كانت ضرورة مُلحة للحياة اليومية عن طريق استغلال موارد البيئة المتاحة، وعن طريق الإشارات التي وردت في بعض المصادر يتبين أنّ الصيد كان حرفة ذات أهمية اقتصادية في تلك البلاد؛ فهناك قرية كانت تسمى (تقوي) امتازت بوجود جزائر ذات نخل قليل وزرع لا يذكر يقوم أهلها بصيد الأسماك، واستعمال شحومه، وهو أكثر طعامهم^(١)، وأنه كانت تتوافر في أول بلاد علوة قرى في الشرق على شاطئ النيل تعرف (بالأبواب) يصب النيل عندها وعنده روافد عدّة، منها: رافد يأتي من الشرق يجف صيفاً، ومن أسماك هذه الروافد حيتان لا قشور لها، وروافد أخرى يرى من شدة صفائها ما في قعرها من أسماك ذات طعم مختلف عن أسماك النيل، يقوم الأهالي بصيدها والانتفاع بها^(٢)؛ وبذلك يُعدّ الصيد في ضمن مصادر الدخل النوبي^(٣).

وقد ارتبطت بهذه الحرفة صناعة شعبية كان يطلق عليها اسم (الملوحة والصيد)؛ إذ كانت تنصب الشباك على طرفي النهر وقت زيادته، وما أن تبدأ مياه النيل بالانحسار حتّى تعلق الأسماك بها، ثمّ تجمع وتملح، ثمّ توضع في الجرار حتّى تتضج، ثمّ تعرض للبيع^(٤).

ومن الحرف التي برع فيها النوبيون أيضاً صناعة الحصر، والسلال، والأطباق الملونة المصنوعة من سعف النخيل^(٥)، ويبدو أنّهم كانوا على علم بما تنتجه البيئة لهم من مواد أولية يستعملونها للأغراض اليومية، وظلت هذه الحرفة تمارس في بلاد النوبة

(١) المقريري، الخطط، ٣٥٣/١.

(٢) المقريري، الخطط، ٣٥٤/١.

(٣) الإدريسي، صفة المغرب وأرض السودان، ص ٢١.

(٤) المقريري، الخطط، ٢٠٢/١.

(٥) المقريري، الخطط، ٣٥٥/١؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٩١/١.

حتى العصر المملوكي، وقد خالطهم العرب في ممارسة هذه الحرفة، لأنَّهم أهل بادية، ولهم من الخبرة في التعامل مع نباتات البيئة الصحراوية^(١).

ومن الحرف التي مارسها النوبيون حرفة التعدين، وكانت أهم المعادن التي تستخرج من بلاد النوبة السنباذج^(٢)، والشب^(٣)، وقد كانت هذه المعادن من الهدايا القيِّمة التي تقدّم لسلطين المماليك؛ فالسنباذج من المواد الحجرية التي انفردت بها بلاد النوبة، وقد كان يتوافر في الجزء الجنوبي من إقليم مريس في منطقة المقس الأعلى^(٤)؛ إذ كان النوبيون يستخرجونه من النيل في هذا الموضع؛ فيقوموا بالغطس لقاع النيل لاستخراجه^(٥).

أمَّا الشب فكانت مادته تتوافر بالصحراء الغربية ببلاد النوبة^(٦)، وقد اعتنت به السلطة في مصر وجعلت له السلطة المملوكية ديوان خاص، وكان يجلب إلى القاهرة في آلاف القناطير سنويًا، وكان يراوح سعر القنطار ما بين أربعة وستة ونصف دينار^(٧)، وظل إنتاج النوبة من الشب على غزارته طوال العصر المملوكي، وكان يصدر منه كثير إلى مختلف البلدان، ولاسيَّما أوروبا؛ إذ زاد الإقبال عليه في ذلك العصر؛ لاستعماله في الدباغة، والرسم، والتذهيب، وفي أغراض طبية، وكان يأتي به

(١) الحويري، أسوان في العصور الوسطى، ص ٨٩.

(٢) السنباذج: مادة حجرية صلبة، لونها أسود مائل إلى الرمادي، يجلو بها صقيل السيوف. التيفاشي، أزهار الأفكار في جوهر الأحجار، ص ١٥٩.

(٣) الشب: وهو مادة حجرية، ويتدرج الشب في أنواعه من النوع الممتاز الذي يشبه الثلج في لونه وإن شابهته أحيانًا بعض الألوان كالأحمر والأخضر، أمَّا النوع الثاني فيختلط به بعض الصخور، والنوع الثالث شب الحضر الذي ينقى فيصبح شبيه البلورات الصافية، يوجد في شمال إفريقيا، ويستعمل الشب في تثبيت الألوان والصبغات. فهمي، نعيم زكي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب وآخر العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، ١٩٧٣م)، ص ٣٣٨.

(٤) أبو صالح الأرمني، تاريخ الأرمني، ص ٩٩.

(٥) المقريري، الخطط، ٣٥٦/١.

(٦) المقريري، الخطط، ٢٣٦/١.

(٧) المقريري، الخطط، ٢٠٣/١.

التجار العرب من معادنه ببلاد النوبة إلى أخميم، وأسيوط، والبهنسا بصعيد مصر، ومنها يحمل عن طريق النيل إلى الإسكندرية؛ إذ كانت مستودعاته الكبيرة التي يخزن بها^(١)؛ وبذلك قامت مصر بدور الوسيط بين بلاد النوبة وأوروبا في هذه التجارة الرائجة في العصر المملوكي، وعلى الرغم من شهرة بلاد النوبة بمعدن الذهب، إلا أن المصادر لم تشر إلى استخراجها منها، وأشار المقرئزي (ت ٨٤٥هـ) إلى "كثرة الذهب في مملكة علوة"^(٢)، والراجح أن هذا الذهب كان ينقل لها من الأماكن المجاورة، ورُبما كان ينقل إليها من لدن قوم يعرفون بالأصديين، وهم يجاورون مملكة علوة من جهة الغرب، وبينهم وبين علوة مسافة خمس مراحل، وكان يكثر في بلادهم الذهب على حد قول ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ) "... وقيم الأصديين - الذهب الجيد، والتبر الخالص، والحديد"^(٣).

وربما قد يكون حصل خلط بين بلاد النوبة والبجة؛ لتجاورهما؛ فالذهب من معادن البجة، واشتهرت باستخراجها، ولاسيما وادي العلاقي، والراجح أنه كان يذهب به إلى أسواق النوبة؛ لذلك عمت شهرته في تلك البلاد^(٤).

ومن الحرف التي برع فيها النوبيون أيضا صناعة الملابس، وإن بدت بدائية إلى حد ما؛ إذ كانت تصنع من الحشائش، والجلود، وتوضع كخرق على العورة^(٥)، وهذه الملابس لا تنطبق على الملوك والأمراء؛ فقد كانت ملابسهم الثياب الرفيعة من الصوف، والخز، والديباج^(٦)، ويبدو أنها كانت مستوردة في ذلك الحين.

وبدأت ملابس النوبة تتطور مع تطور الزمن، وبدأ أهلها شيئا فشيئا يطورون ملابسهم البدائية، وبدأوا يصنعونها من القطن؛ فقد عرفوا بعض الألبسة القطنية التي يصنعونها محليا، ولاسيما في قرية بساي من أرض المريس، وإن كانت ثياب وخشة^(٧).

(١) المقرئزي، الخطط، ٣٥٤/١.

(٢) الخطط، ١٩٢/١.

(٣) صورة الأرض، ٦٢/١.

(٤) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٣٤-٣٣٥.

(٥) دمشق، نخبة الدهر، ص ٢٦٩.

(٦) القزويني، آثار البلاد، ص ٢٥.

(٧) المقرئزي، الخطط، ٣٥٣/١.

يبدو من هذا أنّ صناعة الملابس عند النوبيين قد تطورت بعد اعتمادهم على القطن؛ ولكن يبدو في الوقت نفسه أنّها لم تكن بالمستوى المطلوب أو الجيد. وإلى جانب الحرف السابقة كان هناك حرف أخرى مارسها النوبيون، وعلى الرغم من عدم إشارة المصادر إليها إشارات جيدة؛ لكن يمكن أن نستشف ذلك عن طريق بعض الأوصاف التي أطلقها بعض المؤرخين على أهل النوبة؛ فقد وصف المقرئزي (ت ٨٤٥هـ) الحياة العامة لأهل النوبة بالقول: "إنّ النوبيين كثيراً ما كانوا يستعملون المراكب والسفن في نقل التجارة والصيد"^(١)، ومن المحتمل أنّ هذه المراكب والسفن كانت تصنع محلياً، ولاسيماً أنّ بلاد النوبة كانت مليئة بالأشجار والمواد التي تساعدهم على ذلك^(٢).

ث. التجارة:

لقد كانت بلاد النوبة مركزاً لممارسة النشاط التجاري منذ القدم؛ فقد شارك المصريون القدماء النوبيين هذا النشاط، وكانت أسوان آنذاك مركزاً لهذا التعامل؛ إذ كانت ترسو فيها القوافل المصرية والنوبية، ويتم تبادل السلع بينهما^(٣)، أمّا الرومان فعلى الرغم من عدم عنايتهم بتجارة البحر الأحمر فإنهم لم يهملوا تجارتي النوبة والسودان، بل حاولوا الحصول على منتجات تلك البلاد؛ فكان يحمل إلى مصر مقادير عظيمة من الذهب والعاج^(٤).

أمّا العرب الذين أتوا إلى مصر في القرن السابع الميلادي فلم تكن تنقصهم الدراية بالتجارة؛ فمنذ الفتح الإسلامي لمصر أخذت قوافل التجار المسلمين تذهب إلى النوبة وتعود بالرقيق، وليس أدل على وجود التعامل التجاري بين مصر والنوبة منذ الفتح العربي الإسلامي من أنّ اتفاقية البقط التي نظمت ذلك التعامل وحددت أصوله؛ فقد نصت تلك المعاهدة على حرية المرور التجاري بين البلدين، "... على أن تدخلوا

(١) الخطط، ٣٥٤/١

(٢) اليعقوبي، تاريخه، ١٩١/١.

(٣) الحويري، أسوان في العصور الوسطى، ص ٩٠.

(٤) مسعد، البجة والعرب في العصور الوسطى، ص ١٤.

بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه، وعليكم من نزل بلدكم أو بطرفه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم"^(١). ومعنى هذا تجار المسلمين كانوا باستطاعتهم أن يتوجهوا إلى بلاد النوبة والإقامة فيها بصفة مؤقتة لحين انتهاء مهامهم التجارية، زيادة على تأمين أموالهم وأنفسهم، ومن المحتمل أن تجار المسلمين من العرب كانوا قد بدأوا يدخلون النوبة قبيل إبرام معاهدة البقط، وأن هذه المعاهدة لم تكن تشجع للمستقبل بقدر ما تفرض حقيقة واقعة^(٢)، والمعروف أن اتفاقية البقط تضمنت أن تستورد مصر الرقيق من النوبة، وفي مقابل ذلك تصدر إليها القمح، والعدس، والحبوب^(٣).

وجرى التبادل التجاري بين مصر والنوبة عقب الفتح العربي الإسلامي في قرية بلاق التي كانت بمنزلة سوق تأتي إليه سفن النوبة والمسلمين من مصر وأسوان^(٤)، ولم يكن اختيار قرية بلاق كأحد الأسواق للتعامل التجاري بين مصر والنوبة اختياراً عفويًا، بل هو اختيار حتمته الظروف الطبيعية في أرض الشلال، تلك البلاد التي كانت صعبة مليئة بالعوائق لا تستطيع المراكب السير فيها^(٥)، وإزاء ذلك كان لابد لسفن النوبة أن تتوقف عند بلاق؛ لعدم استطاعتها السير شمالاً خلال منطقة الشلال الوعرة، كذلك كان من المحتم أن تتوقف سفن المسلمين الآتية من أسوان؛ إذ لا تستطيع السير جنوباً إلا بصعوبة^(٦).

وعلى أية حال لم يكتف تجار النوبة بجلب سلعهم بالسفن إلى بلاق لمقابلة تجار المسلمين وتبادل السلع معهم، بل كانت قوافلهم تأتي إلى أسوان؛ بوصفها أكبر سوق تجاري في جنوب مصر، فضلاً عن أنها السوق الوحيد الذي لا يتجاوزه شمالاً؛ وبذلك

(١) محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، (القاهرة، ١٩٩٨م)، ص ٢٨٦.

(٢) محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، ص ٢٨٦.

(٣) المقريري، الخطط، ٢٠٠/١.

(٤) المسعودي، مروج الذهب، ٢٢/٢.

(٥) المقريري، الخطط، ١٩٠/١.

(٦) الحويري، أسوان في العصور الوسطى، ص ٩٢.

يقول المسعودي (ت ٣٤٦هـ): "النوبة متصلة بتجارتها وقوافلها بمدينة أسوان"^(١)، وأهلها مختلطون بالنوبة.

وإذا كانت تجارة النوبة وقفت عند بلاق أو أسوان ولم تتوغل شمالاً أبعد من ذلك فإنَّ التجار المسلمين كانوا على العكس من ذلك؛ فساروا بسلعهم جنوب قرية القصر (آخر حدّ الشمالي للنوبة المسيحية) حتّى نهاية أرض المريس؛ فأرضها تقع بين الشلالين الأوّل والثّاني خضعت لنفوذ حاكم عرف في المصادر باسم (حاكم الجبل)، ويبدو أنّ صاحب الجبل اتخذ من قرية (المقس الأعلى) عند الشلال الثاني مقرّاً لمباشرة نفوذه؛ فعند تلك القرية لم يكن مسموحاً لأي شخص أن يتجاوز حدودها جنوباً حتّى لو كان ملك من الملوك إلاّ بإذن من ملك النوبة^(٢)، إذا فالأرض التي سمح فيها للتجار المسلمين بمزاولة نشاطهم التجاري كانت تتحصر بين قرية القصر عند الشلال الأوّل حتّى قرية القس الأعلى عند الشلال الثاني، أمّا جنوب تلك القرية فلم يكن مسموحاً لأي تاجر بمزاولة نشاطه فيها^(٣).

وكان التبادل التجاري في أرض المريس بين المسلمين والنوبيين يحصل بطريقتين، الدفع المباشر (النقد) والمقايضة في الجزء الأسفل منها كانت حركة البيع والشراء تحصل بطريقة الدفع أمّا في الجزء الأعلى منها فتتم بطريقة المقايضة، ويقول المقرئزي (ت ٨٤٥هـ): "لا يجوزها (قرية القس الأعلى) دينار ولا درهم، إذ كانوا لا يتبايعون بذلك إلاّ دون الجنادل (شلال وادي حلفا) مع المسلمين وما فوق ذلك لا بيع بينهم ولا شراء وأنما هي معاوضة بالرقيق، والمواشي، والحبال، والحديد، والحبوب"^(٤)، وروي أنّ البيع والشراء في قرية المقس الأعلى كان يحصل بطريقة المقايضة^(٥).

(١) مروج الذهب، ٢/٢٦.

(٢) أبو صالح الأرمني، تاريخه، ص ٦٥.

(٣) المقرئزي، الخطط، ١/٣٥١.

(٤) الخطط، ١/٣٥٢.

(٥) أبو صالح الأرمني، تاريخه، ص ٦٥.

ويبدو أنّ هذا مرتبط بالسيولة النقدية المتوافرة، فضلاً عن حاجة التجار إلى البضائع التي يجدها متوافرة، ولاسيّما في الجزء الأعلى، ورُبّما كان ذلك يتم عليهم مقايضتها مع البضائع التي هم بحاجة إليها.

٣. الحياة الاقتصادية لمملكتي الكانم والبرنو

اعتمد اقتصاد الكانم على الدعائم التقليدية المعروفة في اقتصاديات الدول آنذاك وهي الزراعة، والثروة الحيوانية، وبعض الصناعات التي تعتمد في موادها الأولية على الزراعة والثروة الحيوانية، فضلاً عن التجارة، ويمكن إعطاء صورة متواضعة عنها على النحو الآتي:

أ. الزراعة:

اشتهرت بلاد الكانم بخيرات متنوعة من الزروع، والثمار، والأشجار، وقد أشار القلقشندي (ت ٨٢١هـ) إلى ذلك بالقول: "... غالب عيشهم الأرز، والقمح، والذرة، وبلادهم التين، والليمون، واللفت، والبانجان، والرطب"^(١)، وتتوافر فواكه، وأطعمة، وحشائش أخرى تنمو في هذه البلاد لا تتوفر عند غيرهم^(٢)، وتنمو في هذه البلاد الرمان، والخوخ، وقصب السكر^(٣).

وكثيراً ما ذكر المؤرخون، والجغرافيون، والرحالة هذه المحاصيل، وتبين كثرة الأرز التي تنبت عندهم؛ إذ ينبت من غير بزر^(٤) (برياً)، الذي كان بمنزلة غذاء شعبي رئيس جادت به أرضهم^(٥).

(١) صبح الأعشى، ٢٧٠/٥.

(٢) المقدسي، مُحَمَّد بن أحمد (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: غازي طليعات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، (دمشق، ١٩٨٠م)، ص ٢٤١.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٠/٥.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٠/٥.

(٥) العمري، مسالك الأبصار، ٩٦/٤.

وكذلك اتصفت أرضهم بكثرة إنتاج الذرة، واللوبياء، والقمح^(١)، فضلاً عن غير ذلك من المنتوجات الزراعية^(٢)، أمّا أشجار النخيل نظراً إلى ما تتحمّله من جفاف وعطش، ولا تحتاج إلاّ لليسير من الماء بحكم تكوينها الطبيعي فإنّ ذلك ساعد على انتشارها في أماكن عدّة متفرقة من دولتهم المترامية الأطراف^(٣)، وكذلك عظمت عندهم أشجار الموز^(٤)، واسترعت الأنظار ضخامة أشجار القطن، وكبرها، وما تحمله من الثمار بأقدار كبيرة كانت تسقى من بحيرة كورى^(٥).

أمّا أشجار اليقطينية فكانت غليفة الساق ضخمة الحجم، وقد اشتهرت بها بلادهم؛ فأفادوا منها في صناعة المراكب^(٦)، ولا نعلم على وجه الدقة مدى صحة هذه الروايات التي تتحدث عن اليقطين، وطول سيقانه التي تصلح لصناعة المراكب، ومن المعروف عن هذه الثمار غير ما أشير إليه، وعلى أية حال يمكن القول إنّ الأمر رُبّما فيه نوع من المبالغة.

كذلك اشتهرت مدينة جاجة التابعة لدولة الكانم بخصوبتها وعطائها؛ إذ تنوعت فيها المحاصيل والخيرات، فضلاً عن كثرة شجر الأبنوس فيها^(٧)، والذي يُفاد منه في منافع عدّة، وتوافر بديارهم العنب^(٨)، وبلادهم أشجار التوت التي كانت تطرح كميات

(١) ياقوت، معجم البلدان، ١٤٢/٣.

(٢) ياقوت، معجم البلدان، ٣٩٢/٤؛ الدمشقي، نخبة الدهر، ص ٢٤٠.

(٣) ابن سعيد المغربي، بسط الأرض، ص ٤٩.

(٤) النويري، نهاية الأرب، ص ٢٨٩.

(٥) الدمشقي، نخبة الدهر، ص ٢٤٠. وكورى: هي البحيرة التي يخرج منها نهر غانة، وبحر الحبشة، وهي منسوبة لطائفة من السودان يسكنون حولها متوحشين يأكلون من وقع إليهم من الناس.

المقريري، الخطط، ١٠٠/١.

(٦) العمري، مسالك الأبصار، ٩٦/٤.

(٧) ابن سعيد، بسط الأرض، ص ٣٧؛ الدمشقي، نخبة الدهر، ص ٢٤٠.

(٨) المقريري، الإلمام، ص ١٠٦؛ ابن سعيد، بسط الأرض، ص ٢٨.

كثيرة من ثماره^(١)، واختص أهل الزغاوة^(٢) بالذرة التي كانت أكثر ما يزرعون، إلى جانب جانب بقية أنواع البقول التي كانت تزرع وتنتج، إلا أنَّ كمياتها كانت غير كافية؛ ممَّا يستدعي جلبها أحيانًا من بعض الأماكن الأخرى التي يتعاملون معها^(٣)، كذلك توفر عندهم التين، والليمون، والبادنجان، وغيرها من المحاصيل التي انتشرت في أرجاء المملكة^(٤).

اعتمد أهل جيمي من بلاد الكانم على الآبار في الشرب، واعتمدوا عليها في ري مزروعاتهم، وأنَّ الآبار قد كثرت في أماكن عدَّة^(٥)، إلا أنَّ مياهها بعيدة عن سطح الأرض^(٦).

نستنتج ممَّا تقدّم أنَّ بلاد الكانم كانت ذات أراضي خصبة، وتزرع فيها كثير من المحاصيل الزراعية التي تسد حاجة النَّاس فيها.

ب الثروة الحيوانية والصناعية:

يحدثنا ابن رسته (ت ٣٠٠هـ) عن حيوانات مختلفة الأشكال والأحجام، مثل الفيلة التي كانت كثيرة العدد والطيور التي لم يرَ أعظم منها حجمًا^(٧)، أمَّا ابن سعيد (ت ٦٨٥هـ) فتحدث عن أنواع كثيرة منها في بلاد جاجة؛ إذ يقول: "وهي موصوفة بالخصب، وكثرة الخيرات، وبها: الطواويس، والبيغاء، والدجاج الرقط، والغنم البلق، التي

(١) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ١٢٨.

(٢) الزغاوة: هم شعب مختلط بعناصر زنجية، تمتد أوطانهم من دارفور إلى بحيرة التشاد، وهم مؤسسو

دولة الكانم. المقرئزي، الإمام، ص ١٠٢.

(٣) الإدريسي، المغرب، ص ٣٤-٣٥.

(٤) المقرئزي، الخطط، ١/١٩٣.

(٥) الإدريسي، المغرب، ص ١٢.

(٦) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ١٢٨.

(٧) الأعلاق النفيسة، ص ١٠٠.

على قدر الحمير الصغار، ولها صور تخالف صور كباشنا، والزرافات^(١). يستفيد أهل الكانم من الفيلة في حروبهم الكثيرة التي عرفوا بها في سبيل نصرته الإسلام، ولم يستغلوها في السلم للركوب والنقل، وكانوا يصطادونها بالتحايل عليها، بوضع ورق في الماء وأغصان من نوع معين من بعض الأشجار في الماء، ثم يختفون، وعند عودتهم يجدون الضحايا لا تستطيع الحراك؛ بسبب ما أصابها من خدر وسُكر، ثم يقضون عليها بحرابهم السامة؛ ليستفادوا ببيع أنيابها، ويصنعون من جلدها دروعهم^(٢).

كذلك اصطادوا النمر واستفادوا من جلودها في صنع ملابسهم^(٣)، واشتهرت بخصوبتها، وتوالدها السريع، وهي حسنة النتاج يستفاد من ألبانها، ومستخرجات الألبان من سمن، وجبن، وغير ذلك، ويأكلون لحومها^(٤)، وأعطوا عناية خاصة لتربية الماشية^(٥)، واتخذ أهل الكانم والبرنو من جلود بعض الحيوانات لباس لهم، وذلك بعد دباغتها بمهارة، ومعالجتها، وتفصيلها على زي له وضع مناسب يسهل تشكيله وتثبيته كما يودون^(٦)، وكان ميل الكانميين إلى ارتداء الملابس القصيرة^(٧)، ويكون ذلك راجع إلى طبيعة المناخ عندهم^(٨).

ومن الثروات المهمة في بلاد الكانم الثروة السمكية التي كانوا يصطادونها من بحيرتين هما: بحيرة كوار التي كانوا يصطادون منها سمك البوري، الذي يُعدُّ من أفضل

(١) بسط الأرض، ص ٤٨؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ص ١٦٣.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، ١/٢٤٠.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، ١/٢٣٦.

(٤) الإدريسي، المغرب، ص ٣٤.

(٥) ياقوت، معجم البلدان، ٤/٣٩٢.

(٦) المسعودي، مروج الذهب، ١/٢٣٦.

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ٥/٢٧١.

(٨) القزويني، آثار البلاد، ص ٢٤.

أنواع الأسماك^(١)، وبحيرة شوك، التي تميز بأثنا عذبة، ولم تكن عميقة؛ ممّا سهل صيد الأسماك منها، وكثرة ما فيها من الحوت الذي يكثر شوكة^(٢)، ويبدو أنّ البحيرة استمدت اسمها منه.

والى جانب الزراعة والثروة الحيوانية عرف أهل الكانم والبرنو بعض الصناعات الحرفية، ومن أهم تلك الصناعات هي: الصناعات الفخارية، التي استعملوها كثيراً؛ فطوّروها وعملوا منها تماثيل راقية^(٣)؛ فامتزجت الصناعة بالفن، ولما كان القرع وهو نبات أشبه بالبطيخ يترك حتى يجف، ثمّ يستخرج ما بداخل متوافر في بلاد السودان كافة، وأنهم شقوها نصفين، وعملوا منها جفاناً وزينوها من الخارج بنقوش عليها رسومات جميلة تظهر درايتهم وبراعة فنهم الشيء الذي يسر النفس ويريحها، واستعملوها كأواني يأكلون فيها، ويشربون بها في الحل والترحال^(٤)، وهكذا اقترن الجانب العملي بالفني، وهناك ما يدلّ على أنّ بلاديّ الكانم والبرنو قد صنعت أنواعاً من الأقداح المنحوتة من سيقان الأشجار، وكانت ذات أشكال متنوعة^(٥)، ومن الحرف التي انتشرت في بلاديّ الكانم والبرنو حرفة النسيج بعد انتشار الإسلام لصناعة الملابس والعمائم، التي كانوا يرتدونها^(٦)، وكان صناعة الأدوات الحربية من الصناعات المهمة أيضاً^(٧)، كان لصناعاتي الدباغة والجلود عناية أيضاً من لدن أهل الكانم والبرنو^(٨).

(١) الدمشقي، نخبة الدهر، ص ١١٠.

(٢) ابن سعيد، بسط الأرض، ص ٤٨.

(٣) زكي، عبدالرحمن، الإسلام والمسلمين في غرب إفريقيا، مطبعة يوسف، (القاهرة، د.ت)، ص ٦٢.

(٤) ابن بطوطة، رحلته، ص ٦٧٩.

(٥) بن يوسف، إبراهيم صالح، تاريخ الإسلام وحياة العرب في إمبراطورية كانم وبرنو، جامعة الخرطوم، الخرطوم، (السودان، ١٩٧٠م)، ص ٦٧.

(٦) ابن حوقل، صورة الأرض، ١/٨٤.

(٧) الدمشقي، نخبة الدهر، ص ١١٠.

(٨) الإدريسي، نزهة المشتاق، ١/٣٥.

ت. التجارة الكارمية:

يتطلب تسجيل أحداث إمبراطورية الكانم، ولاسيما الجانبين الاقتصادي والتجاري إلى عدم إغفال التجارة الكارمية، التي عاشت وازدهرت في العصور الوسطى؛ فقد حظي لفظ كارمية بعناية المؤلفين؛ إذ خاض الباحثون دراسته؛ محاولين رده إلى جذوره وأصوله الأولى؛ وذلك لارتباطها بتجارة احتلت مكانة بارزة^(١)، ونقل لنا القلقشندي (ت ٨٢١هـ) ما دارَ على الألسن من أنَّ الكارم هي الكانم^(٢)، وأطلق اصطلاح (تجارة الكارم) عموماً على التجار الذين كانَ أغلبهم في البدء من أهل كانم الإسلامية^(٣).

ويرجع نشأة التجارة الكارمية قبل العصر المملوكي؛ نستخلص ذلك مما أورده القلقشندي (ت ٨٢١هـ) عن عناية الدولة الفاطمية (٣٥٩-٥٦٧هـ) بهم، والعمل على حمايتهم من القراصنة والمنبثين من جزر الأحمر، وقد حدثت الدولة الفاطمية لهذا الغرض عددًا من المراكب كانَ مقرها ميناء عيذاب^(٤).

إنَّ أهم السلع التي كانوا يتاجرون فيها البهار الفلفل، والقرنفل، وغيرها مما كانَ يجلب من اليمن والهند^(٥)، وأنَّهم أسهموا في تجارات أخرى فضلاً عن تجارة البهار، ومنها الحاصلات الزراعية، والملبوسات، والحريير الخام، والأعشاب، وأدوات الزينة، والأسلحة، إلا أنَّ تجارة التوابل كانت هي تجارتهم الأولى^(٦)، وكان لهم نشاط كبير في المحيط الهندي وعلى الشاطئ الغربي للهند، وقد اشتهرت مدينة قوص المصرية كمركز

(١) عاشور، سعيد عبدالفتاح، العصر المملوكي في مصر والشام، ط ٢، دار النهضة العربية، (القاهرة، ١٩٧٦م)، ص ٢٩٠، ٢٩١.

(٢) صبح الأعشى، ٢٢/٤.

(٣) المقرئزي، السلوك، ٣٤/٢.

(٤) صبح الأعشى، ٥١٤/٣.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٢/٤.

(٦) المقرئزي، السلوك، ٣٤/٢.

تجاري مهم لهم^(١)، وترد إليه منتجات، وسلع، وبضائع من جهات إفريقيا الوسطى، وغرب اليمن، والحبشة، والهند، والصين^(٢)، وكوّن الكارمية لأنفسهم نقابة في قوص هيمنت على تجارة التوابل، والبخور، والعاج، واحتكرتها أحيانًا، ورئيسهم معترف به من لدن حكومة المماليك يطلق عليه اسم رئيس الكارمية^(٣)، وكان على جانب كبير من التدبير، كانوا يجعلون لهم عملاء ووكلاء من أهلهم في بلادهم^(٤).

ث. الأوزان:

عرف التجار في معاملاتهم التجارية وحدات الوزن التي استعملت في وزن كثير من الأشياء المختلفة في بلاد السودان الأوسط، وعرفت معاملات التجار تشابهًا في وحدة وسائل الوزن لدى مجتمع طرفي الصحراء^(٥)، وكانت تمثل المكايل والأوزان عنصرًا أساسًا من عناصر تبادل السلع إلى جانب النقود؛ فبالنسبة إلى البيع والشراء هناك سلع قابلة للعدّ مثل الحيوانات إلى غير ذلك، وكان أغلب الأحيان عدّها وفرزها، ومن هنا توفرت الموازين في بلاد السودان والأوسط.

– **المثقال:** يساوي وزن اثنين وسبعين حبة من حبات القمح المتوسط الحجم ويقدر وزن المثال بنحو أربعة غرامات من الذهب^(٦).

– **الدرهم:** يساوي أعشار المثقال^(٧).

(١) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١٧٤؛ الإدريسي، المغرب، ص ٤٩.

(٢) عاشور، العصور المملوكي، ص ٢٩٠.

(٣) ابن حجر، الدرر، ٣٨٣/٢.

(٤) المقرئزي، السلوك، ٣٤/٢.

(٥) الطيف، علي حامد خليفة، المراكز التجارية الليبية وعلاقتها مع ممالك السودان الأوسط وأثرها على الحياة الاجتماعية في القرن الثامن والتاسع الهجري، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، (ليبيا، ٢٠٠٣م)، ص ١١٧.

(٦) الطيف، المراكز التجارية الليبية، ص ١١٧.

(٧) زيادية، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، ص ٥٤.

وقد اختلفت الموازين لدى التجار من بلدة إلى أخرى على حسب ما هو متعارف عليه فقد كان الميزان الأقدري، والمقدامسي، والكانمي^(١)، والكيل، والحفصي، والرطل الإفريقي^(٢).

ج. العملة:

عرفت بلاد السودان الأوسط (الكانم والبرنو) أنواعاً مختلفة من العملات ووسائل التعامل التجاري؛ لأنها ضرورة لازمة لتسيير عمليات التبادل التجاري، ومن هذه العملات الثياب^(٣)؛ إذ استعملت بوصفها عملة لتقييم البضائع في بلاد السودان الأوسط، ومعاملتهم بقماش ينسج عندهم اسمه دندي طول كل ثوب عشر أذرع فأكثر، فضلاً عن هذا فإنهم "يتعاملون أيضاً بالودع، والخرز، والنحاس المكسر، والورق؛ لكن جميعها يسعر بذلك القماش"^(٤)، أمّا الودع فإنه من الصدف، وندرته استعمل في الأسواق عمله للبيع والشراء^(٥)، وأنّ الودع كان يرد إلى بلاد السودان الأوسط من شرق إفريقيا والهند بوساطة تجار بلاد المغرب^(٦)، وأنّ كل أربعمئة ودعة تساوي أوقية^(٧)، وحدة من الذهب، غير أنّ قيمته ظلت غير ثابتة تزيد وتنقص بحسب وفرته وندرته^(٨).

(١) الطيف، المراكز التجارية الليبية، ص ١١٨.

(٢) الفلقشندي، صبح الأعشى، ١٦٩/٨.

(٣) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٠/٥.

(٤) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٠/٥.

(٥) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٠/٥.

(٦) حسن الوزان، وصف إفريقيا، ص ٥٣٧.

(٧) الأوقية: هي من أشهر الموازين التي كانت سائدة في الجزيرة العربية، وأجمع العلماء على أنّ

الأوقية تساوي أربعين درهم. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر، (ت ٨٤٥هـ/

٤٢٢م)، النقود الإسلامية، ط ٥، المكتبة الحيدرية، (النجف، ١٩٦٧م)، ص ٢٩؛ وينظر: مُحَمَّد،

المكاييل والموازين الشرعية، ص ٢١.

(٨) حسن الوزان، وصف إفريقيا، ص ٥٤١.

٤. الحياة الاقتصادية لمملكة مالي.

أ. الزراعة:

تمثل الزراعة الحرفة الرئيسة والمصدر الأساس للغالبية العظمى من سكان هذه البلاد، وتتمركز الزراعة بصورة عامة على جانبي نهر النيجر؛ إذ إنَّه يشقُّ أرض السودان^(١)، وكذلك نهر السنغال، والنيل وفروعهما، وكانت الزراعة في الأماكن القريبة من الأنهار تعتمد على مياه الأنهار في إروائها، أمَّا الأماكن البعيدة عن مسالك الأنهار فاعتمدت على مياه الأمطار ومياه الآبار^(٢)، وأنَّ المحاصيل الزراعية التي كانت تزرع في بلاد السودان الغربي (مالي)، منها: الأرز، وكان غالب قوتهم منه^(٣)، وكذلك الذرة وهي كثيرة عندهم، ومنها طعامهم واستعملوها علفًا لخيولهم ودوابهم^(٤)، و"الذرة لهم فيها قوت وعلف خيلهم وطعم دوابهم"^(٥)، كما زرع سكان مالي القمح، إلاَّ أنَّ زراعته كانت قليلة^(٦)؛ فهم "لا حنطة لهم"^(٧)؛ إذ إنَّ زراعة هذه المحاصيل كانت نادرة وغير متوافرة لديهم، إنَّما كان يجلب بصورة عامة عن طريق التجارة؛ لذلك كانت أثمانه عالية جدًا،

(١) حسن الوزان، وصف إفريقيا، ص ٣٠.

(٢) ابن سعيد، بسط الأرض، ص ٢٤.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٧/٥.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٧/٥.

(٥) العمري، مسالك الأبصار، ١٠٤/٤.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٧/٥.

(٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٢١/١.

ولا يمكن الحصول عليها، إلا أهل اليسار، أمّا عامة النَّاس فكان طعامهم الذرة والأرز^(١).

واشتهرت مالي بزراعة الجميز وهو شجر ثمرة التين أحمر اللون حلو المذاق، كبير، وهو كثير عندهم، وعندهم أشجار برية نوات ثمار مستطابة منها شجر يسمى تادموت يحمل في داخلها شيء يشبه بدقيق الحنطة أبيض طعمه لذيذ يأكلون منه^(٢)، وعندهم أشجار تسمى زيزور تخرج ثماره مثل قرون الخروف، ويخرج منها شيء يشبه بالدقيق حلو لذيذ الطعم له نوى، ومن الأشجار الموجودة في السودان الغربي (مالي) شجر قومي يحمل شبيه السفرجل طعمه لذيذ يشبه طعم الموز^(٣)، وكذلك عرف عندهم شجر اسمه فاريتي، ثماره شبيهة بالليمون وطعمه يشبه طعم الكمثرى ويدخله نوى^(٤). وكانت تنمو عندهم أشجار برية ثمارها أشبه بالفواكه البستانية؛ لكنها لا تسطاب بأكلها وهي قوت الكثير منهم^(٥).

أمّا الخضراوات فقد زرع سكان مالي اللوبيا، واللفت، والثوم، والقرع، والبصل، والباذنجان، والكرنب، أمّا الملوخية فقد نبتت في البراري^(٦)، وقد كثر عندهم نبات القرع؛ القرع؛ فكانوا يستعملونه في غذائهم، ويصنعون منه أواني يزينونها بالنقوش يستعملوها في حياتهم اليومية^(٧)، وأنّ جبال بلاد مالي ذات غابات كثيفة بها أشجار مثمرة^(٨)، وبها

(١) نوري، دريد عبدالقادر، تاريخ الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء من القرن ٤هـ - ١٠هـ، المكتبة الوطنية، (بغداد، ١٩٨٥م)، ص ٢٢٩.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٧/٥؛ العمري، مسالك الأبصار، ١٠٥/٤.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٧/٥؛ العمري، مسالك الأبصار، ١٠٥/٤.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٧/٥؛ المنجد، صلاح الدين، مملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين، المسلمين، (بيروت، ١٩٦٣م)، ص ١١٤.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٧/٥.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٧/٥؛ العمري، مسالك الأبصار، ١٠٥/٤.

(٧) حسن الوزان، وصف إفريقيا، ص ١٧١.

(٨) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٨/٥؛ ابن بطوطة، رحلته، ص ٦٧٩-٦٨٠.

وبها أشجار مثمرة أشبه بالنتفاح، والمشمش، والخوخ، وهناك أشجار يستخرج من ثمارها دقيق، يستعمله التجار في مبادلاتهم التجارية وفي الأسواق، وكانوا يجمعون من الأرض حبوباً شبيهة بالفل، يقلونها ويأكلونها^(١)، ممّا سبق يتضح أنّ الزراعة هي عماد الحياة الرئيس في حياة سكان مالي.

ب. الثروة الحيوانية:

تميزت بلاد السودان الغربي بامتلاكها ثروة حيوانية كبيرة شملت أنواعاً مختلفة من الحيوانات، ومنها الأليفة، والبرية، ومنها الوحشية، وأنواع مختلفة من الطيور. ومن الحيوانات في مالي الخيل، ولم تكن مثل الخيول العربيّة، وإنّما كانت من نوع (الأكاديش التتريّة)، أمّا الخيول العربيّة فكانت تستورد عن طريق التجار، تجلب الخيل العرب إلى ملوكهم يتغالون في أثمانها...^(٢)، كذلك عندهم البغال، والحمير، والبقر، والغنم؛ ولكن كلّها صغيرة الجثة، وكذلك عندهم الماعز؛ إذ تلد الواحدة منها سبع أو ثمانية^(٣)، وكان يربى في الأماكن الشمالية أكثر من الجنوبية^(٤)، وعندهم من الحيوانات الوحشية الفيلة، والأسود، والنمور^(٥).

وقد مارس سكان السودان الغربي حرفة صيد الحيوانات البرية المتوحشة، ومنها الفيلة؛ إذ يصطادونها بالسهم، ويقتلونها، ويستفيدون من لحومها، وأنيابها، ويبيعونها للتجار المغاربة، وتتوفر لديهم من الحيوانات البرية الزرافة، التي تعيش في الغابات؛ فكانوا يصطادون الزرافة الصغيرة؛ لسهولة الحصول عليها، ويستعملون جلودها في الزينة، ومن حيواناتهم البرية الأسود، والبقر الوحشي، ووحيد القرن، والنمور، التي

(١) ابن بطوطة، رحلته، ص ٦٨١.

(٢) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٦/٥؛ العمري، مسالك الأبحار، ١٠٦/٤.

(٣) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٦/٥.

(٤) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص ١٩٥.

(٥) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٦/٥.

يستفيدون من جلودها في حفظ ملابسهم^(١)، وعندهم وحش يسمى (ترمي) في حجم الذئب، يولد من الذئب والضبع، أسنانه متداخلة، وصوته كالثور، يأكل الأطفال الصغار في الليل، ولا يتعرض لأحد في النهار^(٢)، وعندهم تماسيح عظام يكون حجم الواحدة عشر أذرع فما فوق، وقد استفاد السودان من مرارته التي كانت مادة سامة يجمعها الصيادون ويحملونها إلى خزانة الملك^(٣)، ومقابل أجور مرتفعة وعلى ما يبدو فالملك كان يستفيد من مرارة التماسيح السامة للأغراض العسكرية، أو صيد الحيوانات الوحشية؛ إذ يستعمل في تطيخ رؤوس السيوف، والرماح، والنبال، ونظرًا إلى خطورة تلك المادة كان الصيادون يسلمونها إلى خزانة الملك؛ خوفًا من وقوعها بيد بعض المجرمين؛ فيستعملونها لأغراض شخصية^(٤)، أمّا بالنسبة إلى الطيور والدواجن فقد توفر في بلاد مالي الأوز، والدجاج، والحمام^(٥)، يتاجر به خارج بلادهم طير النعام، الذي يستفاد من ريشة بأنه يصدر إلى الخارج السودان الغربي؛ إذ يجلب لهم أموالًا كثيرة^(٦).

ت. المعادن:

كانت لبلاد السودان الغربي (مالي) ثروة معدنية يفوق عائدها الاقتصادي الثروة الزراعية والثروة الحيوانية، وتشمل معادن جدًا مهمة، منها: الذهب، والنحاس، والملح^(٧).

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٢٠/١-٢١؛ حسن الوزان، وصف إفريقيا، ص ٢٦٩؛ الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا ما وراء الصحراء، ص ٢٧٦.

(٢) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٦/٥؛ العمري، مسالك الأبصار، ١٠٦/٤.

(٣) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٦/٥؛ العمري، مسالك الأبصار، ١٠٦/٤.

(٤) نوري، تاريخ الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، ص ٢٤٨.

(٥) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٦/٥.

(٦) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص ٣٧.

(٧) الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء، ص ٢٨١.

ويعدّ معدن الذهب من أهم المعادن، وقد ذكر القلقشندي (ت ٨٢١هـ) أنّه يتوفر نوعين، نوع ينبت في الصحراء في شهر الربيع، وله ورق شبيه بالنخيل، ينبت بعد تساقط الأمطار، أمّا النوع الثاني فيتوفر في أماكن معروفة على ضفاف مجاري النيل (نهر النيجر)، وتحفر هناك حفائر فيتوفر فيها الذهب كالحجارة، والحصى، وكلاهما يسمى بالتبر، وأنّ النوع الأول أفضل في الوزن والقيمة المالية^(١)، وهناك مبالغة رُبّما فيما أورده القلقشندي من أنّ الذهب يزرع ويخرج في الصحراء بعد سقوط المطر؛ لأنّ الذهب معدنًا وليس نباتًا، ويبدو أنّ كثرة الذهب في تلك البلاد رُبّما جعل القلقشندي يتوهم ويجعله أشبه بالمزروعات التي تنبت.

ويذكر أنّ أهالي السودان الغربي (مالي) كانوا يذهبون إلى جزيرة ونقاوة^(٢) بعد فيضان نهر النيجر، ويبدؤون بجمع الذهب الذي جلبته مياه النهر في أثناء الفيضان، ثمّ يبيعونه إلى التجار؛ فذكر الإدريسي (ت ٥٦٠هـ): "إذا حمى القيظ، وخرج النيل (نهر النيجر) فاض وغطى هذه الجزيرة أو أكثرها، وقام عليها مُدّة... ثمّ يأخذ في الرجوع؛ فإذا أخذ في الرجوع رجع كلّ من في بلاد السودان منحشرين إلى تلك الجزيرة؛ بحثًا طول أيام رجوع النيل، كلّ إنسان منهم في بحثه هناك ما أعطى الله من التبر، ولا يخيب منهم أحد؛ فإذا عاد النيل إلى حدّه باع النَّاس ما حصل بأيديهم من التبر، وتاجر بعضهم مع بعض... وهكذا في كلّ سنة، وهو أكبر غلة عند السودان، وعليها يعولون صغيرهم وكبيرهم"^(٣).

(١) صبح الأعشى، ٢٧٨/٥.

(٢) جزيرة ونقاوة: وهي جزيرة في بلاد السودان الغربي، طولها ثلاث مائة ميلاً وعرضها مائة وخمسون ميلاً، والنيل يحيط بها من كلّ جهة، تقع على بُعد ثمانية أيام جنوب غانة، وهي بلاد التبر. الإدريسي، نزهة المشتاق، ٢٤/١.

(٣) نزهة المشتاق، ٢٤/١؛ نوري، تاريخ الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، ص ٢٣٣.

أمّا القلقشندي (ت ٨٢١هـ) فقد ذكر أنّ الذهب كانَ حمى للسلطان، يجمع له المتحصلة كالقطيعة^(١).

إنّ أهم الأماكن توافر الذهب في جنوب غانة، وتتحصر تلك الأماكن في جزيرة ونقاوة، وتلك الجزيرة لا تحتوي على مناجم الذهب، وإنّما يأتي إليها الذهب من مناجمه الأصلية الموجودة في أعالي الجبال الجنوبية لأرض السودان الغربي؛ إذ يسيل الذهب منجرّفاً مع الأتربة والحجارة إليها؛ ليستقر فيما بعد انتهاء موسم الفيضان؛ لأنّ أرض تلك الجزيرة منبسطة أكثر من غيرها تساعد على قيام عملية الترسبات^(٢).

أمّا المعدن الآخر في بلاد مالي فهو معدن النحاس، وهو غير موجود في بلاد السودان سوى في مدينة تكوا^(٣) (تكدا)، وهو معدن أحمر، يجلب منه قضبان إلى مدينة بني قاعدة مالي، ويبيع وزن المتقال بثلثي وزنه من الذهب؛ إذ يباع كلّ مئة مثقال من النحاس بستة وستين مثقالاً وثلثي المتقال من الذهب^(٤)، وتأتي أهمية معدن النحاس بعد معدن الذهب؛ وذلك للحاجة الماسة إليه في الصناعات الحربية، والزينة، وصناعة الأواني، وغيرها؛ فقد تصنع منه أشكال فنية ومصنوعات بسيطة، وأغمدة السيوف^(٥).

(١) صبح الأعشى، ٢٧٩/٥؛ العمري، مسالك الأبصار، ١٠٨/٤.

(٢) نوري، تاريخ الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، ص ٢١٠.

(٣) تكدا: من أهم مدن مملكة مالي، تقع في الجنوب الغربي من مدينة تنبكت بنحو أربعمئة وخمسين كيلومتراً، وهي المحط الرئيس لخط القوافل الممتد من المغرب العربيّ إلى السودان الغربي، وزادت أهميتها بعد اكتشاف النحاس بها؛ إذ كان يمر بها سنويّاً قافلة من اثني عشر ألف جمل في طريقها من مالي إلى القاهرة. ينظر: ابن بطوطة، رحلته، ٢٧٤/٤؛ طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص ١٣٩؛ الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء، ص ٣١٠.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٩/٥.

(٥) الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء، ص ٢٨٥.

أما المعدن الآخر الموجود في بلاد مالي فهو الملح^(١)، ويتوفر في مدينة تغازة، التي تُعدُّ مصدرًا أساسًا لتزويد السودان بالملح، وهي قرية من عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح، وسقفها من جلود الجمال، ولا شجر بها، وإنما هي رمل به معدن الملح، يحفر عليه في الأرض؛ فيتوفر منه ألواح ضخام متراكبة، كأنها قد نحتت ووضعت تحت الأرض^(٢)، وتقع تغازة في الجنوب على بُعد (٢٢) يومًا من أيولاتن^(٣)، ولا يسكنها إلا العبيد الذين يحفرون على الملح^(٤).

ويتوفر فيها العديد من المناجم؛ إذ يستخرج الملح من حفر تحيط بها أكواخ عدّة، يسكنها المستعملون في استخراج الملح، وهم ليسوا من سُكان البلدة، وإنما يأتون مع القوافل بوصفهم عمال مناجم يستخرجون الملح ويحتفظون به، حتى تأتي القافلة لشرائه منهم^(٥)، إذ كان الملح معدومًا داخل بلاد السودان^(٦).

ث. التجارة:

كانت التجارة من أهم موارد دولة مالي، إذ كان الاتصال بين السودان الغربي والعالم الخارجي قائمًا لمُدّة طويلة؛ فكانت بعض الطوائف من عامة أهل المغرب من صغار التجار، والصناع، والحرفيين يأتون إلى السودان الغربي وبقيمون فيه^(٧)، وقد اشتهرت في بلاد السودان الغربي (مالي) نوع من التجارة سميت بالتجارة الصامتة، ذكر ذلك القلقشندي (ت ٨٢١هـ) قائلاً: إن أمم السودان كانت لا تظهر لتجار الملح، بل إذا

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٩/٥.

(٢) ابن بطوطة، رحلته، ص ٦٧٤.

(٣) حسن الوزان، وصف إفريقيا، ص ١٦١. أيولاتن: وهي مملكة صغيرة من ممالك السودان، ليس بها أماكن مسكونة سوى ثلاث قرى كبيرة، تبعد (١٩٠٠ كم) جنوب نون، و(٤٥٠ كم) غرب تنبكت.

حسن الوزان، وصف إفريقيا، ص ١٦١.

(٤) ابن بطوطة، رحلته، ٦٧٤.

(٥) حسن الوزان، وصف إفريقيا، ص ١٠٨.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٠/٥.

(٧) طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص ١٣٧-١٣٨.

جاء التجار بالملح وضعوه، ثم غابوا، فيأتي السودانيون فيضعون مكانه ذهب؛ فإذا أخذ التجار الذهب أخذ السودان الملح^(١).

وتعني التجارة الصامتة أن يأتي التجار بالملح ويضعونه في مكان متفق عليه بين تجار الشمال ومستهلكي الجنوب، ثم يختفون ويخرج الزوج الوثنيين العرارة، ويضعون بجوار كل كومة من الملح أو السلع الأخرى ما يروونه نظيراً من الذهب، ثم يختفون، فيظهر التجار، فإذا اقتنعوا بقيمة سلعهم من الذهب حملوه وانصرفوا بعد أن يضربوا طبولهم أذاناً بانتهاء السوق، وإذا لم يقتنعوا بالذهب الموضوع تركوه واختفوا مرة أخرى؛ فيخرج الزوج ويزيدون من كميات الذهب، وتتكرر عملية الاختفاء والظهور من الجانبين حتى يتم الرضاء والافتناع، ولم يكن الملح هو الذي يسوق في تلك المناطق عن طريق التجارة الصامتة، بل كانت تلك الطريقة هي الشائعة في التعامل في شتى السلع^(٢).

وحاول التجار في إحدى المرات اكتشاف مصدر الذهب؛ وذلك عن طريق الخيانة؛ إذ قبضوا على أحد الزوج؛ ولكنه فضل الموت على أن يقول كلمة واحدة؛ ونتيجة لما حدث توقفت حركة التجارة مدة ثلاثة أعوام، وعادت بعد ذلك؛ لعدم وجود وسيلة أخرى أمامهم للحصول على الملح^(٣).

وعندما نشطت حركة التجارة وتضاعفت أحجامها لم تعد تلك الطريقة في التبادل التجاري تلقى رواجاً؛ فبدأ ظهور العملات الذهبية والنحاسية إلى جانب بعض السلع الأخرى، التي صارت لها قوة النقد^(٤).

وقد ذكر ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ) في كتابه في أثناء تجواله في السودان وهو يحمل قطع الملح وحلى الزجاج وبعض السلع العطرية؛ ليستبدل بها الدجاج والدقيق، قائلاً عن ذلك: "والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زاداً، ولا أداماً، ولا ديناراً، ولا درهماً، وإنما

(١) صبح الأعشى، ٢٨٠/٥.

(٢) القرويني، آثار البلاد، ص ١٩؛ وإبراهيم طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص ١٤١.

(٣) بوفيل، الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى، ترجمة: زاهر رياض، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة، ١٩٦٨م)، ص ١١٠.

(٤) الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء، ص ٣٣٩-٣٤٠.

يحمل قطع الملح وحلى الزجاج، الذي يسميه النَّاس النظم، وبعض السلع العطرية؛ ليستبدل بها الدجاج والدقيق^(١)، ولم تقتصر المبادلة على مادة الملح؛ ففي الأماكن التي يقل فيها الملح أو ينعدم يتم التبادل بالمواد المحلية؛ فأهل مالي تعاملوا بالذرة، والقمح، والنحاس^(٢).

ويبدو أنَّ السبب في ذلك هو لكي لا يتعرف القادمون للتجارة على أحد منهم، ومن ثمَّ يمكن مساومته بطريقة أو بأخرى، ويدلهم على أسرار استخراج بضاعتهم من الملح وموضعها، ثمَّ قاد الأمر فيما بعد إلى أنَّ يصبح هذا الأسلوب في التبادل معتادًا ومتعارفًا عليه، وجزءًا من العرف الاجتماعي في تلك البلاد.

ج. وسائل التعامل التجاري:

في الواقع أنَّ أساليب التعامل التجاري اختلفت من بلد إلى آخر، بل من مدينة لأخرى، وإنَّ كانت المقايضة هي السمة الغالبة للتبادل التجاري في أغلب أنحاء إفريقيا، ولاسيَّما في أثناء حكم إمبراطورية مالي، وهي على النحو الآتي:

أولاً: المقايضة:

كانت المقايضة إحدى الوسائل التي يتعامل بها تجار السودان الغربي مع تجار الشمال الإفريقي منذ أقدم العصور؛ إذ ذكر القلقشندي (ت ٨٢١هـ) استبدالهم الذهب بالملح^(٣)، وكانوا يسيرون بعناء شديد حتَّى يصلوا الموضع الذي يفصل بينهم وبين أصحاب التبر، وبعد ذلك يضربوا طبولًا ليعلم القوم وصول القوافل، يُقال إنَّهم في مكان وأسراب من الحر، وعراة كالبهائم، لا يعرفون الستر، ويلبسون شيئًا من جلود الحيوان، فإذا علم التجار أنَّهم سمعوا صوت الطبل أخرجوا ما معهم من بضائع؛ فوضع كلُّ تاجر بضاعته في جهة منفردة عن الآخر، وذهبوا وعادوا مرحلة، فيأتي السودان بالتبر ووضعو بجانب كلِّ متاع شيئًا من التبر وانصرفوا، ثمَّ يأتي التجار بعدهم فيأخذ كلُّ واحد

(١) رحلة ابن بطوطة، ص ٦٨٠.

(٢) البكري، المسالك والممالك، ص ١٧٣.

(٣) صبح الأعشى، ٢٨٠/٥.

منهم ما وجد بجانب بضاعته من التبر ويترك البضاعة وضربوا بالطبول وانصرفوا، ولا يذكر أحد من التاجر أنه رأى أحد منهم^(١).

وكذلك تعاملوا بالنحاس الذي يسكبونه؛ فإذا سكبوه نحاساً أحمر صنعوا منه قضبان في طول شبر ونصف، بعضها رقاق وبعضها غلاظ؛ فتباع الغلاظ منها بحساب أربعمئة قضيب بمئقال الذهب، وتباع الرقاق بحساب ستمائة وسبعمئة بمئقال، وهي صرفهم يشترون برفاقها اللحم والحطب، ويشترون بغلاظها العبيد، والخدم، والذرة، والسمن، والقمح^(٢). ويظهر أن التعامل بالنحاس لم يكن منتشرًا بالبلاد؛ ولكن كان مقتصورًا على بلاد تكدا ونواحيها، وكان سعر النحاس مرتفعًا؛ إذ تباع كل مئة مثقال من النحاس بستة وستين مثقالًا وتلثي المثقال من الذهب^(٣).

ثانيًا: الودع:

ذكر الرحالة والجغرافيون أن من العملات التجارية المتداولة في بلاد السودان الغربي الودع، وأن التجار تجلبه إليهم كثيرًا^(٤)، وأحضره التجار بكميات كبيرة؛ لقوته الشرائية الجيدة، من بلاد المغرب الأقصى والأندلس^(٥)، ويصل عن طريق التجار العرب من سواحل المحيط الهندي^(٦)، وكان الودع يستعمل في المبيعات الصغيرة والمبايعة في بلاد التكرور بالودع، وأن التجار أكثر ما تجلب إليهم الودع وتستفيد به فائدة جلية^(٧).

ثالثًا: النقود الذهبية:

عدّ الذهب من العملات الأساسية^(٨)، وأن العملة الرائجة عند هؤلاء السودانين هي الذهب غير المسكوك؛ أي التبر^(٩)، وفي تنبكت يستعمل الذهب الخالص بوصفه

(١) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ١٩.

(٢) ابن بطوطة، رحلته، ص ٦٩٧.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٩/٥.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٠/٥.

(٥) البكري، المسالك والممالك، ص ١٧٩.

(٦) الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء، ص ٣٤٠.

(٧) العمري، مسالك الأبصار، ١٢٢/٤.

(٨) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٠/٥.

(٩) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ص ١٦٣.

مقياسًا للقيمة بدلًا من العملة المسكوكة^(١)، وأنَّ النقود المتداولة التي تضرب في إمبراطورية مالي تتشكل من قطع صغيرة من الذهب الخالص الناعم، أمَّا المعاملات العادية تتم بنقود معدنية حلزونية الشكل، مضروبة في بلاد فارس، تعادل أربعمئة قطعة منها مثقال من الذهب^(٢).

٥. الحياة الاقتصادية لمملكة الحبشة.

اشتملت الحياة الاقتصادية لمملكة الحبشة على الزراعة، والصناعة، والتجارة، متأثرين بجيرانهم عرب الجنوب وعلى النحو الآتي:

أ. الزراعة:

اعتنى الأحباش في مجال الزراعة؛ إذ قاموا باستصلاح التربة؛ الأمر الذي نتج عنه اتساع رقعة الأراضي الزراعية، وتضاعف الإنتاج، وكذلك تنوع المحاصيل الزراعية^(٣)، وتعتمد الزراعة في بلاد الحبشة على الأمطار؛ إذ إنَّها تتمتع بمواسم لسقوط لسقوط المطر؛ ممَّا ساعد على تنوع الغلات^(٤)، وقد أشار إلى ذلك القلقشندي (ت ٨٢١هـ) بقوله: "بها من الحبوب الحنطة، والشعير، والحمص، والعدس، والبسلا، وحب يسمى قنابهل يستعملونه قوتًا كالحنطة، والحنطة عندهم على مثال الحنطة الشامية، والشعير حب عندهم أكبر من حبة الشعير المصرية، والشامية، وعندهم حب يسمى طافي على قدر الخردل لونه إلى الحمرة ومكسرة إلى السواد يتخذون منه الخبز"^(٥)، ويتوفر في بعض أقاليم الحبشة حب شبيه بالحنطة، إلا أنَّ له قشرين، ينزع

(١) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ص ١٦٧.

(٢) كريخال، مارامول، إفريقيا، ترجمة: مُحَمَّد حجي وآخرون، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، (الرباط، ١٩٨٩م)، ص ٤٠٧.

(٣) أبو بكر، مُحَمَّد عثمان، تاريخ إثيوبيا المعاصر أرضًا وشعبًا، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، المطبوعات، (القاهرة، ١٩٩٤م)، ص ١٨.

(٤) المقرئزي، الإمام، ص ٧٨.

(٥) صبح الأعشى، ٢٩٢/٥-٣١٥.

قشرة بالهرس كالأرز، ويتخذون منه طعام، ويسد حاجتهم بدل الحنطة، وتكثر عندهم حبوب الكتان والرشاد^(١).

أمَّا الخضروات فهي كثيرة، مثل: الكزبرة الخضراء، والثوم، والبصل، والريحان، والقرنفل، واللوبيا، والكرنب، والبادنجان، والشمار، والزعتر، أمَّا الملوخيا؛ فإنها تنبت عندهم في البراري^(٢).

أمَّا أنواع الفواكه الموجودة في بلاد الحبشة فهي أنواع منها القرع والبطيخ؛ ولكنه من النوع الصغير يتوفر في بعض أقاليم الحبشة^(٣)، ويتوفر عندهم العنب الأسود على قلته، ويتوفر التين وأصناف الحوامض، مثل: الاترج، والليمون، وقليل من النارج، ويتوفر في بلاد الحبشة تين بري، وخوخ بري أيضًا، وعندهم أصناف من الفواكه لا تعرف بمصر، والشام، والعراق^(٤)، وعندهم الموز والرمان^(٥).

أمَّا عن الأشجار الموجودة في بلاد الحبشة فهي كثيرة وكبيرة الحجم؛ حتى يبلغ المقريزي (ت ٨٤٥هـ) في وصف ضخامتها، قائلاً: "تظل الواحدة منهن مائتي فارس"^(٦). فارس^(٦). ومن الأشجار الموجودة هي شجر كشباد^(٧) ثمره أحمر وهو حلو الطعام، وشجر كوشى ثمرة مستدير كالبرقوق لونه أصفر كالمشمش وحلو، وشجر طانة ثمره صغير وفي وسطه شبه النوى، وهو حلو الطعم ونواه يؤكل معه؛ لعدم صلابته، وشجر اسمه أوجاق ثمره أكبر من حبة الفلفل وطعمه شبيه من ناحية الحراقة مع بعض الحلاوة، وعندهم أشجار تسمى زجات، لا ثمر لهُ وإنَّما يأكلون قلوبها وهي تزيد الذكاء

(١) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٩٣/٥-٣١٥.

(٢) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٩٣/٥-٣١٥.

(٣) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٩٣/٥-٣١٥.

(٤) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٩٣/٥-٣١٥.

(٥) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٠؛ العمري، مسالك الأبصار، ٦٨/٤.

(٦) الإلمام، ص ٧٨.

(٧) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٣١٥/٥.

والفطنة، وتقلل النوم^(١)، وكُلِّهم يأكلونها، ويرغبون في أكلها، ولاسيَّما طلاب العلم، ومن يريد الاشتغال، ومن يريد السهر لسفر، أو لحرفة يعملها وعنايتهم به شبيه بعناية أهل الهند بالنتبل^(٢).

وهناك أنواع أخرى من الأشجار تكثر في بلاد الحبشة، مثل: أشجار الأبنوس، والصنوبر، والزيتون، والجميز والمقل^(٣)، وعندهم قصب السكر^(٤).

ب. الثروة الحيوانية:

اعتنى الأحباش بتربية الحيوانات؛ إذ تزايدت عندهم، ويحدثنا القلقشندي (ت ٨٢١هـ) عن وجود أنواع مختلفة من الحيوانات في بلاد الحبشة، ومنها: المواشي من البقر، والغنم، والخيول، والبغال، أمَّا الماعز فقليل عندهم، وفي بلاد الحبشة أنواع مختلفة من الحيوانات المتوحشة، منها: الأسود، والنمور، وتوجد عندهم الفيلة، والزرافات، والغزلان، وعندهم الحمار، والبقر الوحشي، والقردة، والضبعة العرجاء، وتسمى عندهم بمرعيف، والكركدان، وعندهم جواميس برية يصطادونها^(٥).

(١) ينظر: العمري، مسالك الأبصار، ٦٩/٤.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٩٣/٥؛ وينظر: العمري، مسالك الأبصار، ٦٩/٤.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٩٣/٥؛ وينظر: العمري، مسالك الأبصار، ٦٩/٤. والجميز: شجر شبيه بالتين البري أيضًا. ينظر: الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر مُحَمَّد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ/٤١٤م)، القاموس المحيط، تحقيق: مُحَمَّد نعيم العرقسوسي، ط ٨، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، (بيروت، ٢٠٠٥م)، ٦٦٣/١. أمَّا المقل: فهو ثمر شجر الروم، ينضج ويؤكل خشن قابض، بارد، مقو للمعدة. ينظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ١٠٥٨/١.

(٤) المقرئ، الإلمام، ص ٨٣.

(٥) صبح الأعشى، ٢٩٢-٣١٥؛ وينظر: القزويني، آثار البلاد، ص ٣٠؛ العمري، مسالك الأبصار، الأبصار، ٧٠/٤.

أمَّا أنواع الطيور الموجودة في بلاد الحبشة فهي: الصقور، والنسور، والغربان، وطيور الحجل، وطيور الواجب، والحمام، وأنواع العصافير، وعندهم دجاج داجن؛ لكن لا يرغبون في أكله؛ استحقاقاً له لأكله القمامة والزيالات، وعندهم البط، أمَّا الأسماك الموجودة في نهر الحبشة فهي أنواع تشبه البوري، وعندهم سمك يشبه الثعبان يطول على مقدار ذراعين ونصف، ويتوفر في نهرهم التماسيح، وفرس النهر^(١).
وعندهم عسل النحل بكثرة، وفي أقاليم الحبشة جميعها، وتختلف ألوانه باختلاف المراعي^(٢).

ت. المعادن:

امتازت بلاد الحبشة بالغنى في بعض المعادن، ومنها: الذهب، والحديد، وفي بعض البلاد يوجد معدن الفضة، والنحاس، والرصاص^(٣)، ويأتي الذهب على رأس هذه المعادن، ويجلب إليها من دامت، وبه معاملتهم^(٤)، أمَّا الحديد فيتوافر خامه في إقليم التيجري^(٥)، واستعمل الذهب والفضة في صناعة الأسيرة، والموائد الصغيرة، والكؤوس، والأبواب، والجدران، والسقوف؛ إذ يرصعونها بالذهب والفضة للزينة^(٦)، وذكر بعضهم

(١) صبح الأعشى، ٢٩٢/٥-٣١٥؛ وينظر: القزويني، آثار البلاد، ص ٣٠؛ العمري، مسالك الأبصار، ٧٠/٤.

(٢) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٩٣/٥؛ العمري، مسالك الأبصار، ٦٩/٤.

(٣) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٢٩٤/٥؛ وينظر: المقرئزي، الإمام، ص ٧٧.

(٤) المقرئزي، الإمام، ص ٨٣؛ وينظر: العمري، مسالك الأبصار، ٧٠/٤. وداموت: هو أحد أقاليم الحبشة، حدوده تمتد من شوا حتى نهر الجيما، ويحدّه شمالاً نهر الأباي، وتركز الحكم في ذلك الإقليم في بعض المُدد في أيدي النساء، وأغلب سكان ذلك الإقليم كانوا وثنيين. ينظر: العمري، مسالك الأبصار، ٤٢/٤.

(٥) المقرئزي، الإمام، ص ٨٣؛ والتجري: أهم أقاليم الحبشة يقع في المنطقة الشمالية، وتوجد به مدينة أكسوم العاصمة القديمة، ويمر عبر ذلك الإقليم الطريق التجاري إلى ميناء مصوع على البحر الأحمر، وحاكم الإقليم كان يسمى الباحرنجش، وتعني: ملك البحر. ينظر: السيوطي، رفع شأن الحبشان، ص ١٩.

(٦) علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٢٣٤/٧.

أنَّ زعماء قبائل الأحباش كانوا يأتون بأنفسهم إلى سواحل بلادهم محملين بالذهب، ويقايضون التجار العرب الجنوبيين بما يحملون من سلع وبضائع تهمهم^(١).

ث. وسائل التعامل التجاري:

إنَّ التعامل التجاري في بلاد الحبشة النصرانية وهو الأبقار، والأغنام، والحبوب^(٢)، أمَّا التعامل في سائر ممالك بلاد الزيلع فهو ثلاثة أنواع، منها ما هو بالمقايضة كما هو في بلاد الحبشة النصرانية^(٣)، ومنها ما هو بالدنانير والدرهم كما في أوفات التي يتداول فيها العملة المصرية^(٤)؛ إذ "ليس بأوفات سكة تضرب، بل معاملاتهم معاملاتهم بدنانير، ودرهم مصر وصلت إليهم التجار"^(٥). أمَّا سكان دوارو، وأرييني، وشرحا، وهدية، فكانوا يتعاملون بشيء عندهم يسمى الحنكة، وهي حديد مضروب كالإبر الطوال، كُـلُّ ثلاث آلاف بالعد قيمتها درهم واحد^(٦)، ويبلغ ثمن البقر بهذه الحنكات من (٧٠٠-٥٠٠٠ حنكة) ورأس الغنم بـ(٣٠٠٠) وهكذا^(٧).

(١) الحميري، الروض المعطار، ص ٨٤.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٩٤/٥.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣١٦/٥؛ وينظر: المقرئزي، الإمام، ص ٨٤.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣١٦/٥.

(٥) العمري، مسالك الأبصار، ٧٢/٤.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣١٦/٥؛ وينظر: العمري، مسالك الأبصار، ٧٢/٤.

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣١٦/٥؛ وينظر: المقرئزي، الإمام، ص ٨٤.

أمَّا وحده الكيل مكيال تسمى الرابعة ويعادل الويبة^(١) بالكيل المصري، وأنَّ وحدة الموازين هي الرطل وزنته اثنتا عشر أوقية، وكلَّ أوقية عشر دراهم، وأسعارهم بصورة عامة رخيصة حتَّى قيل: إنَّ باستطاعة الإنسان أن يشتري حمل بغل من الحنطة بدرهم، وأمَّا الشعير فلا قيمة له^(٢)، ويبدو هذا مرتبط بقلّة العملة مقارنة بوفرة الحبوب من الحنطة والشعير .

(١) الويبة: كيل مصري معروف، وهي تساوي كيلتين، والكيّلة وعاء يكال به الحبوب، وهو من المكايل المصرية، وتقدر الكيل بثمانية أقداح، ومقدار حجم الكيل (١٦,٥) لترًا. ينظر: مُحمَّد، المكايل والموازين الشرعية، ص ٣٥-٤٢ .

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣١٦/٥؛ وينظر: العمري، مسالك الأبصار، ٧٢/٤ .

الفصل الرابع

الحياة الدينية والاجتماعية لإفريقيا جنوب الصحراء.

من خلال روايات القلقشندي (ت ٨٢١ هـ)

والمقريزي (ت ٨٤٥ هـ)

١. عملية الاستقرار السكاني.

٢. العادات والتقاليد.

٣. السكان وطبيعة حياتهم.

٤. العقائد والأديان.

سنعرض في هذا الفصل جُملة من الجوانب الاجتماعية التي تخص المنطقة موضوع الدراسة، ويمكن تقسيمها بحسب موضوعاتها على النحو الآتي:

١. عملية الاستقرار السكاني:

إنَّ الاستقرار السكاني في تلك البلاد التي ضمت ممالك متعددة أشرنا إليها سلفاً شأنه شأن كُـلِّ التجمعات السكانية وقيامها في أي مكان آخر؛ فهو يخضع لعوامل، وظروف، وأسباب متعددة، ومؤثرات قد تكون في ذلك المكان؛ لكنها قد لا تكون في مكان آخر؛ ممَّا ينعكس على طبيعة الهجرات السكانية والقبلية، وقد أشارت المصادر التاريخية وغيرها إلى روايات متشابهة، أو مختلفة، أو متضاربة في أحيان أخرى، وسنحاول قدر الإمكان الخوض في تلك الروايات والنصوص؛ لرسم صورة أقرب إلى الواقع التاريخي في طبيعة تلك التجمعات السكانية والقبلية، وكيف استقرت؟ أو وُجِدت؟ لتشكل بذلك مجتمع هذه المملكة أو تلك من ممالك إفريقيا جنوب الصحراء.

ففيما يخص مملكة البجة وكيف استقر أهلها؟ هناك يمكن القول: إنَّ من المُسَلَّم به أنَّ أهل البجة هم من سلالة السود^(١)، وأنَّهم من البربر^(٢)، وهم القبائل الحامية^(٣)، وهم جنس من أجناس الحبشة^(٤).

أمَّا عن هجرتهم فذكر اليعقوبي (ت ٢٩٢) أنَّ ولد حام بن نوح عليه السلام قصدوا عند تفرق ولد نوح عليه السلام من أرض بابل إلى المغرب فيما عبروا ونزلوا الفرات إلى مسقط الشمس، وافترق ولد كوش بن حام وهم الحبشة والسودان لما عبور نيل مصر فرقتين؛

(١) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٥/٢٦٣.

(٢) المقرئزي، الخطط، ١/٣٥٩.

(٣) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٥/٢٧٣؛ المقرئزي، الخطط، ١/٣١٣.

(٤) مسكويه، أبو علي أحمد بن مُحَمَّد بن يعقوب (ت ٤٢١هـ / ١٠٣٠م)، تجارب الأمم وتعاقب الهمم،

تحقيق: أبو القاسم إمامي، مكتبة سروش، (طهران، ٢٠٠٠م)، ٤/٣٢٠.

فقصدت الأولى نحو اليمين، وتوسطت بين الشرق والغرب، ومنهم النوبة، والبجة، والحبشة، وقصدت الأخرى باقي أجناس الأفارقة السود جهة الغرب^(١).

أمّا البناء الاجتماعي للبجة فهو قائم على القبيلة؛ فهم قبائل ويطون^(٢)، وهناك أسماء لقبائل متعددة في البجة، أشار اليعقوبي إلى بعضها بقوله: "... ولهم قبائل ويطون كما تكون للعرب؛ فمنهم الحدرات، وحجاب، والعماعر، وكوير، ومناسة، ورسفة، وعربريعة، والرنافج"^(٣)، وأنّ الحدارية أو الحدارب هي من أهم القبائل البجاوية التي استوطنت بلاد البجة، ولا يعرف على وجه التحديد الزمن أو التاريخ الذي استقرت فيه تلك القبيلة تلك البلاد؛ إذ لم تردّ إشارات إلى ذلك، سوى أنّهم - أي الحدارية - استوطنوا هناك مع القبائل الأخرى^(٤)، ويرجع المقرئزي (ت ٨٤٥هـ) أصولهم إلى بلاد اليمن، وأنّهم ليسوا بجاة، بل عرب، وأنّ نسبهم إلى سبا نزحوا إلى بلاد البجة منذ زمن طويل، وصاروا من أهلها، فعدّوا طائفة من البجة^(٥)؛ ولكن يبدو أنّ ما ذهب إليه المقرئزي (ت ٨٤٥هـ) من كونهم عرب فيه نظر؛ إذ لا يمكن القطع بعروبتهم؛ فلم تكن لغتهم عربية، بل كانت أعجمية^(٦)؛ وعليه فمن غير المعقول أنّ ينسوا لغتهم أو ينعدم أثر اللّغة العربيّة منهم، حتّى وإن كان وجودهم موغل من القدم.

(١) تاريخ اليعقوبي، ١/٧٤.

(٢) المقرئزي، الخطط، ١/٣٥٤؛ وينظر: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١/٧٥.

(٣) تاريخ اليعقوبي، ١/٢٥٠.

(٤) المقرئزي، البيان والإعراب، ص ١٢٤.

(٥) البيان والإعراب، ص ١٢٤.

(٦) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٥٧.

ومن القبائل المهمة الأخرى في البجة الرنافج، أو الرنافجة، وهم أكثر عدداً، وهم من العبيد، الذين يقومون بالأعمال الخدمية، وأنهم كانوا خدماً للحدارية^(١)، أمّا مستقرهم فكان في تفلين من أرض البجة^(٢).

أمّا القبائل العربيّة في البجة التي كما يبدو أنّ وجودها هناك كان مرتبطاً بالحمالات العسكرية التي وجهها المسلمون إلى بلاد البجة^(٣)؛ إذ كان ذلك مناسبة لوجودها، وتأتي قبيلة ربيعة^(٤) في مقدمة تلك القبائل، التي كان لها أثر في تلك البلاد من حيث السيادة والزعامة على العرب الموجودين في البجة، ولاسيّما أنّ تلك القبيلة استولت على معدن الذهب بالعلاقي، وكان أنّ أصبحت على درجة من الغنى وسعة الحال^(٥)، ولم يكن نفوذ ربيعة مقصوراً على العرب، بل تعداهم إلى غيرهم من الحدارية الذين كانوا يحكمون البلاد^(٦)، وقويت صلاتهم معهم عن طريق المصاهرة التي تمت بين زعمائهم ورؤساء البجة من الحدارية^(٧)، وأصبحت لربيعة مرافق في البجة، واختطوا لهم مستقرات وقرى، ومن تلك القرى قرية عرفت بالنمامس، وحفروا فيها الآبار، وكانت لهم أماكن أخرى؛ فكانت عيذاب لبني يونس من ربيعة، وهم ملوكها بعد قدومهم من اليمامة^(٨).

(١) المقرئزي، الخطط، ٣٥٤/١.

(٢) اليعقوبي، البلدان، ص ٢٣٦. وبقلين: هي إحدى نقاط التجارة المهمة في بلاد البجة، ولها صلات تجارية مع مكة. اليعقوبي، البلدان، ص ٢٣٦.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣٢٣/٥؛ ومسكويه، تجارب الأمم، ٣٠٣/٤.

(٤) ربيعة: هي قبيلة من نزار بن معد بن عدنان، ومن بطونها: أسد، وتغلب، وشيبان، وحنيفة، وعنزة، وعنزة، ولجيم، وعبدالقيس، وزامل، وبني يونس. القلقشندي، صبح الأعشى، ٣٩٠/١-٣٩١.

(٥) المقرئزي، البيان والإعراب، ص ٤٤؛ ورسائل المقرئزي، ١٤٢/١.

(٦) المقرئزي، الخطط، ٣٦١/١.

(٧) المقرئزي، البيان والإعراب، ص ٤٤؛ وينظر: المسعودي، مروج الذهب، ١٨/١.

(٨) المقرئزي، الرسائل، ١٤٢/١.

ومن أسماء القبائل العربية الأخرى التي ورد ذكرها في البجة قبيلة جهينة^(١)، التي ذكرها ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ) من أنه شاهد منازلها في عيذاب، وأنهم اختلطوا بالبجة، وكانت حياتهم تتسم بالبداءة^(٢).

أما عن وجودهم أو هجرتهم إلى البجة فقد أشار المقرئزي إلى أنهم جاءوا في ضمن الحشود التي جاء بها أبو عبدالرحمن عبدالحميد العمري في سنة (٢٥٥هـ)، وكانت تلك الحشود من ربيعة وجهينة؛ فقد زحف بها إلى بلاد النوبة والبجة، وكاد يكون إمارة عربية هناك لولا تدخل ابن طولون (٢٢٠-٢٧٠هـ)، وخروج بعض القبائل عليه^(٣).

ومن القبائل العربية الأخرى قبيلة بلي^(٤)، التي أشار إليها المقرئزي من أنها من قبائل صعيد مصر^(٥)؛ ولكن ليس هناك ما يشير إلى الزمن الذي دخلت فيه أرض البجة، سوى أن ابن جبير (ت ٦١٤هـ) أشار إليها في رحلته إلى عيذاب من أنهم أصحاب طريق عيذاب، وأنهم يقومون بأعمال نقل الحجاج عن طريق جمالهم^(٦).

ولم يقتصر الوجود العربي من القبائل العربية على ما ذكرناه، وإنما كانت هناك قبائل أخرى بنسبة أو بأخرى سواء كانت ذلك على شكل جموع قبلية أو أفراد ينتمون لقبائل مختلفة؛ وذلك ما حتمته طبيعة ذلك الوجود، ولاسيما بعد مجيء الإسلام، وبعد

(١) المقرئزي، الخطط، ٣٦٣/١؛ والبيان والإعراب، ص ٢٧، والسلوك، ١٦٢/٢. وجهينة: بضم الجيم، وفتح الهاء، وسكون الياء المثناة، وفتح النون، يعدها من قضاة من القحطانية، وهم بنو جهينة بن زيد بن ليث بن زيد بن أسلم بن الحافي بن قضاة، وفي المثل: وعند جهينة الخبر اليقين. النويري، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ٢٢١/١.

(٢) رحلة ابن بطوطة، ٢٢٢/١.

(٣) البيان والإعراب، ٢٢٧/١.

(٤) بلي: قبيلة تنتسب إلى بلي بن عمرو بن الحافي بن قضاة. القلقشندي، صبح الأعشى، ٣٦٧/١.

(٥) البيان والإعراب، ص ٢٧.

(٦) رحلة ابن جبير، ص ٣٧.

الحملة العسكرية إلى هناك؛ إذ كانت أول الفرص لدخول العرب إلى بلاد البجة، عندما قام عبدالله بن الحباب^(١) بمصالحتهم بعد غزوه إياهم وانتصاره عليهم؛ إذ عقد معهم عقداً^(٢)، ويبدو أنّ ذلك العقد كان ضماناً سمح للعرب في العبور بأمان إلى بلاد البجة، ومنذ ذلك الوقت نشط العرب في الدخول إلى تلك الأوطان والاستقرار فيها^(٣). ذكر المقرئزي (ت ٨٤٥) أنّ الذي كان يعرف بإبراهيم بن مُحَمَّد بن يحيى بن عبدالله المعروف بابن الصوفي قام بثورة ضد أحمد بن طولون سنة (٢٥٦هـ/٨٦٩م)^(٤)، وانتهت ثورته بعد أن انفصل أصحابه عنه بأرض البجة بعد هزيمته على يد العمري هناك^(٥)، ولاشك أنّ بعض أصحابه استقروا بأرض البجة؛ ليصبحوا جزءاً من النسيج الاجتماعي لها فيما بعد، علماً أنّ ذلك الرجل ممن هاجر إلى صعيد مصر، وأنّه كان ينتسب إلى الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب (عليهما السلام)، وربما أنّ ذرية من أبناء عبدالرحمن العمري أو أحفاده الذي كان له أثر في نشر الإسلام في بلاد النوبة والبجة^(٦)، كانوا قد استقروا في تلك البلاد، وليس ببعيد أنّ تكون جماعات من قبيلة قيس عيلان^(٧) قد استقرت في تلك البلاد أيضاً؛ إذ دخل هؤلاء أرض البجة تحت قيادة

(١) عبدالله بن الحباب: هو عبدالله بن الحباب السلولي، مولاهم الكاتب، كان كاتباً للخليفة الأموي هشام

بن عبدالملك، ثمّ ولاء مصر، ثمّ ولاء إفريقية، وقد جاءت إمارة إفريقية وهو في مصر، وكان ذلك

سنة (١٠٦هـ). ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٤١٦/٢٧.

(٢) ابن عبدالحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص ١٨٩.

(٣) الحويري، أسوان في العصور الوسطى، ص ٦٢.

(٤) البيان والإعراب، ص ٤٠-٤١.

(٥) البلوي، سيرة ابن طولون، ص ٦٥.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ٤٠٧/١.

(٧) قيس عيلان: هم فرع من مضر، جمع عدّة قبائل واختلف في نسبه؛ فقيل: قيس بن عيلان، وقيل:

هو قيس بن مضر، وعيلان لمضاف إليه فرسه، وقيل: كلبه، وقد بلغ لقيس من الكثرة حتّى غلب

اسمه على سائر القبائل العدنانية. القلقشندي، صبح الأعشى، ٣٩٢-٣٩٣.

قائدهم حكم النابغي في ألف رجل من تلك القبيلة، وأقام فيها ثلاث سنين^(١)، وأنَّ تلك القبيلة جاءت إلى أرض البجة بوصفهم أعوانًا للعمري في حربه ضد البجة والنوبة^(٢).
ومن القبائل العربيَّة التي يمكن أن نشير إليها، التي رُبَّما استقر قسم منها في بلاد البجة: بنو هلال، وهم بطن من بطون عامر بن صعصعة^(٣)؛ إذ نزل هؤلاء مصر في عهد الدولة الفاطمية (٣٥٩-٥٦٧هـ)، واستقرت بالصعيد في الجانب الشرقي^(٤)، وبعد مُدَّة من قدومهم أرض مصر استطاعوا أن يدخلوا بلاد البجة؛ حتَّى ملأوا البلاد ما بين بلاد الصعيد إلى عيذاب^(٥)؛ ولكن تلك القبيلة انتقلت إلى غرب النيل النيل بعد أن نشأ نزاع بين القبائل العربيَّة في بلاد البجة^(٦)، وعلى الرغم من انتقال تلك القبيلة إلى مكان آخر؛ لكن ذلك لا يعني عدم وجود بقايا لها في بلاد البجة؛ لارتباطات وعوامل مختلفة؛ ولكن مع ذلك يبقى الأمر مجرد افتراض لا يمكن القطع به تاريخياً عندما لا تتوافر الأدلة والشواهد التاريخية.

وعليه ومن كُـلِّ هذا يمكن القول: إنَّ بلاد البجة كانت قد استقرت بها قبائل وعناصر عربية مختلفة انسجاماً مع ما كانت تضمه الحملات العسكرية من مشاركات لقبائل وعناصر مختلفة، وكان طبيعي أن تحدث عمليات استقرار سكاني، ولاسيَّما إذا كان ذلك ممَّا يوفر لهم حياة أفضل.

ومن هنا يمكن القول: إنَّ الوجود العربيَّ الإسلامي في تلك البلاد من أرض البجة كان له أثر في انتشار الإسلام بين قبائل البجة وينسب مختلفة^(٧)، ولاسيَّما قبيلة

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٥٢.

(٢) المقرئزي، المقنقى الكبير، ٤/٤١٠.

(٣) الفلقشندي، صبح الأعشى، ١/٣٩٤.

(٤) المقرئزي، البيان والإعراب، ص ٢٨.

(٥) الفلقشندي، صبح الأعشى، ١/٣٩٤.

(٦) المقرئزي، المقنقى الكبير، ٤/٤١٢.

(٧) مسعد، العرب والبجة، ص ٤٥.

الحدارية^(١)، التي حظيت بعناية كبيرة من لدن قبيلة ربيعة؛ نتيجة مصاهرة بين الطرفين^(٢)، التي قويت بهم على من جاورهم من القبائل الأخرى^(٣).

أمّا فيما يخص بلاد النوبة فإنّ الجماعات البشرية التي استقرت في تلك البلاد يرجع تاريخ وجودها هناك إلى زمنٍ سحيق؛ فهم أقدم من العناصر البشرية التي استقرت في إفريقيا، وهم لم ينشأوا فيها، بل إنهم هاجروا إليها من آسيا عن طريق البحر الأحمر منذُ زمن بعيد، وفي الغالب أنّهم من سلالة كوش بن حام، الذين هاجروا إلى السودان بعد الطوفان^(٤).

أمّا عن هجرتهم فذكر أنّه عندما تفرّق ولد نوح عليه السلام من أرض بابل قعد ولد حام بن نوح عليه السلام جهة الغرب، حتّى اجتازوا نهر الفرات غرباً، وبعدها افترق ولد كوش بن حام، وقصدوا مصر، وبعدها عبروا نهر النيل، وانقسموا على فرقتين، منهم المغرب ومنهم النوبة، وقعدت الأخرى باقي أجناس السود جهة الغرب^(٥).

وعلى الرغم من ذلك فقد ذهب القزويني (ت ٦٨٢هـ) والمقرئزي (ت ٨٤٥هـ) من قبله إلى أنّهم من اليمن ومن نسل حمير^(٦).

ويرى أحد الباحثين المحدثين^(٧) استناداً إلى رواية ذكرها ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) أنّ ملوكهم يزعمون أنّهم من حمير، ولقب ملكهم كابيل^(٨)؛ بقوله: إنّ ليس ببعيد أن يكون هذا اللقب (كابيل) هو أصله (فيل)، وهو لقب أطلق على بعض أمراء

(١) المقرئزي، الخطط، ٣٦١/١.

(٢) المقرئزي، البيان والإعراب، ص ٢٤٥.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، ١٨/١.

(٤) المقرئزي، الخطط، ٢٨٦/١.

(٥) اليعقوبي، تاريخ، ١٩١/١.

(٦) الخطط، ٣٥٤/١؛ وآثار البلاد وأخبار العباد، ص ٥٤.

(٧) مسعد، الإسلام والنوبة، ص ١٠٥.

(٨) معجم البلدان، ٨٣٠/٤.

اليمن^(١)، وأتته ليس ببعيد أن الأسرة الملكية النوبية ترجع في أصلها إلى جنوب الجزيرة العربية؛ إذ عبر الحميريون البحر الأحمر واستقروا في البلدان؛ إذ نقلوا أسماء أجدادهم مثل كوة، دار، وسبأ، ولا ببعيد أن سبأ حرّفت إلى سوبا وسوية تلك عاصمة علوة^(٢). وعلى أي حال ومهما قيل من روايات وافتراضات في أصل المجتمعات والشعوب، ولاسيما في الحقب الموغلة في القدم فإن الأمر يحتاج إلى مزيد من الإثباتات؛ للقطع بدقة ما ورد في المصادر التاريخية وغيرها، وما بني عليها من آراء وافتراضات عند المؤرخين القدماء والباحثين المحدثين، أما الوجود العربي في النوبة؛ فيبدو أنه لا يختلف كثيرا عن سواه من الممالك الإفريقية الأخرى، الأمر نفسه فهو مرتبط أيضا في أكثر أحواله بالحملات العسكرية من مصر تجاه تلك البلاد؛ إذ أشار المقرئزي (ت ٨٤٥هـ) إلى بعض من تلك القبائل، وذكرهم بعربان الإقليم، وهم أولاد أبي بكر، وأولاد عمر، وأولاد شيبان، وأولاد الكنز، وبني هلال، وعرب العكارمة^(٣)، وغيرهم من الهوارة والأحامدة^(٤)؛ وعليه فإن هذه المكونات القبلية العربية شكّلت النسيج الاجتماعي لبلاد النوبة، وكان أن أتيح لها رُما حكم البلاد.

أما عناصر السكان والقبائل التي استقرت في الممالك الأخرى لإفريقيا جنوب الصحراء والمتمثلة بمملكة برنو والكانم فضلا عن مملكتي مالي والحبشة فلم تردّ إشارات إلى القبائل العربية التي استقرت هناك أو الظروف التي أسهمت في إيجاد التركيبات السكانية، بل إن القلقشندي (ت ٨٢١هـ) عندما تحدث عن بعض تلك الممالك أورد أوصافهم، وسماتهم المميزة عن غيرهم من الشعوب من دون أن يسمي قبائلهم؛ فعن مالي التي هي جزء من بلاد السودان يصف القلقشندي (ت ٨٢١هـ) أهلها بأنهم: "طوال،

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣٦٨/١.

(٢) مسعد، الإسلام والنوبة، ص ١٠٥.

(٣) المقرئزي، السلوك، ١٩٩/٢، ٢٨٧/٤.

(٤) المقرئزي، السلوك، ٩٨٨/٥.

في غاية السواد، وتجعد شعورهم، وغالب طول أهلها من سيقانهم لا من هياكل أبدانهم"^(١)، وتحدث عن ملوكهم الذين ادعوا النسب العربي؛ فكان عبدالله بن صالح بن الحسن بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) واحداً ممن حظي بالادعاء إلى نسبه؛ ليكسبوا في ذلك رضا الرعية^(٢).

٢. العادات والتقاليد:

تمثلت العادات والتقاليد في المجتمع الإفريقي (إفريقيا جنوب الصحراء) بمجموعة من الفعاليات الاجتماعية، وهي بلا شك ذات صفات أو سمات مشتركة، وأخرى رُبما اختلفت به هذه المملكة أو تلك من ممالك إفريقيا جنوب الصحراء، وسنعرض لهذا الموضوع تبعاً لتوافر المعلومات في هذا الجانب سواء كان ذلك عند القلقشندي، أو المقرئزي، أو المصادر الأخرى.

ففيما يخص البجة انتشرت الطباع ذات العادات والتقاليد البدوية كسائر المجتمعات التي تتخذ الصحاري والجبال موطناً لها، وتلك الطباع ورثها الخلف عن السلف؛ فهم - أي أهل البجة - عموماً يقدسون كل ما هو موروث، ويحتفظون به، وعلى الرغم من الطباع البدوية التي يغلب عليها التسامح والتساهل، إلا أن البجاوي محب للعزلة، قليل الكلام؛ وذلك ما جعل بعض زائريهم من الرحالة أو المؤرخين العرب يصفونهم بطبع متوحش يغلب عليهم^(٣)؛ فقد وصفهم ابن جبير (ت ٦١٤ هـ) بأنهم: "فرقة من أضل من الأنعام سبيلاً، وأقل عقولاً"^(٤)، ووصفهم ابن تغري بردي (ت ٨٧٤ هـ) بأن "لا فرق بينهم وبين الحيوانات المتوحشة؛ لكونهم حفاة عراة"^(٥)؛ ولكن يبدو أن ذلك الوصف الذي جاء به كل من ابن جبير (ت ٦١٤ هـ) وابن تغري بردي

(١) صبح الأعشى، ٢٧١/٥-٢٧٢.

(٢) صبح الأعشى، ٢٩٨/٥.

(٣) مُحَمَّد عوض، السودان الشمالي، ص ٢٨.

(٤) رحلة ابن جبير، ص ٤٢٠.

(٥) النجوم الزاهرة، ص ٢٩٦.

(ت ٨٧٤هـ) رُبَّمَا يَخْصُ وَلَا يَعْمُ؛ إذ لا يمكن أن يجعل منه ظاهرة اجتماعية عامة تعم المجتمع البجاوي، وأن ما أثير في ذلك من قول لا ينطبق إلا على مجموعات قليلة، رُبَّمَا اتخذت من المواقع الجبلية الوعرة ملجأ لها، أمَّا الغالبية وبدليل الروايات التاريخية عند مؤرخين آخرين فيبدو أنه ليس كذلك، بل إنه يدلّ على طباع اجتماعية حسنة؛ فقد وصفهم الرحالة ناصر خسرو (ت ٤٨١هـ) بأنَّهم ليسوا أشراراً^(١)، ووصفهم ابن سعيد المغربي (ت ٦٦٣هـ) بأنَّهم "أهل أمانة"^(٢)، أمَّا المقرئزي (ت ٨٤٥هـ) فقد وصف طباعهم بأنَّهم: "أصحاب ذمة؛ فإذا غدر أحدهم رفع المغدور به ثوباً على حربه، وقال هذا عرش فلان، يعني أبا الغادر؛ فتصير سيئة عليه إلى أن يترضاه"^(٣)، ثم قال عنهم أيضاً: "إنَّهم أهل كرم وسماحة، وهم يبالغون في كرمهم؛ فإذا طرق أحدهما ضيف ذبح له، فإذا تجاوز ثلاثة نفر نحر لهم من أقرب الأنعام إليه، لغيره، وإن لم يكن شيء نحر راحلة الضيف وعوضه ما هو خيرٌ منها"^(٤)، أمَّا البكري (ت ٨٥٢هـ) فقد وصف طباعهم الحميدة بقوله: "وهم أهل أنس مع التجار"^(٥).

وهكذا عاش أهل البجة في مجتمعهم بتلك الطباع والصفات الحسنة السمحة، أمَّا أهم العادات والتقاليد الخاصة بهم فيمكن أن نؤشر فيهم حالات عدَّة، منها: أنَّهم كانوا يخلعون ثناياهم، وهي الأسنان الأربعة التي تقع في مقدمة الفم في الأعلى والأسفل، وقد ذكر المقرئزي أنَّهم يبررون ذلك بأنَّهم لا يريدون أن يتشبهوا بالحمير^(٦)، وتبدو تلك العادة من العادات الغريبة.

(١) سفر نامة، ص ١٣٤.

(٢) بسط الأرض، ص ٤٨.

(٣) الخطط، ٣٥٩/١.

(٤) الخطط، ٣٥٩/١.

(٥) خريدة العجائب، ص ٤٨.

(٦) الخطط، ٣٦٠/١.

ومن العادات الأخرى عند بعض أهل البجة أنّ هناك قوم في آخر بلاد البجة يُقال لهم: البازة نساء جميعهم يتسمون باسم واحد وكذلك الرجال^(١)، ومن عاداتهم الختان، وهي تشمل الرجال والنساء^(٢)، ومن العادات الأخرى التي تميزت بها جماعات أخرى في المجتمع الإفريقي كأهل النوبة مثلاً: الاحتفالات، وشدة الطرب؛ فقد ذكر ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) أنّه قد رأى خلق السودان على العموم الخفة، والطيش، وكثرة الطرب، وأنّهم كانوا مولعين بالرقص، وهم أسرع فرحاً وسروراً، وأكثر انبساطاً^(٣)، وأشار إليهم القلقشندي (ت ٨٢١هـ) بقوله: "ولهم انهماك على السكر بالمزر"^(٤)، ولهم ميل شديد شديد إلى الطرب"^(٥)، وأنّهم أصحاب عقول حمقة مولعين بالطرب"^(٦).

وعلى الرغم من أنّ صفة الخفة، والطيش، وكثرة الطرب والحمق، التي عممها ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) وغيره على المجتمع الإفريقي (السودان) إلاّ أنّه يبدو أنّ مبالغة المجتمع الإفريقي بالاحتفال وما هم عليه من وصف لا يمكن أن يكون ظاهرة اجتماعية عامة لكلّ الممالك الإفريقية، بل ربّما ما يميز أهل النوبة بصورة خاصة؛ إذ لم تتوافر لدينا روايات مماثلة في هذا الموضوع في الممالك الأخرى.

(١) الخطط، ١/٣٦٠.

(٢) الخطط، ١/٣٦١.

(٣) تاريخ ابن خلدون، ١/١٤٨-١٤٩.

(٤) المرز: هو نوع من الخمر كان أهل النوبة مولعين به، وهو مصنوع من الذرة. الإدريسي، صفة المغرب، ص ١٩.

(٥) صبح الأعشى، ٥/٢٧٦.

(٦) الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، ص ١١٤.

أمَّا الكرم، وحسن الضيافة، والعادات الحسنة التي تحدث عنها المقريري (ت ٨٤٥هـ) وغيره من المؤرخين والرحالة عن أهل البجة فيبدو أنَّها كانت كذلك عند أهل الحبشة؛ فقد وصفهم القلقشندي (ت ٨٢١هـ) بأنَّهم لولا ما هم عليه من الشرك لكانوا في الرتبة العليا من مراتب بني آدم، وعلى الرغم ممَّا هم عليه من المجاعة فإنَّهم يقولون الحسب، ويصفحون عن الجرائم، ومن عاداتهم أنَّ من رمى سلاحه في القتل حرَّم قتاله، فضلاً عن ذلك فإنَّهم كانوا يكرمون الضيف، ولا ينقض الصديق منهم عهد صديقه، وإذا أحبوا أظهروا المحبة، وإذا أبغضوا أظهروا البغض، والغالب عليهم الذكاء، والفتنة، والصدق، والحدس^(١).

ومن العادات الأخرى لأهل الحبشة أنَّ لكلِّ طائفة منهم وشم في وجوههم^(٢).

٣. السكان وطبيعة حياتهم:

يمكن دراسة حياة السكان في إفريقيا جنوب الصحراء عن طريق مسكنهم، وملبسهم، ومأكلهم؛ ومن ثمَّ فإنَّه يمكن أن نؤشر انعكاسات هذا الجانب على الحياة الاجتماعية العامة للمجتمع الإفريقي في المنطقة موضوع الدراسة، ومن المؤكد أنَّ الحياة في ذلك الجانب ما هي إلا انعكاس للبيئة التي عليها ممالك مجتمع إفريقيا جنوب الصحراء؛ فمن ناحية السكن في البجة مثلاً تتوع ما بين السكن في خيام من الشعر، أو بيوت من أخصاص؛ "فهم أصحاب أخبية من شعر"^(٣)، وتتكون تلك الخيام عادة من شعر الماعز، أو صوف الغنم؛ فبعد غزله ينصب على عيدان من الحطب، وعلى خلاف لكلِّ الخيام كانت تقام خيام من الجلد، التي أشار إليها اليعقوبي (ت ٢٩٢هـ)

(١) صبح الأعشى، ٢٩٠/٥.

(٢) صبح الأعشى، ٢٩٠/٥.

(٣) المقريري، الخطط، ٣٥٨/١؛ وينظر: ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٥١؛ والاصطخري، المسالك

والممالك، ص ٣١.

بقوله: "البجة ينزلون خيام الجلود"^(١)، وكانت تلك الخيام تقام من جلود الحيوانات التي يفتنونها من إبل، وغنم، وما عز بعد دباغتها^(٢).

ويبدو لنا من تنوع الخيام في السكن عند أهل البجة ما بين الشعر، والصوف الوبر، والجلد هو حاجة السكان إلى ذلك، وبحسب تنوع البيئة التي عليها تلك البلاد؛ فبيوت الشعر تلائم الأماكن الصحراوية؛ فهي تحمي من أشعة الشمس، في حين أنّ البيوت المصنوعة من الجلود تبدو أنّها تلائم الأماكن المطيرة التي لا تلائمها بيوت الشعر والصوف، ومن هذا فإنّ معيشة السكان عند أهل تلك البلاد من حيث السكن تبدو يسيرة، وهي انعكاس لما تقتضيه حياة المجتمع البجاوي، التي تسود فيها حياة البداوة على الأغلب، التي تتطلب مسكناً خفيفاً يسهل نقله وبناءه^(٣).

أمّا البيوت والمسكن الأخرى التي أشار إليها ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ) بقوله: "... إنهم كانوا يقيمون في أخصاص كالقرى"^(٤)؛ فيبدو أنّها محدودة جداً؛ وذلك ما دعا الاصطخري (ت ٣٤٦هـ) إلى نفي وجود القرى بقوله: "لا قرى لهم، ولا مدن، ولا زرع"^(٥).

أمّا النوبيون فإنّ مساكنهم غير ذلك، وتبدو على حياتهم حالة الاستقرار من ناحية المسكن؛ فقد ذكر ذلك المقرئزي (ت ٨٤٥هـ) واصفاً قراهم بالقول: "قرى متصلة،

(١) البلدان، ص ٣٣٦.

(٢) المقرئزي، الخطط، ٣٥٩/١.

(٣) مُحَمَّد عوض، السودان الشمالي، ص ٢٨.

(٤) صورة الأرض، ص ٥٧.

(٥) المسالك والممالك، ص ٣١.

وعمارة حسنة بأبرجة حمام^(١)، وهي ثلاثون قرية ذات أبنية حسان، وكنائس، وأديرة^(٢)، وأن جميع تلك المساكن تتألف من أخصاص حتى قصور ملوكهم^(٣).

وعلى الرغم من التطور الحاصل في مساكن النوبيين، إلا أن ذلك لا يعدم وجود أنواع أخرى من المساكن ممثلة في الإقامة في الخيام، ولاسيما في الأماكن الرعوية التي كانت تعتمد على الترحال؛ بحثاً عن مواطن الكلاء^(٤).

وقد تطورت المساكن النوبية القديمة على أيدي الوافدين من العرب، ناقلين معهم التأثيرات الإسلامية المتمثلة بالزخارف الإسلامية التي ظهرت في تزيين واجهات بيوتهم بأشكال هندسية متداخلة^(٥).

أمّا مساكن أهل مالي فقد وصفها القلقشندي (ت ٨٢١هـ) بقوله: "وبناؤها بالبالستا، وهي أن يبني بالطين بقدر ثلثي ذراع وتترك حتى تجف، ثم تبني عليه مثله، وكذلك حتى ينتهي"^(٦)، وسقوفها بالخشب والقصب، وغالبها قباب، وجمالونات كالأقباء، كالأقباء، وأرضها تراب مرمل وليس لها سور^(٧).

وكان هناك تبايناً بين مساكن العامة والخاصة في مالي، فيسكن دور العامة في الغالب أصحابها، أو يؤجر منها كلها أو بعضها، وكانت تلك الدور غالباً ما تبني من طابق واحد أو طابقين^(٨).

(١) الخطط، ٣٥٨/١.

(٢) الخطط، ٣٥٩/١.

(٣) القزويني، آثار البلاد، ص ٣٩.

(٤) نكولز، قبائل السودان، ص ٨٣.

(٥) الصاوي، ممالك النوبة، ص ٣١٥.

(٦) صبح الأعشى، ٢٩/٥؛ وطرخان، دولة مالي الإسلامية، ص ١٥٣.

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧٣/٥.

(٨) طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص ١٥٣.

وأورد من رواية نقلها لنا ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) رواية عن منسا موسى أحد ملوك مالي، وكيف أنَّه كان يرغب في بيت محكم البناء؛ فأدهشه ما بناه له أحد الصناع، واسمه أبو إسحاق الطويجن من قبة مربعة الشكل، مضافاً إليها الكلس، والأصبغ المشبعة؛ فجاءت من أتقن المباني أدهشت السلطان^(١)، نستشف من ذلك أنَّ البيوت لتلك المملكة سواء كانت عامة أو خاصة كانت يسيرة وغير معقدة، وأنَّ التباين بينها لم يكن كبيراً، وأنَّها لا تتعدى حاجة السكان لها؛ إذ إنَّه عندما رأى السلطان ذلك البناء الذي بني له أدهشه ذلك.

أمَّا فيما يخص الحبشة فكانت بيوتهم يسيرة تبنى من الطين، والأحجار، والأخشاب، ومسقفة بأقبية، وقباب، وغير مسورة، وليست فخمة^(٢)، وزاد المقرئزي (ت ٨٤٥هـ) بوصفها بقوله: "لا فخامة لأمرهم"^(٣).

أمَّا الملبس الإفريقي لسكان إفريقيا جنوب الصحراء فقد تباين من مكان لآخر؛ تبعاً للبيئة، أو الحياة الاقتصادية لمجتمع هذه المملكة، أو تلك؛ فعن أهل البجة أشار المقرئزي (ت ٨٤٥هـ) إلى أنَّ زيهم يشبه زي العرب^(٤)، ويبدو أنَّ البيئة الصحراوية كانت كانت سبباً في ذلك التشابه، فضلاً عن التأثير العربيّ من دون شك، وقد وصف ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ) ذلك الملبس بقوله: "... إنَّهم يلتحفون ملاحف (عباءات) ويشدون على رؤوسهم عصائب (عمامات)، ويكون عرض العصابة منها إصبغاً"^(٥).

(١) تاريخ ابن خلدون، ٢٦٨/٦.

(٢) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٣١٠/٥؛ وينظر: العمري، مسالك الأبصار، ٦٨/٤.

(٣) الإلمام، ص ٨٢.

(٤) الخطط، ٣٦٥/١؛ وينظر: الاضطخري، المسالك والممالك، ص ٣١؛ وابن حوقل، صورة الأرض، ص ٥٠.

(٥) رحلة ابن بطوطة، ص ٥٣.

أمَّا الملابس عند أهل السودان الأوسط (البرنو والكانم) فقد تعددت أشكالها، واختلف النَّاسُ بطريقة ارتدائها بحسب مكانتهم الاجتماعية، ووضعهم داخل المجتمع؛ فنجد الملوك قد اعتنوا بارتداء أفخر الثياب وأغلاها، وقد ارتدى ملوك الكانم الثياب المصنوعة من الصوف والقطن، والتي وضعت وطرزت بالخزف السوسي، ورصعت بالدبياج الرفيع، وكانت تلك الثياب تأتي إلى الملوك عن طريق التجار من مدينة سوسة، وكان التجار حريصون على إيصالها إلى الملوك^(١)، وكان العلماء يتزينون بزّي خاص، ويتعممون، ويغلب على عمامهم اللون الأخضر^(٢)، أمَّا قادة الجيش والجنود فكانوا أيضًا يلبسون العمام؛ ولكنهم يضعون فوقها القلانس^(٣)، وكان الجنود يتلثمون^(٤)، أمَّا التجار فكانت ملابسهم شبيهة بملابس العلماء، ويلبسون الأكسية، وعلى رؤوسهم الكرازي^(٥).

أمَّا غالبية السكان فقد شهد زيهم تطورًا كبيرًا، ولاسيّما بعد انتشار الإسلام؛ إذ لم يكن لهم قبل ذلك عناية بالملبس الذي كان أغلب النَّاسِ عندهم يشدون أجسامهم بفوظ من قماش، وأحيانًا من الجلد المدبوغ^(٦).

ومن الملابس المشهورة عند أهل البرنو والكانم الثياب المعروفة بالدندي، طول كلّ ثوب عشر أذرع فأكثر^(٧).

(١) ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، ص ٩٥.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٠٤/٥.

(٣) كارليل، توماس، فلسفة الملابس، ترجمة: طه السباعي، مطبعة بشلاوي، (القاهرة، د.ت)، ص ١٩٥.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧١/٥.

(٥) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٢٨/١. والكرازي: مفردها: كرازي، وهو حزام من الصوف، يستعمل للشد للشد حول الوسط. ينظر: عبدالمنعم عبدالعال، معجم شمال المغرب، دار الكتب العربيّة، (القاهرة، ١٩٦٨م)، ص ١٩٦.

(٦) ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، ص ٩١.

(٧) القلقشندي، ٢٧١/٥؛ والعمري، مسالك الأبصار، ٩٦/٤.

أما في مملكة مالي فإنّ ملابسهم كانت من الجلود، فضلاً عن الصوف والقطن، وكان خاصتهم يرتدون الأكسية والأزر، وغالباً ما كانوا يرتدون الثياب البيض، ولاسيماً في يوم الجمعة، ولبسوا العمائم مثل العرب، والثياب البيض عندهم مصنوعة من القطن، التي يقومون بنسجها في غاية من الدقة واللفظ، وتسمى الكميصيا، ولباسهم شبيه بلباس المغاربة جباب، ودراريع بلا تفريح^(١).

أما زي أهل الحبشة فينقسم على قسمين بحسب ديانتهم؛ ففي بلاد النصرانية كان لباسهم واحداً صيفاً وشتاءً، والفرد منهم يمتلك ثوبان غير مخيطان، إحداهما يشد به وسطه والآخر يلتحف به^(٢)، أما ملوكهم فقد تميزوا بزيتهم الفاخر، الذي يختلف عن رعيتهم؛ فكانوا يعصبون رؤوسهم بعصابة خضراء^(٣)، أما زي الممالك الإسلامية فقد جرت العادة أن يعصب الملك رأسه بعصابة من حرير تدور على رأسه مع بقاء وسط رأسه مكشوف، أما الجنود والأمراء فلهم عصائب من قطن، في حين يلبس الفقهاء العمائم، ويلبس العامة الكوافي البيضاء^(٤).

أما المأكّل الإفريقي للممالك الإفريقية جنوب الصحراء فمما لاشكّ فيه هو نتاج للبيئة التي هم عليها في هذه المملكة أو تلك؛ فمثلاً: لما كانت حياة أهل البجة يغلب عليها الطابع الصحراوي فكان مأكّلهم هو نتاج لتلك البيئة التي حتمت عليهم تربية حيوانات الإبل والأغنام؛ فكانوا يقتاتون على منتوجاتها من الألبان واللحم^(٥)، فضلاً عن

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٧/٥؛ والعمرى، مسالك الأبصار، ١١٥/٤؛ وابن بطوطة، رحلته، ص ٦٩٠.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٩٤/٥.

(٣) المقرئزي، الإمام، ص ٨٠.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣١٨/٥؛ والمقرئزي، الإمام، ص ٨٠.

(٥) المقرئزي، الخطط، ٣٦٥/١.

عن بعض الحبوب التي أشار إليها اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ) من أنهم كانوا يأكلون الذرة وما شابهها^(١)، فضلاً عن حبوب الدخن واللبن^(٢).

ويبدو أنّ نوعية مآكلهم هذا انعكس على ما كانوا يتمتعون به من صحة وقوة في الأجسام؛ إذ وصفهم المقرئزي (ت ٨٤٥هـ) من أنهم كانوا أصحاء الأجسام، وأنّ بطونهم كانت مضمرة، وأنهم كانوا سريعى المشى^(٣).

أمّا بلاد النوبة فيمكن القول عن طريق الإشارات الواردة في النصوص التاريخية معرفة الأطعمة والأشربة وأنواعها التي كانت يفضلها النوبيون؛ فقد أشار الفلقشندي (ت ٨٢١هـ) إلى مآكلهم ومشربهم بقوله: "... ومن النيل شرب أهلها، وطعامهم الشعير، والذرة، والتمر، يجلب إليهم من البلاد المجاورة لهم، وشرابهم المزر المتخذ من الذرة، وقد تبادل مصر وبلاد النوبة كثير من المنتجات الغذائية؛ بحكم الجوار"^(٤)؛ فكانت الحيوانات من الإبل، والبقر، والغنم تحمل إلى أرض النوبة، وكانت أسعارها رخيصة^(٥)، رخيصة^(٥)، ولحومها طيبة المذاق^(٦)، وأفخر طبختهم أنّ تطبخ اللوبيا في مرق اللحم ويثرد ويصف اللحم واللوبيا على وجه الثريد، ورُئماً عملت اللوبيا بورقها وعروقها^(٧)، والسّمك عندهم كثير^(٨).

(١) البلدان، ص ٢٣٦.

(٢) اليعقوبي، تاريخ، ١/١٩٢.

(٣) الخطط، ١/١٤٩.

(٤) صبح الأعشى، ٥/٢٧٥؛ وينظر: الإدريسي، صفة المغرب، ص ١٩.

(٥) المقرئزي، الخطط، ١/١٠٦؛ وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢/٢٩٧.

(٦) الإدريسي، صفة المغرب، ص ٢١.

(٧) الفلقشندي، صبح الأعشى، ٥/٢٧٦.

(٨) المقرئزي، الخطط، ١/١٠٦؛ وينظر: الإدريسي، صفة المغرب، ص ١٩؛ وابن تغري بردي، النجوم

الزاهرة، ٢/٢٩٧.

ولما كان النوبيون يعتنون بزراعة الغلات من البقول، والذرة، والقمح، والشعير، والدخن، والسسم^(١)؛ فمن المؤكد أنّها كانت تدخل في وجباتهم الغذائية. أمّا طعام أهل الحبشة فهو شحوم البقر، والماعز، وبعض شحوم الضأن، ويشربون اللبن البقري، وفي أثناء مرضهم يتداون باللبن المدفأ بالماء وسمن البقر^(٢). وعليه وبعد هذا يمكن أن نعود على ما بدأناه من أنّ الحياة المعيشية المتمثلة بالمسكن، والملبس، والمأكل في البلاد موضوع الدراسة، واستنادًا إلى ما عرضناه من روايات ونصوص تاريخية ما هي إلا نتاج وانعكاس للبيئة التي عليها تلك البلاد، التي تبدو أنّها كانت يسيرة وغير معقدة، وأنّها كانت تتسم بقلة الرفاهية، وشغف العيش.

٤. العقائد والأديان:

من الطبيعي أن ينتشر الإسلام في البلاد موضوع الدراسة قبيل دخول العرب المسلمين إلى تلك البقاع؛ ولكن وعن طريق إشارات المصادر التاريخية والجغرافية سواء كانت ذلك المصدرين المستهدفين في البحث (القلقشندي والمقرئزي)، أو غيرهما من المصادر يبدو أنّ هناك أدیانًا وعقائد أخرى، فضلًا عن أنّ انتشار الإسلام، الذي لم يكن بالصورة التي يمكن القول: إنّه أصبح الدين الذي يغلب على حياة السكان في جميع الممالك الإفريقية جنوب الصحراء؛ فعلى الرغم مثلاً من دخول العرب المسلمين أرض البجة مبكرًا، إلا أنّ تلك المملكة بقيت على وثنياتها القديمة مدة من الزمن حتّى القرن الثالث الهجري، وكانت تدين بعبادة الأصنام^(٣)، فضلًا عن عقائد أخرى أشار إليها المقرئزي (ت ٨٤٥هـ) كعبادة الشيطان؛ إذ كان لهم كاهن يضرب له قبة من آدم معبدهم فيها، ويخرج إليهم من الخيمة، ويقول لهم: الشيطان يقرؤكم السلام، ويعدهم بأنّهم إذا كان لهم غزو فإنّهم سوف يظفرون ويغنمون، وقد بقي في الحدارب وهي من

(١) المقرئزي، الخطط، ٣٥٨/١.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٩٣/٥-٢٩٤.

(٣) اليعقوبي، تاريخ، ١٩٢/١.

القبائل في البجة كما أسلفنا جماعة على ذلك المذهب، ومنهم من يتمسك بذلك مع إسلامه^(١).

وهذا يعني أنّ الإسلام لم يكن لينتشر في كلّ المجتمع البجاوي، ويبدو أنّه كان ضعيفاً حتّى فيمن اعتنقوه، وأنّه لم يكن له الأثر العظيم في نفوسهم على الأقل حتّى القرن السادس الهجريّ، ونستشف ذلك عن طريق مشاهدة ابن جبير (ت ٤٦١ هـ) بقوله: بأنهم "فرقة أضل من الأنعام سبيلاً، وأقل عقولاً، ولا دين لهم سوى كلمة التوحيد التي ينطقون بها؛ إظهاراً للإسلام، ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة، وسيرهم ما لا يرضى ولا يحل"^(٢)؛ ولكن يبدو أنّ الأمر قد اختلف بعد ذلك، وأنّ أحوال قبائل البجة جمعياً قد تغيرت، ولاسيّما في القرنين الثامن والتاسع الهجريين؛ فاعتنقوا الإسلام، وتأثروا بالثقافة العربيّة الإسلاميّة، وأنّ وجود عادات وتقاليد غريبة مسألة طبيعيّة، تشترك فيها الشعوب جمعياً التي اعتنقت الإسلام^(٣)، وأنّ وجود ديانات أخرى مسألة بديهية؛ فمتلما كان هناك مسلمون كان هناك هناك فيهم نصارى وأصحاب أوثنان^(٤)، أمّا الممالك الأخرى فيبدو أنّ الإسلام قد انتشر فيها وأصبح بعضها مراكز للإشعاع الحضاري الإسلامي، ولاسيّما في بلاد الكانم، التي اعتنقت الإسلام على مذهب الإمام مالك^(٥)، وأنهم كانوا يتبعون المدرسة المالكية في مصر، التي كانت تعرف بمدرسة ابن رشيق^(٦).

(١) الخطط، ٣٦٢/١-٣٦٣.

(٢) رحلة ابن جبير، ص ٤٢.

(٣) مُحمّد عوض، السودان الشمالي، ص ٣٥-٣٦.

(٤) ابن سعيد المغربي، بسط الأرض، ص ٥٠.

(٥) الطحاوي، عتاب، إفريقيا الإسلاميّة، مطبعة جامعة القاهرة، (القاهرة، ١٩٧٠م)، ص ١٩٣. والإمام مالك هو: أبو عبدالله مالك بن أنس بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث، أمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأعلام، أخذ القراءة عرضاً عن نافع بن أبي نعيم، وسمع الزهري، وروى عنه الأوزاعي، قال ابن وهب عنه: سمعت منادياً في المدينة: ألا لا يفتي الناس إلّا مالك بن أنس وابن أبي ذئب. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٣٥/٤.

(٦) المقرئزي، الخطط، ٣٥٨/٤.

ومن الممالك الإفريقية التي انتشر فيها الإسلام انتشارًا واضحًا مملكة مالي؛ فكانوا مسلمين، وكانوا يعتنون بقراءة القرآن الكريم، ولهم عناية بالفقه، والمعاملات، وما يتعلق بالشرعية الإسلامية^(١).

أمَّا بلاد الحبشة فقد انقسمت على بلاد نصرانية على مذهب اليعاقبة^(٢)، ومسلمين، وهم بلاد الزيلع، وكانوا يحافظون على دينهم، وعندهم مساجد وجوامع تقام فيها صلاة الجمعة، وكانوا على المذهب الحنفي، باستثناء مملكة أوفات التي كان غالبية سكانها على المذهب الإمام الشافعي، مع وجود الأحناف^(٣).

أمَّا بلاد النوبة فإنهم كانوا نصارى، وعلى المذهب اليعقوبي^(٤).

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٩٨/٥؛ وطرخان، دولة مالي الإسلامية، ص ١٥٣.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٩٥/٥.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٩٥/٥؛ والمقريري، الإمام، ص ٨٥؛ والعمري، مسالك الأبصار، ٦٥/٤.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣٠٠/٥-٣٠١، ٤٤/٨؛ والمقريري، الخطط، ٣١٠/١.

الخاتمة.

الخاتمة

بعد أن وفقني الله تعالى على إتمام هذه الأطروحة فقد توصلنا إلى جُملة من النتائج التي أفرزتها الروايات والنصوص التاريخية الواردة عند كُُلِّ من القلقشندي والمقريزي، التي يمكن إجمالها على النحو الآتي:

١. تبين عن طريق البحث أنَّ السيرة الشخصية والأسرية للقلقشندي (ت ٨٢١هـ) يكتنفها الكثير من الغموض، ورُبَّمَا أنَّ عزلته نتيجة عمله في ديوان الإنشاء كانت السبب في ذلك؛ وعليه فإنَّ الباب يبقى مفتوحًا في هذا المجال؛ إذ رُبَّمَا يأتي باحث آخر ويحصل على معلومات تميظ اللثام عمَّا قصَّر لدينا من معلومات في سيرة هذا العالم الجليل.

٢. تبين عن طريق الدِّراسة أنَّ المقريزي (ت ٨٤٥هـ) كان يتمتع بشخصية علمية فائقة أتاحت له في الرواية التاريخية، والسعة في دائرة أبحاثه، ولاسيَّما في الجانبين الاجتماعي والسكني؛ وعليه يمكن أن نعدّه مدرسة تاريخية كان لها الأثر العلمي الواضح في الحياة الفكرية في مصر وما حولها.

٣. يُعدُّ كتاب صبح الأعشى للقلقشندي من الكتب المهمة التي يمكن أن نعدّها أنموذجًا لما كتب المؤرخون المصريون في القرن التاسع الهجري، وقد أتاحت له وظيفته في ديوان الإنشاء في الدولة المملوكية سنة (٧٩١هـ) الفرصة في الإطلاع والمعرفة اجتازت حدود دولة مصر إلى ممالك أخرى ومنها إفريقيا جنوب الصحراء، أمَّا ما احتوته كتب المقريزي المشار إليه في الدِّراسة فقد أهلته هو الآخر ليحتل مكانة مرموقة في عدّه أنموذجًا آخرًا لتوضيح معالم كثيرة في المجالات كافة فيما يتعلق بإفريقيا جنوب الصحراء.

٤. تبين بعد البحث أنَّ هناك بعض المسميات للممالك والبلدان في إفريقيا جنوب الصحراء ترجع إلى عصور ساحقة في القدم، وأنَّ بعض تلك البلدان بقيت

تحتفظ بتلك الأسماء من دون تغيير، كبلاد البجة مثلاً، التي تعود تسميتها إلى عهد الفراعنة.

٥. أثبتت الدراسة من خلال مؤلفات كُـلِّ من القلقشندي والمقريزي أنّ قبائل البجة هي من أولى القبائل الحامية التي استقرت في إفريقيا، ومارست النشاط الإنساني، والتي تشكلت من خليط من السلالات الحامية من قدماء المصريين، التي امتزجت بسلالات من اليمينيين، وأخرى زنجية، أفرزت على مرّ الزمن السلالة النوبية الحالية.

٦. تبين أنّ سكان بلاد الكانم هم من السكان الأصليين، فضلاً عن العنصر العربيّ الذي هاجر إلى تلك الممالك، أمّا الأحباش فهم مجموعة تتألف من خليط من عدّة سلالات تتحدث لغات ولهجات مختلفة، وينتمي أغلبها إلى مجموعة القوقازية التي تنقسم على ساميين وحاميين.

٧. توصلت الدراسة إلى تشابه أنظمة الحكم في الممالك الإفريقية جنوب الصحراء؛ فهي تتشابه من ناحية المراسيم في البلاط لتلك الممالك، التي تجمع بين الطابع الإفريقي والشكل الإسلامي، أمّا نظام الحكم فيها فهي وراثية؛ ولكن السلطة هنا لا تنتقل من الأب إلى الابن، بل من الخال إلى ابن أخته.

٨. تبين عن طريق الدراسة أنّ انتقال القبائل العربية إلى بلاد النوبة اتخذ أسلوباً عسكرياً، أمّا انتقال العنصر العربيّ إلى بلاد السودان الأوسط والغربي؛ فكان عن طريق التجارة.

٩. توصلت الدراسة أنّ أغلب البلاد أو الممالك في إفريقيا جنوب الصحراء هي من الشعوب الرعوية، وأنّهم كانوا يقنتون الإبل، وبيرونها، ويفضلون بين أجناسها، ولاسيّما مملكة البجة؛ ولكن هذا لا يعني أنّ اقتصادهم اقتصر على الرعي وحسب، بل شمل الزراعة والتجارة، فضلاً عن العناية باستخراج المعادن الثمينة، ولاسيّما الذهب والزمرد.

١٠. أثبتت الدراسة أهمية المواقع الجغرافية لبعض ممالك إفريقيا جنوب الصحراء، كمملكتي الكانم والبرنو، وإنَّ الثراء الاقتصادي الذي تميزتا به أساسه الموقع الجغرافي، الذي جعلهما تتحكمان في شبكة الطرق التجارية بين طرفي الصحراء الكبرى، وتكوّن ما يعرف بالتجارة الكارمية الذي ميّز تلك الممالك.
١١. ازدهرت الحياة الاقتصادية في مملكة مالي؛ اعتماداً على التجارة القائمة على تبادل السلع من الذهب والنحاس، وكانا أساس المبادلات في الأسواق، فضلاً عن وجود التبادل عن طريق المقايضة، ولاسيّما في الأماكن النصرانية من بلاد الحبشة، فضلاً عن وجود عملة تسمى الحنكة، وهي عبارة عن حديد مضروب كالإبر بالطول كلّ ثلاث بالعد قيمتها درهم، وذلك متعارف عليه في بلد الزيلع.
١٢. أظهرت الدراسة الواقع الاجتماعي الذي كانت عليه ممالك إفريقيا جنوب الصحراء؛ إذ إنّ أهل تلك الممالك تمسكوا بعاداتهم القديمة، فضلاً عمّا اكتسبوه من عادات وقيم عربية إسلامية؛ ولكن الطابع المحلي المرتبط بالبيئة هو السائد، مع الأخذ بالحسبان خصوصيات بعض الممالك، كمملكة النوبة، التي تأثر واقعها الجغرافي بالقيم والتقاليد العربية الإسلامية إلى حدّ كبير، واندمج السكان المحليين مع المهاجرين وانصهر الجميع في بوتقة واحدة؛ فكانوا يواظبون على حضور صلاة الجمعة مرتدين الثياب البيض.
١٣. تبين عن طريق الدراسة أنّ هناك انسجاماً اجتماعياً بين السكان والسلطين عن طريق حضور الأخيرين في الاحتفالات العامة والأعياد، ومشاركتهم أفراحهم وأتراحهم، وكان ذلك واضحاً عند أهل السودان.
١٤. ظلت هذه البلاد أغلبها تابعة لمصر سياسياً ودينياً.

الملاحق
علاء الدين

الملحق (١)

مؤلفات أخرى للقلشندي والمقريزي^(١).

| ت | اسم الكتاب | المؤلف | المصدر |
|---|--|----------|---|
| ١ | البروق اللوامع في حل جامع المختصرات ومختصر الجوامع. | القلشندي | القلشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري (ت ١٨/٥٨٢١م)، قلاند الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، ط٢، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتب المصري، (القاهرة، ١٩٨٢م). |
| ٢ | تقريظة لقاضي القضاة شيخ الإسلام جلال الدين عبدالرحمن بن شيخ الإسلام أبي حفص عمر البلقيني الكنائي الشافعي | القلشندي | القلشندي، صبح الأعشى، ٥٦٤/١. |
| ٣ | حلية الفضل وزينة الكرم في المفاخرة بين السيف والقلم. | القلشندي | القلشندي، صبح الأعشى، ٢٦٣/١٤. |
| ٤ | ضوء الصبح المسفر وجنى الروح المثمر. | القلشندي | البغدادي، هدية العارفين، ١٢٢/١. |
| ٥ | الغيوث الهوامع في شرح جمع المختصرات. | القلشندي | القلشندي، صبح الأعشى، ٣٥٠/١. |
| ٦ | قلاند الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان. | القلشندي | أبو زيد، طبقات النسابين، ١٥٠/١. |
| ٧ | الكواكب الدرية في المناقب البدرية. | القلشندي | القلشندي، صبح الأعشى، ١٢٦/١٤. |
| ٨ | كنة المراد في شرح بانة سعاد. | القلشندي | القلشندي، أحمد بن علي الفزاري (ت ١٨/٥٨٢١م)، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ط٢، دار الكتب العلميّة، (بيروت، ٢٠١٢م)، ص ٣٧٥. |

(١) الكتب الواردة في هذا الملحق منها ما هو مطبوع ومنها ما هو مخطوط؛ ولكنه لم يصل إلينا، وورد

ذكره عند القلشندي، أو المقريزي، أو المصادر المشار إليها في حقل المصدر.

| ت | اسم الكتاب | المؤلف | المصدر |
|----|--|-----------|---|
| ٩ | مآثر الأنافة في معالم الخلافة. | القلقشندي | السخاوي، الضوء اللامع، ٢٣/٢. |
| ١٠ | نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب. | القلقشندي | القلقشندي، مآثر الأنافة في معالم الخلافة، ٢١١/٢. |
| ١١ | اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء. | المقريزي | السخاوي، الضوء اللامع، ٢٣/٢. |
| ١٢ | الأخبار عن الأعداء. | المقريزي | السخاوي، الضوء اللامع، ٢٢/٢. |
| ١٣ | إزالة التعب والعناء في معرفة الحال في الغناء. | المقريزي | ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ٣٩٨/١. |
| ١٤ | الإشارة والإعلام ببناء الكعبة والبيت الحرام. | المقريزي | المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، (ت ٥٨٤هـ/١٤٤م)، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق: جمال الدين الشيال، مكتبة الثقافة الدينية، (بور سعيد، ٢٠٠٠م)، ص ٢٤. |
| ١٥ | إغاثة الأمة بكشف الغمة. | المقريزي | سليم، محمود رزق، عصر السلاطين ونتاجهم العلمي والأدبي، (القاهرة، ١٩٤٧م)، ص ٣١٧. |
| ١٦ | الإمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام. | المقريزي | طبع في القاهرة، المكتبة الأزهرية للتراث، ٢٠٠٦م، تحقيق: عبدالمنعم ضيفي عثمان ضيفي عثمان عبدالمنعم. |
| ١٧ | الأوزان والأكيال الشرعية. | المقريزي | طبع في القاهرة، دار البشائر الإسلامية، ٢٠٠٧م، تحقيق: سلطان بن هليل بن عبدالمسمار. |
| ١٨ | البيان والإعراب عمّا بأرض مصر من الأعراب. | المقريزي | طبع في مصر، مطبعة التعارف، ١٩١٦م، تحقيق: إبراهيم رمزي. |
| ١٩ | المقفي الكبير في تاريخ أهل مصر والدواوين عليها. | المقريزي | السخاوي، الضوء اللامع، ٢٢/٢. |
| ٢٠ | التذكرة. | المقريزي | ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ٣٩٨/١. |
| ٢١ | تلقيح العقول والآراء في تنقيح أخبار الجلة الوزراء. | المقريزي | المقريزي، الخطط، ٤٤٣/١. |

| ت | اسم الكتاب | المؤلف | المصدر |
|----|---|----------|--|
| ٢٢ | خلاصة التبر في كتاب السر. | المقريزي | المقريزي، الخطط، ٦٣/٢. |
| ٢٣ | درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة. | المقريزي | ابن خلدون، المقدمة، ص ١٠٧. |
| ٢٤ | الدرر المضيئة في تاريخ الدولة الإسلامية. | المقريزي | السخاوي، الضوء اللامع، ٢٣/٢. |
| ٢٥ | ذكر ما ورد في بنيان الكعبة المعظمة. | المقريزي | السخاوي، الضوء اللامع، ٢٣/٢. |
| ٢٦ | الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك. | المقريزي | طبع في مصر، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٠م، تحقيق: جمال الدين الشيال. |
| ٢٧ | السلوك لمعرفة دول الملوك. | المقريزي | طبع في القاهرة، لجنة التاريخ والترجمة، دار الكتب المصرية، ١٩٣٤م، ١٩٧٣م، تحقيق: د. مصطفى زيادة وسعيد عبدالفتاح عاشور. |
| ٢٨ | شارع النجاة. | المقريزي | السخاوي، الضوء اللامع، ٢٣/٢. |
| ٢٩ | شذور العقود في ذكر النفود. | المقريزي | طبع في القاهرة، المطبعة العصرية، ١٠٣٠م، تحقيق: الأب انستانس ماري الكرمللي. |
| ٣٠ | ضوء الساري في معرفة خبر تميم الداري. | المقريزي | طبع في القاهرة، الاعتصام، ١٩٧٢م، بتحقيق: مُحَمَّد أحمد عاشور. |
| ٣١ | عقد جواهر الأسقاط في أخبار مدينة الفسطاط. | المقريزي | سليم، عصر السلاطين، ص ٣١٧. |
| ٣٢ | قرض سيرة المؤيد لابن ناهض. | المقريزي | السخاوي، الضوء اللامع، ٢٣/٢. |
| ٣٣ | ما شاهده وسمعه مما لم ينقل في كتاب. | المقريزي | السخاوي، الضوء اللامع، ٢٤/٢. |
| ٣٤ | مجمع الفرائد ومنبع الفوائد. | المقريزي | السخاوي، الضوء اللامع، ٢٣/٢. |
| ٣٥ | معرفة ما يجب لآل البيت النبوي من الحق على من عداهم. | المقريزي | طبع في القاهرة، الاعتصام، ط ٢، ١٩٧٣، تحقيق: مُحَمَّد أحمد عاشور. |

| ت | اسم الكتاب | المؤلف | المصدر |
|----|--|----------|--|
| ٣٦ | المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. | المقريزي | طبع في القاهرة، المؤسسة المصرية العامة، ١٩٦٣م. |
| ٣٧ | نحل عبر المنحل. | المقريزي | طبع في القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٤٦م، بتحقيق: د. جمال الدين الشيال. |
| ٣٨ | النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم. | المقريزي | طبعة القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٨م، تحقيق: حسين مؤنس. |

الملاحق (٢)

نسخة مصورة من كتاب المقرئى، المواعظ والاعتبار لعقد الأمان (١).

كتبنا بسخطه هذا كتاب كتبه عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين صاحب جيش الفزة عام الامبر الى
أسحق بن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله في شهر ربيع الأول سنة ست عشرة ومائتين لكون بن عبد العزيز
عظيم الجاه بأسوان أنك سألتنى وطلبت الى أن أؤمّنك وأهل بلدك من أجبّه وأعد لك ولهم أمانا على وعلى
بجميع المسلمين فأجبتك الى أن عقدت لك وعلى جميع المسلمين أمانا ما استقممت واستقاموا على ما أعطيتنى
وشرطت لى فى كالى هذا وذلك أن يكون سهل بالبلد وجباها من منتهى حد أسوان من أرض مصر الى حد ما بين
دهلك وأضبع ملكا للمأمون عبد الله بن هرون أمير المؤمنين أعزه الله تعالى وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لامير
المؤمنين الا انك تكون فى بلدك ملكا على ما أنت عليه فى الجبّه وهى أن تؤدّى اليه الخراج فى كل عام على ما كان
عليه سلف الجبّه وذلك مائة من الابل أو ثلثمائة دينار وازنة داخله فى بيت المال والى ذلك لامير المؤمنين
ولولاه ولتس لك أن تحرم شيا عليك من الخراج وعلى أن كل أحد منكم ان ذكر محمد ارسل الله صلى
الله عليه وسلم او كتاب الله أو دينه بما لا ينبتى أن يذكره به أو قتل أحد من المسلمين حرا أو عبدا فقد برئت منه الذمة
ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة أمير المؤمنين أعزه الله وذمة جماعة المسلمين وحلّ ذمه كما يحلّ دم
اهل الحرب وذرايرهم وعلى أن أخذ منكم ان أمان المخاريج على أهل الاسلام بما لا يؤدله على عورة من عورات
المسلمين أو أن ترهبهم فقد قصص ذمة عهدهم وحلّ ذمه وعلى أن أحد منكم ان قتل أحد من المسلمين عبدا أو مهورا
أو خطبا حرا أو عبدا أو احدا من أهل ذمة المسلمين أو اصاب لا أحد من المسلمين أو أهل ذمتهم ما لا يبيد الجبّه
أو يبلد الاسلام أو يبلد النبوة أو فى شئ من البلدان حرا أو بحر ففعله فى قتل المسلم عشر ديات وفى قتل العبد
المسلم عشرة قيم وفى قتل الذمى عشر ديات من دياتهم وفى كل مال أصبغوه للمسلمين وأهل الذمة عشر ديات
وان دخل أحد من المسلمين بلاد الجبّه ناجرا أو مقبلا أو مجتازا أو حاجا فهو آمن فىكم كما حدكم حتى يعجز
من بلادكم ولا تؤثروا أحدا من أتى المسلمين فان اتاكم آت فمليكم أن تردوه الى المسلمين وعلى أن تردوا أموال
المسلمين اذا صارت فى بلادكم بلا مؤنة نازهمهم فى ذلك وعلى انكم ان نزلتم بريف صعيد مصر لقيارة أو مجتازين
لا تظهروا سلاحا ولا تدخلون المدائن والقرى بخال ولا تتعزوا أحد من المسلمين الذمى فى بلادكم والقيارة
فبها بزا ولا تجرا ولا تتفقوا التسييل ولا تقطعوا الطريق على أحد من المسلمين ولا اهل الذمة ولا تشرفوا المسلم
ولا ذمى ما لا على أن لا تدموا شيا من المساجد التى ابتناها المسلمون به مسجحة وهجر وسائر بلادكم طولاً
وعرضاً فان فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة وعلى أن تكون بن عبد العزيز يقيم بريف صعيد مصر وكىلابى
لا يمرض خطا القصر الى قرية يقال لها قبان من بلاد النبوة حدا لعمدة عقد عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين
لكنون بن عبد العزيز كبير الجبّه الامان على ما مينا وشرطنا فى كتابنا هذا وعلى أن يوافق به أمير المؤمنين فان زاع
كثون او عاث فلا عهد له ولا ذمة وعلى كثون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد الجبّه لقبض صدقات من أسلم
من الجبّه وعلى كثون الوفاء بما شرط لعبد الله بن الجهم وأخذ بذلك عهد الله عليه باعظم ما أخذ على خلقه من
الوفاء والميثاق ولكنون بن عبد العزيز وجميع الجبّه عهد الله وميثاقه وذمة أمير المؤمنين وذمة الامير
أبى اسحاق بن أمير المؤمنين الرشيد وذمة عبد الله بن الجهم وذمة المسلمين بالوفاء بما اعطاه عبد الله بن الجهم
ما ذى كثون بن عبد العزيز بجميع ما شرط عليه فان غير كثون أو بذل أحد من الجبّه فذمة الله بكل اسمه وذمة
أمير المؤمنين وذمة الامير أبى اسحاق بن أمير المؤمنين الرشيد وذمة عبد الله بن الجهم وذمة المسلمين برية منهم
وترجم جميع ما فى هذا الكتاب حرقا حرقا فتركيابن صالح الخزومى من سكان جندة وعبد الله بن اسمعيل القرشى
ثم نسق جماعة من شهود أسوان فأقام الجبّه على ذلك

الملاحق (٢)

نسخة مصورة من كتاب المقرئى، المواظ والاعتبار لمعاهدة البقط (١).

كتابا نسخته بعد البسملة عهد من الامير
 عبد الله بن سعد بن ابى سرح لعظيم النوبة وجميع أهل مملكته عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة من حد
 أرض اسوان الى حد أرض علوة أن عبد الله بن سعد جعل لهم أما ناهدثة تجارية بينهم وبين المسلمين عن جاورهم
 من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة انكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد
 النبي صلى الله عليه وسلم أن لا تخاربتكم ولا تصيبكم حربا ولا تغزوكم ما أنتم على الشرائط التي بيننا وبينكم على
 أن تدخلوا بلادنا مجتازين غير متيمين فيه ونه دخل بلادكم مجتازين غير متيمين فيه وعليكم حفظ من نزل بلادكم
 أو يطرقه من مسلم أو مهاجد حتى يخرج عنكم وإن عليكم رد كل آبق يخرج اليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه الى
 أرض الاسلام ولا تستولوا عليه ولا تمنعوا منه ولا تعترضوا المسلم فتهدمه وحاوره الى أن ينصرف عنه وعليكم
 حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون ببناء مدينتكم ولا تمنعوا منه مصليا وعليكم كنسبه واسراجه وتكرمه وعليكم
 في كل سنة ثمانمائة وستون رأسا تدفعونها الى امام المسلمين من أوسط رقبتي بلادكم غير المعيب يكون فيها
 ذنكيران واناك ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم تدفعون ذلك الى والى اسوان وليس هلى
 مسلم دفع عدو عرض لكم ولا منعه عنكم من حد أرض علوة الى أرض اسوان فان اتم آويتهم عبد المسلم أو قتلتم
 مسلما أو مهاجدا أو لغزتم للمبجد الذي ابتناه المسلمون ببناء مدينتكم بهدم أو منعتهم شيئا من الثمانمائة رأس
 والستين رأسا فقد برئت منكم هبذه الهدنة والامان وعدنا نحن وأنتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير
 الحاكمين علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ولنا عليكم بذلك أعظم
 ما تدينون به من ذمة المسيح وذمة الطوارئين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم ومملكتكم الله الشاهد بيننا وبينكم
 على ذلك كتبه عمرو بن شرجيل في رمضان سنة احدى وثلاثين *

الملاحق (٤)

نص رسالة الماي عثمان بن إدريس (٧٩٥-٨٢٩هـ/١٣٩٢-١٤٢٥م) التي بعث بها إلى السلطان المملوكي الناصر أبو سعيد برقوق (٧٨٤-٨٠١هـ/١٣٨٢-١٣٩٨م) (١).
في المكاتبات الصادرة عن صاحب البرنو

ورسم مكاتبته أن تكتب في ورق مربع بخط كخط المغاربة، فإن فضل من المكاتبه شيء كتب بظاهاها، وتفتح المكاتبه بخطبة مفتوحة بالحمد، ثم تتخلص إلى المقصد ببعديه، ويأتي على المقصد إلى آخره، ورأيته قد ختم مكاتبته إلى الأبواب السلطانية بقوله: والسلام على من اتبع الهدى، وكأن ذلك جهل من الكاتب بمقاصد صناعة الإنشاء؛ إذ لا يهتدون إلى حقائقه.

وهذه نسخة كتاب ورد على الملك الظاهر أبي سعيد برقوق، ووصل في شهر سنة أربع وتسعين وسبعمئة، حصة ابن عمه، مع هدية بعث بها إلى السلطان؛ بسبب ما يذكر فيه من أمر عرب جذام المجاورة لهم، وهي في ورق مربع، السطر إلى جانب السطر، بخط مغربي، وليس له هامش في أعلاه ولا جانبه، وتتمه الكتاب في ظهره من ذيل الكتاب وهو:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، صلى الله على سيدنا مُحَمَّد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

الحمد لله الذي جعل الخط ترأسلاً بين الأبعاد، وترجماناً بين الأقارب، ومصافحة بين الأحباب، ومونساً بين العلماء، وموحشاً بين الجهال، ولولا ذلك لبطلت الكلمات، وفسدت الحاجات.

وصلوات الله على نبينا المصطفى، ورسولنا المرتضى، الذي أعلق الله به باب النبوة، وختم وجعله آخر المرسلين بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، ما ناحت الورق، وما عاقب الشروق الأصيل، ثم بعد ذلك أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، رضي الله عنهم أجمعين.

(١) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٨/١١٦-١١٨.

من المتوكل على الله تعالى الملك الأجل سيف الإسلام، وربيع الأيتام، الملك المقدم، القائم بأمر الرحمن، المستنصر بالله المنصور في كل حين، وأوان، ودهر، وزمان: الملك العادل الزاهد، التقى النقي الأنجد الأجد الغشمشم فخر الدين زين الإسلام، قطب الجلالة، سلالة الكرماء، كهف الصدور، مصباح الظلام، أبي عمرو عثمان الملك ابن إدريس الحاج أمير المؤمنين المرحوم، كرم الله ضريحه، وأدام ذرية هذا بملكه. هذا اللفظ وارد على لسان كاتبنا لا لنا ولا فخر: إلى ملك مصر الجليل، أرض الله المباركة أم الدنيا.

سلا عليك أعطر من المسك الأذفر، وأعذب من ماء الغمام واليم، زاد الله ملككم وسلطانكم، والسلام على جلسائكم، وفقهائكم، وعلمائكم، الذين يدرسون القرآن، والعلوم، وجماعتكم، وأهل طاعتهم أجمعين.

وبعد ذلك فاتنا أرسلنا إليكم رسولنا، وهو ابن عمي، اسمه إدريس بن مُحَمَّد من أجل الجائحة التي وجدناها، وملوكننا، فإن الإعراب الذين يسمون جذامًا وغيرهم قد سبوا أحرارنا: من النساء، والصبيان، وضعفاء الرجال، وقرابتنا، وغيرهم من المسلمين، ومنهم من يشركون بالله، يمارقون للدين؛ فغاروا على المسلمين، وقتلوهم قتلاً شديداً، لفتنة وقعت بيننا وبين أعدائنا؛ فبسبب تلك الفتنة قد قتلوا ملكاً، عمرو بن إدريس الشهيد، وهو أبونا ابن أبينا إدريس الحاج بن إبراهيم الحاج، ونحن بنو سيف بن ذي يزن، والد قبيلتنا العربي القرشي، كذا ضبطناه عن شيوخنا، وهؤلاء الأعراب قد أفسدوا أرضها كلها، في بلد برنو كافة حتى الآن، وسبوا أحرارنا وقرابتنا من المسلمين، وبييعونهم لجلاب مصر، والشام، وغيرهم، ويختمون ببعضهم، فإن حكم مصر قد جعله الله في أيديكم من البحر إلى أسوان؛ فإنهم قد اتخذوا متجراً؛ فتبعثوا الرسل إلى جميع أرضكم، وأمرائكم، ووزرائكم، وقضائكم، وحكامكم، وعلمائكم، وصواحب أسواقكم، ينظرون، ويكشفون؛ فإذا وجدوهم فليبرعوه من أيدهم وليبتلوهم، فإن قالوا نحن أحرار، ونحن مسلمون فصدقوهم، ولا تكذبون؛ فإذا تبين ذلك لكم فأطلقوهم وردوهم إلى حريتهم وإسلامهم؛ فإن بعض الأعراب يفسدون في أرضنا، ولا يصلحون، فإنهم الجاهلون كتاب الله وسنة رسولنا ﷺ؛ فإنهم يزينون الباطل؛ فاتقوا

قائمة ملوك مالي ومدد حكمهم^(١).

| ت | اسم الملك | مدة حكمه |
|----|---|-----------------------------------|
| ١ | ماري جاطة بن ناري فامغان (سندياتا كيتا). | (٦٢٨-٦٥٢هـ/١٢٣٠-١٢٥٥م) |
| ٢ | منسا ولي بن ماري جاطة (منسا علي). | (٦٥٣-٦٦٩هـ/١٢٥٥-١٢٧٠م) |
| ٣ | منسا واتي بن ماري جاطة. | (٦٦٩-٦٧٣هـ/١٢٧٠-١٢٧٤م) |
| ٤ | منسا خليفة بن ماري جاطة. | (٦٧٣-٦٧٤هـ/١٢٧٤-١٢٧٥م) |
| ٥ | منسا أبو بكر (ابن بنت ماري جاطة). | (٦٧٤-٦٨٤هـ/١٢٧٥-١٢٨٥م) |
| ٦ | منسا ساكورة (أحمد موالى الأسرة الحاكمة). | (٦٨٤-٥٧٠هـ/١٢٨٥-١٣٠٠م) |
| ٧ | منسا قو بن ماري جاطة. | (٧٠٠-٧٠٥هـ/١٣٠٠-١٣٠٥م) |
| ٨ | منسا مُحَمَّد بن قو بن ماري جاطة. | (٧٠٥-٧١٠هـ/١٣٠٥-١٣١٠م) |
| ٩ | منسا موسى بن أبي بكر. | (٧١٢-٧٣٧هـ/١٣١٢-١٣٣٧م) |
| ١٠ | منسا مغا بن منسا موسى. | (٧٣٧-٧٤١هـ/١٣٣٧-١٣٤١م) |
| ١١ | منسا سليمان بن أبي بكر (شقيق منسا موسى). | (٧٤١-٧٦١هـ/١٣٤١-١٣٦٠م) |
| ١٢ | منسا قسا بن سليمان. | (حكم تسعة أشهر عام ٧٦١-١٣٦٠م) |
| ١٣ | ماري جاطة الثاني بن منسا مغا. | (٧٦١-٧٧٥هـ/١٣٦٠-١٣٧٤م) |
| ١٤ | منسا موسى الثاني بن ماري جاطة الثاني. | (٧٧٥-٧٨٩هـ/١٣٧٤-١٣٨٨م) |
| ١٥ | منسا مغا الثاني بن ماري جاطة الثاني. | (٧٩٠-٧٩١هـ/١٣٨٩-١٣٩٠م) |
| ١٦ | الوزير صندكي (زوج أم منسا موسى الثاني). | (٧٩١-٧٩٢هـ/١٣٩٠-١٣٩١م) |
| ١٧ | محمود بن منسا قو بن منسا ولي (منسا مغا الثالث). | استولى على الحكم عام ٧٩٢هـ/١٣٩٠م) |

الملحق (٦)

(١) من إعداد الباحثة، اعتماداً على ما أورده ابن خلدون، العبر، ٦/٢٦٦-٢٧٠؛ والقفشندي، صبح

الأعشى، ٥/٢٩٣-٢٩٨.

المراسلات والسفارات الحبشية إلى مصر في عهد دولة سلاطين المماليك.

| ت | ملك الحبشة | سلطان مصر | السنة | الغرض من السفارة | المصدر |
|---|------------------|----------------|-------------|--|--|
| ١ | يكونو أملاك | الظاهر بيبرس | ٦٧٢هـ/١٢٧٢م | طلب مطران | العيني، عقد الجمان، ٢٣٥/١. |
| ٢ | يجيبا صيون | المنصور قلاوون | ٩٨٩هـ/١٢٩٠م | طلب مطران | ابن عبدالظاهر، تشریف الأيام، ص ١٧٠-١٧١. |
| ٣ | عمدا صيون | الناصر محمد | ٧٢٦هـ/١٣٢٥م | التوصية بالنصاري | النويري، نهاية الأرب، مج ٣٠، ص ١٩٧-١٩٨، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٠٣/٩، ١٤٥. |
| ٤ | داود بن سيف أرعد | الظاهر برقوق | ٧٨٨هـ/١٣٨٦م | تجديد عهد الصداقة والمودة | ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٣٦٩؛ الصيرفي، نزهة النفوس، ١/٩٥، ١٤٥، ١٠٣. |
| ٥ | زرع يعقوب | الأشرف برسباي | ٨٤١هـ/١٤٣٧م | طلب مطران + التوصية بالنصاري | الصيرفي، نزهة النفوس، ٣/٣٩٨. |
| ٦ | زرع يعقوب | جقمق العلاني | ٨٤٧هـ/١٤٤٣م | التوصية بالنصاري + التهديد بتحويل مجرى النيل | السخاوي، التبر المسبوك، ١/٦٨-٧٢. |
| ٧ | اسكندر بن أدماس | الأشرف قايتباي | ٨٨٦هـ/١٤٨٠م | طلب مطران | ابن إياس، بدائع الزهور، ٣/١٧٩-١٨٠؛ القنائي، الجواهر الحسان، ص ١٦. |
| ٨ | لبنا دنجل | قنصوة الغوري | ٩٢٢هـ/١٥١٦م | التوصية بالحجاج الأحباش | ابن إياس، بدائع الزهور، ٥/١١١-١١٠. |

نص رسالة يكونو أملاك ملك الحبشة إلى السلطان الظاهر بيبرس^(١).

"أقل المماليك، محرًا ملاك يبيل الأرض، وينهى بين يدي السلطان الملك الظاهر، خذ الله ملكه، إن رسول وصل من جهة وإلى قوص؛ بسبب الراهب الذي جاءنا؛ فنحن ما جاءنا مطران، وبلادنا بلاد مولانا السلطان ونحن عبيده؛ فيرسم مولانا يأمر إلا البطرک يعمل لنا مطرانًا رجلًا حيدًا عالمًا لا يحب ذهب ولا فضة، ويسيره إلى مدينة عوان، وأقل المماليك يسير إلى أبواب الملك المظفر صاحب اليمن ما يلزمه، وهو يسيره إلى أبواب السلطان. وما كان سبب تأخر الرسل عن الحضور إلى السلطان إلا أنني كنت في بيكار. والملك داود توفى، وقد ملك ولده يا مولانا، وعندي في عسكري مائة ألف فارس مسلمين، وإنما النصراني كثير لا تعد، كلهم غلمانك وتحت أوامرك، والمطران الكبير هو يدعو لك، وهذا الخلق كلهم يقولون: أمين بطول بقاء عمر سلطاننا مالك مصر، ويهلك الله عدوه، ويقول الخلق: أمين، وكل من يصل إلى بلادنا أقل المماليك يحفظهم ويسفرهم كما يحبون، وإنما الرسول الذي سيره وإلى قوص فجدر وهو مريض، وبلادنا بلاد وخمة؛ أي من مرض ما يقدر أحد يدخل إليه، وأي من شم رائحته يمرض ويموت. والراهب قال: ما يروح بغير رفيق، ونحن فنحفظ كل من يأتي من المسلمين، وارسموا فسيروا مطرانًا يحفظهم".

رد السلطان الظاهر على رسالة يكونو أملاك^(٢).

"ورد كتاب الملك الجليل الهمام العادل في مملكته حتى ملك امخره، أكبر ملوك الحبشان، الحاكم على ما لهم من البلدان، نجاشي عصره (وفريد مملكته في دهره)، سيف الملة المسيحية، وعضد دين النصرانية، صديق الملوك والسلاطين، سلطان الأمهرة، حرس الله نفسه، فوقفنا عليه، وفهمنا ما فيه، فأما طلب المطران فلم يحضر من جهة الملك رسول حتى كان نعرف الغرض المطلوب، وإنما كتاب مولانا السلطان الملك المظفر ورد مضمونه: أنه وصل من جهته كتاب وقاصد، وأنه أقام عنده حتى يسير إليه الجواب، وأما ما ذكره من كثرة عساكره وأن من جملتها مائة ألف فارس مسلمين فأخبار البلاد عندنا، ولا تخفى عنا، فالله يكثر عساكر المسلمين، وأما وخم بلاده فالآجال مقدره من الله، وما يموت أحد إلا بأجله، ومن فرغ أجله مات، وكم من جريح بالسيف عاش وصحيح مات، والأمر لله في الجميع".

نص رسالة زرء يعقوب إلى السلطان الظاهر جقمق سنة ٨٤٧هـ/١٤٤٣م^(١).

(١) المقرئزي، السلوك، ٦١٥/١؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ١٢٣/٨.

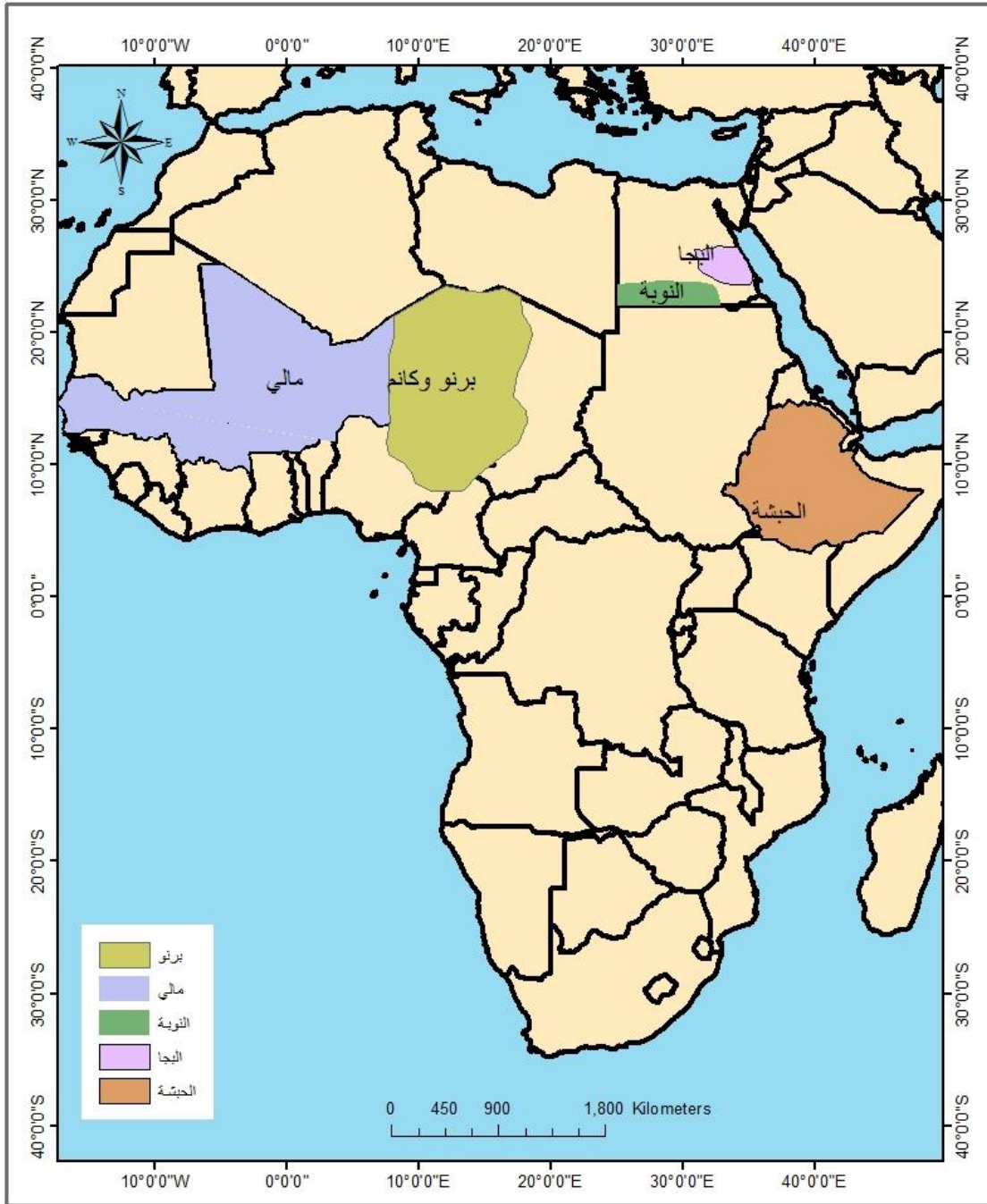
(٢) النويري، نهاية الأرب، ٢١٢/٣٠-٢١٣.

"المحب الصادق زرع يعقوب المكنى قسطنطين من نسل سيف أَرعد من بني سليمان بن داود عليهما السّلام... إلى الإمام الشّريف العالي الأوحدي السلطاني الملك الظاهر جقمق سلطان المسلمين والإسلام بمصر والشّام سيد الأنام الخاص منهم والعام...، قصدنا تجديد ما سبق من العهود من الملوك المتقدمين من بلادنا وبلادكم؛ إتباعاً لآثارهم المشكورة، وقصدنا إعلامكم ذلك بشارة لكم؛ ليكون ذلك العهد مستمراً بلا انحراف، والاتفاق بيننا وبينكم بلا خلاف، وآخر ذلك ما كان في أيام الشهيد الظاهر برقوق ونجله الناصر، إنهم كانوا قائمين بالعدل خصوصاً بإخواننا النصارى متواصلين، ويرجعوا عنهم القوم الراندين وهن كنائسهم والقتل على من فيها من الأقسّة والرهابين، وذلك بما يحققون من مناصحتهم في خدمتهم، ومن كان يموت يدفن من غير تعرض أحد، ومن كان لا وارث له وخلف شيئاً من الموجود يتولى أمره أبونا البطريرك؛ ليستعين به على كلف الواردين والمنقطعين، وقد بلغنا الآن أنّ هذه القواعد قد تغيرت...، إذا مات أحد من إخواننا النصارى لا يدفن إلا بعد مشقة كبيرة لأهله وأقاربه، ويؤخذ منهم ما لم تجر به عادة في أيام الملوك السابقين، ثمّ بلغنا أيضاً أنّ هناك من يتعرض لهم في كنائسهم في أوقات الصلّاة، وفي أيام أعيادهم بقطع مصانعاتهم، وأخذ ما لا يستحقون أخذه، وأنهم في غاية الضيق، وانتم حفظهم الله عارفون ما يلزم الراعي من النظر في حال رعيته، وأنّ الله يطالبه بذلك، وأبونا البطريرك وإخواننا النصارى الذين هم الآن تحت عزّ سلطانكم ومملكتم الشّريفة نفر قليل جداً، ضعفاء الحال، مساكين في كلّ الجهات، ولا يمكن أنّ يكونوا قدر قيراط من المسلمين القاطنين بإقليم واحد من بلادنا...، وليس يخفى عليكم وعلى سلطانكم أنّ بحر النيل ينجز إليكم من بلادنا، ولنا الاستطاعة على أنّ نمنع الزيادة التي تُروى بها بلادكم، ولا يمنعنا عن ذلك إلا تقوى الله، والمشقة على عباد الله، قد عرضنا على مسامعكم ما ينبغي إعلامه؛ فاعملوا أنتم بما يلزمكم، وبما يلقي الله في قلوبكم، ولم يبقَ لكم عذر تبدونه، وفي صدق مودتكم وفضلكم ما يغني عن تكرار السؤال."

الملاحق (٨)

(١) السخاوي، شمس الدّين أبو الخير محمد بن عبدالرحمن (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، التبر المسبوك في ذيل السلوك، مكتبة الكليات الأزهرية، (القاهرة، د.ت)، ص ٦٨-٧٠.

خريطة لممالك إفريقيا جنوب الصحراء (١).



(١) الخريطة من عمل الباحثة.

الملاحق (٩)

خريطة البلدان الإفريقية جنوب الصحراء في الوقت الحاضر (١)



(١) يوسف روكز، إفريقيا السوداء سياسة وحضارة، الموسوعة الجامعية للنشر والتوزيع، (بيروت،

ثبت المصادر والمراجع

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

المصادر الأولية:

- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم مُحَمَّد بن مُحَمَّد الشيباني (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م):
- ١. الكامل في التاريخ، تحقيق: أبو الفدا عبدالله القاضي، ط٢، دار الكتب العلميّة، (بيروت، ١٩٩٥م).
- ٢. اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، (بيروت، د.ت).
- الإدريسي، مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبدالله المعروف بالشريف الإدريسي (ت ٥٦٠هـ/١١٦٥م).
- ٣. أنس المهج وروض الفرج، تحقيق: الوافي النواحي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، (المغرب، ٢٠٠٧م).
- ٤. صفة مغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مطبعة بريل، (ليدن، ١٨٦٦م).
- ٥. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، (بيروت، ١٩٨٩م).
- الأزهري، مُحَمَّد بن أحمد بن الأزهري الهروي أبو المنصور (ت ٣٧٠هـ/٩٨٠م):
- ٦. تهذيب اللغة، تحقيق: مُحَمَّد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربيّ (بيروت، ٢٠٠١م).
- الاصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن مُحَمَّد الفارسيّ (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م):
- ٧. المسالك والممالك، تحقيق: مُحَمَّد جابر عبدالعال، (القاهرة، ١٩٦١م).
- الأكفاني، مُحَمَّد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م):
- ٨. نخبة الذخائر في أحوال الجواهر، دار صادر، (بيروت، د.ت).
- ابن إياس، أبو البركات مُحَمَّد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م):
- ٩. بدائع الزهور في وقائع الدهور، دار الشعب، (القاهرة، ١٩٦٠م).
- ابن بطوطة، مُحَمَّد بن عبدالله بن إبراهيم الطنجي (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م):

١٠. رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)،
(القاهرة، ١٩٦٤م).
- ابن بكرة، منصور الذهبي الكامل (ت ق ٧هـ):
١١. كشف الأسرار العلميّة بدار الضرب المصرية، تحقيق: عبدالرحمن فهمي،
مؤسسة دار التحرير، (القاهرة، ١٩٦٦م).
- البكري، عبيدالله بن عبدالعزيز الأندلسي (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م):
١٢. المسالك والممالك، دار الكتب الإسلامية، (القاهرة، د.ت).
- البكري، سراج الدين أبو حفص عمر بن المظفر (ت ٨٥٢هـ/١٢٩٩م):
١٣. خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تحقيق: نور محمد زناتي، مكتبة الثقافة
الإسلامية، (القاهرة، ٢٠٠٨م).
- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م):
١٤. فتوح البلدان، (القاهرة، ١٣١٨هـ).
- البلوي، عبدالله بن عمير بن محفوظ (ت ق ٤هـ):
١٥. سيرة أحمد بن طولون، تحقيق: محمد كرد علي، (دمشق، ١٣٥٨هـ).
- ابن تغري بردي، يونس بن تغري بردي بن عبدالله الظاهري أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ/
١٤٦٩م):
١٦. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نشر دار الكتب المصرية، (مصر،
د.ت).
١٧. المنهل الصافي المستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة
المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، د.ت).
- التيفاشي، أبو العباس أحمد بن يوسف (ت ٦٥١هـ/١٢٥٣م):
١٨. أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، نشر: أنطونيو دانيدي، (فرنسا،
١٨١٨هـ).
- ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م):

١٩. رحلة ابن جبير (تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار)، تحقيق: حسين مؤنس، (القاهرة، ١٩٠٨م).
- الجزري، عبدالقادر الحنبلي (ت ٩٧٧هـ/١٥٦٩م):
٢٠. الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق: مُحَمَّد حسن إسماعيل، دار الكتب العلميّة، (بيروت، ٢٠٠٢م).
- حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله (ت ١٠٦٧هـ/١٦٥٦م):
٢١. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى، (بغداد، ١٩٤١م).
- ابن حجر، أبو الفضل أحمد علي بن مُحَمَّد بن أحمد العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م):
٢٢. إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق: حسن حبشي، نشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، (مصر، ١٩٦٩م).
٢٣. الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، دار الكتب العلميّة، (بيروت، ١٤١٥هـ).
٢٤. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: مُحَمَّد عبدالمعين خان، ط ٢، مجلس دائرة المعارف العثمانية، (حيدر آباد، ١٩٧٢م).
- الحميري، أبو عبدالله مُحَمَّد بن عبدالله بن عبدالمنعم، (ت ٩٠٠هـ/١٤٩٤م):
٢٥. الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط ٢، مؤسسة الناصر للثقافة، (بيروت، ١٩٨٠م).
- ابن حوقل، أبو قاسم بن حوقل النصيبي (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م):
٢٦. صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، (بيروت، ١٩٩٢م).
- ابن خرداذبه، أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله بن خرداذبه (ت ٣٠٠هـ/٩١٢م):
٢٧. المسالك والممالك، دار صادر، ليدن، (بيروت، ١٨٨٩م).
- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م):
٢٨. تاريخ بغداد، تحقيق: بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، (بيروت، ٢٠٠٢م).
- ابن خلدون، عبدالرحمن بن مُحَمَّد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م):

٢٩. العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر من عاصرتهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الفكر، (بيروت، ٢٠٠١م).
٣٠. المقدمة، تحقيق: علي عبدالواحد، (القاهرة، ١٩٦٢م).
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م):
٣١. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، (بيروت، ١٩٧١م).
- ابن دقماق، إبراهيم محمد بن أيمن العلاني (ت ٨٠٢هـ/ ١٤٠٦م):
٣٢. الانتصار لواسطة عقد الأمصار، طبعة بولاق، ١٨٩٣م.
- دمشقي، شمس الدين أبي عبدالله محمد أبي طالب (ت ٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م):
٣٣. نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية، (بترسبورغ، ١٨٦٥م).
- الدواداري، أبو بكر عبدالله بن أيوب (ت ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م):
٣٤. كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: أولرخ هارمان، المعهد الألماني للأثار، (القاهرة، ١٩٧١م).
- ابن الديبع، أبو ضياء عبدالرحمن علي الشيباني (ت ٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م):
٣٥. قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق: محمد بن علي كوع، ط ٢، (القاهرة، ١٩٨٨م).
- الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م):
٣٦. سيرة أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط ٣، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥م.
- ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر (ت ٣٠٠هـ/ ٩١٢م):
٣٧. الأعلام النفيسة، مطبعة بريل، (ليدن، ١٨٩٢م).
٣٨. التبر السلوك في ذيل السلوك، مكتبة الكليات الأزهرية، (القاهرة، د.ت).

- السخاوي، شمس الدين أبو الخير مُحَمَّد بن عبدالرحمن بن مُحَمَّد بن أبي بكر (ت ٩٠٢هـ/٤٩٦م):
٣٩. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة الحياة، (بيروت، د.ت).
- ابن سعد، أبو عبدالله مُحَمَّد بن سعد (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م):
٤٠. طبقات الكبرى، تحقيق: عبدالعزيز عبدالله السلومي، مكتبة الصديق، (الطائف، د.ت).
- السعدي، عبدالرحمن بن عمران بن عامر (ت ١٠٦٧هـ/١٦٥٦م):
٤١. ملوك السودان أهل سقي وقصصهم وأخبارهم وغزواتهم وذكر تنبكت ونشأتها ومن ملكها من الملوك، تحقيق: هوداس، مطبعة أنجي، (باريس، ١٨٩٨م).
- ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن سعيد المغربي (ت ٦٧٣هـ/١٢٧٥م):
٤٢. بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق: خوان قرنيط خنيس، (تطوان، ١٩٥٨م).
٤٣. الجغرافيا، تحقيق: إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة، (بيروت، ١٩٧٠م).
٤٤. المغرب في حلي المغرب، تحقيق: زكي حسن وآخرون، دار الكتب، (القاهرة، ١٩٥٣م).
- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م):
٤٥. حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، دار إحياء الكتب العربية، (القاهرة، ١٩٦٨م).
٤٦. رفع شأن الأحباش، تحقيق: مُحَمَّد عبدالوهاب فضل، (القاهرة، ١٩٩١م).
- ابن طولون، شمس الدين مُحَمَّد بن طولون (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م):
٤٧. مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر، (القاهرة، ١٩٦٤م).
٤٨. نقد الطالب لزغل المناصب، دار الفكر، (بيروت، ١٩٩٢م).
- أبو صالح الأرمني، أبو المكارم سعدالله أبو صالح الأرمني، (ت ق ٧هـ).

٤٩. تاريخ أبي صالح الأرمني، نشر أيفت، (أكسفورد، ١٨٩٣م).
- الصيرفي، الخطيب الجوهري علي بن داود (ت ٩٠٠هـ/٤٩٤م):
٥٠. نزهة النفوس والأبدان، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة، ١٩٩٤م).
- الطبري، مُحَمَّد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م):
٥١. تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب العلميّة، (بيروت، ١٩٩٧م).
- الظاهري، غرس الدّين خليل بن شاهين الظاهري (ت ٨٧٣هـ/٤٦٨م):
٥٢. الإشارات في علم العبارات، دار الفكر، (بيروت، د.ت).
- ابن ظهيرة، أبو إسحاق برهان الدّين علي (ت ٨٨٨هـ/٤٨٣م):
٥٣. الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة، ١٩٦٩م).
- ابن عبدالحق، صفي الدّين بن عبدالحق البغدادي (ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م):
٥٤. مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق: علي مُحَمَّد البجاوي، دار صادر، (بيروت، ١٩٥٤م).
- ابن عبدالحق، أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن الحكم القرشي (ت ٢٥٧هـ/٨٧٠م):
٥٥. فتوح مصر وأخبارها، تحقيق: عبدالمنعم عامر، (القاهرة، ١٩٦١م).
- ابن عبدالظاهر، محي الدّين أبو الفضل عبدالله بن رشيد (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م):
٥٦. تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق: مراد كامل، الشركة العربيّة للطباعة والنشر، (القاهرة، ١٩٦١م).
- أبو عبدالله مُحَمَّد بن أبي بكر (ت ٥٥٦هـ/١١٦٠م):
٥٧. الجغرافيا، تحقيق: مُحَمَّد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدّينية، (القاهرة، د.ت).
- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م):
٥٨. تاريخ دمشق، تحقيق: عمر بن غرامة العمروني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (بيروت، ١٩٩٥م).

- العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م):
٥٩. التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب
العلمية، (بيروت، ١٩٧٧م).
٦٠. مسالك الأبصار وممالك الأمصار، تحقيق: أحمد عباس وآخرون، نشر المجمع
الثقافي، (أبو ظبي، ٢٠٠٢م).
- العيني، بدر الدين العيني (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م):
٦١. السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة، ١٩٦٧م).
- الغرناطي، أبو حامد محمد بن عبد الحميد الأندلسي (ت ٥٦٥هـ/١١٦٩م):
٦٢. تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية،
(القاهرة، ٢٠٠٣م).
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ/١١١١م):
٦٣. إحياء علوم الدين، دار المعرفة، (القاهرة، د.ت.).
- أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل بن محمد (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م):
٦٤. تقويم البلدان، تحقيق: ينروماك، دار صادر، (باريس، ١٨٥٠م).
٦٥. المختصر في أخبار البشر، دار المعارف للطباعة والنشر، (بيروت، د.ت.).
- ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م):
٦٦. تاريخ الدول والملوك، ط. بيروت، ١٩٣٨م.
- ابن أبي الفضايل، مفضل بن أبي الفضايل القبطي (ت ٧٥٩هـ/١٣٥٧م):
٦٧. النهج السديد الدرر الفريد في ما بعد تاريخ ابن العميد، ط. باريس، ١٩٢١م.
- ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد بن عثمان الهمداني (ت ٣٦٥هـ/٩٧٥م):
٦٨. مختصر كتاب البلدان، تحقيق: يوسف هادي، عالم الكتب، (بيروت،
١٩٩٦م).
- الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ/١٤١٤م):
٦٩. القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة
والنشر، (بيروت، ٢٠٠٥م).

- ابن قتيبة الدينوري، عبدالله بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م):
٧٠. المعارف، تحقيق: ثروة عكاشة، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي المصري، (القاهرة، ١٩٦٠م).
- القزويني، زكريا بن مُحَمَّد بن محمود (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م):
٧١. آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، (بيروت، د.ت.).
- القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الغزاري (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م):
٧٢. صبح الأعشى في صناعة الأنشا، شرحه وعلّق عليه: مُحَمَّد حسين شمس الدّين، ط ٢، دار الكتب العلميّة، (بيروت، ٢٠١٢م).
٧٣. قلائد الجمان في التعرف بقبائل عرب الزمان، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط ٢، دار الكتاب المصري، (القاهرة، ١٩٨٢م).
٧٤. نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ط ٢، دار الكتب العلميّة، (بيروت، ٢٠١٢م).
٧٥. مآثر الأنافة في معالم الخلافة، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج، ط ٢، مطبعة حكومة الكويت، (الكويت، ١٩٨٥م).
- القنائي، الشّيخ أحمد الحنفي الأزهري (ت ١٣٢١هـ/١٩٠٣م):
٧٦. الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان، المطبعة الأميرية الكبرى، (القاهرة، ١٩٠٣م).
- الكلبي، أبو المنذر هشام مُحَمَّد (ت ٢١٨هـ/٨١٩م):
٧٧. نسب معد واليمن الكبير، تحقيق: ناجي حسن، مكتبة النهضة العربيّة، (بيروت، ١٨٨٨م).
- الماوردي، الإمام أبي الحسن بن علي بن مُحَمَّد بن حبيب (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م):
٧٨. الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ط ٢، مطبعة مصطفى إلیاس الحلبي، (بيروت، ١٩٦٦م).
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م):

٧٩. مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: مُحَمَّد محي الدِّين عبدالحميد، (بيروت، ١٩٨٣م).
- محمود كعت، ابن الحاج المتوكل كعت الكرمني، (ت ١٠٠٢هـ/١٥١٣م):
٨٠. تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر النَّاس وذكر التكرور وعظام الأمور وتفريق انساب العبيد من الأحرار، تحقيق: آدم يمبا، مؤسسة الرسالة، (بيروت، ٢٠١٤م).
- المقدسي، مُحَمَّد بن أحمد (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م):
٨١. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: غازي طليمات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، (دمشق، ١٩٨٠م).
- المقرئزي، تقي الدِّين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م):
٨٢. الإمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، دراسة وتحقيق: عبدالمنعم ضيفي عثمان عبدالمنعم، مكتبة الأزهر للتراث، (القاهرة، ٢٠٠٦م).
٨٣. البيان والإعراب عمَّا بأرض مصر من الأعراب، تحقيق: عبدالمجيد عابدين، (القاهرة، ١٩٦٠م).
٨٤. رسائل المقرئزي، دار الحديث، (القاهرة، ١٤١٩هـ).
٨٥. درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق: محمود الجليلي، دار الغرب الإسلامي، (بيروت، ٢٠٠٢م).
٨٦. الذهب المسبوك في ذكر من حج من خلفاء الملوك، تحقيق: جمال الدِّين الشيال، مكتبة الثقافة الدِّينية، (مصر، ٢٠٠٠م).
٨٧. السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: مُحَمَّد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلميَّة، (بيروت، ١٩٩٧م).
٨٨. المقفى الكبير، تحقيق: محمود البعلوي، (بيروت، ١٩٩١م).
٨٩. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المؤسسة المصرية العامة، (القاهرة، ١٩٦٣م).
- مسكويه، أبو علي أحمد بن مُحَمَّد بن يعقوب (ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م):

٩٠. تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تحقيق: أبو القاسم إمامي، نشر مكتبة سروش، (طهران، ٢٠٠٠م).
- المنجم، إسحاق بن الحسن (ت ٤هـ):
٩١. أكمام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، عالم الكتب، (بيروت، ١٩٨٧م).
- ابن منظور، جمال الدين مُحَمَّد بن مكرم الإفريقي (ت ٧١١هـ/١٣١١م):
٩٢. لسان العرب، دار الحديث، (القاهرة، ٢٠٠٢م).
- ناصر الدين، عبدالله بن الحسين بن الحسين بن مرعي البغدادي (ت ١١٧٤هـ/١٧٦٠م):
٩٣. النفحة المسكية في الرحلة المكية، المجمع الثقافي، (أبو ظبي، ٢٠٠٣م).
- ناصر خسرو، ناصر الدين بن حارث بن عيسى العلوي الأصبهاني (ت ٤٨١هـ/١٠٣٩م):
٩٤. سفر نامه، تحقيق: يحيى الخشاب، (القاهرة، ١٩٤٥م).
- النويري، شهاب الدين أحمد (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م):
٩٥. نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، (القاهرة، ٢٠٠٢م).
- الهمداني، أبو بكر بن مُحَمَّد بن أبي عثمان الحازمي (ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م):
٩٦. مختصر البلدان، (اليدن، ١٣٠٢هـ).
- الواقدي، أبو عبدالله مُحَمَّد بن عمر (ت ٢٠٧هـ/٨٢٣م):
٩٧. فتوح الشام، (بيروت، د.ت).
- الوزان، الحسن بن مُحَمَّد الوزان (ت ٩٦٠هـ/١٥٥٢م):
٩٨. وصف إفريقيا، ترجمة: مُحَمَّد الحسبي وآخرون، ط ٢، دار المغرب الإسلامية، (بيروت، ١٩٨٣م).
- ياقوت، شهاب الدين أبو عبدالله الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م):
٩٩. معجم البلدان، دار صادر، (بيروت، ١٩٧٧م).
- ابن يونس، عبدالرحمن بن أحمد بن يونس الصفدي أبو سعد (ت ٣٤٧هـ/٩٥٨م):

١٠٠. تاريخ ابن يونس، دار الكتب العلميّة، (بيروت، ١٤٢١هـ).

- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٩٢هـ):

١٠١. تاريخ اليعقوبي، منشورات المكتبة الحيدرية، (النجف، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م).

١٠٢. البلدان، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ١٩٨٨م.

ثانياً: المراجع الحديثة:

- ارنولد، توماس:

١. الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة

المصرية، (القاهرة، ١٩٧١م).

- الأمين، عوض الله:

٢. العلاقات بين المغرب والسودان في عصر السلطنتين الإسلاميتين مالي وصنفيّ،

جدة، دار المجمع العلميّ، ١٩٧٩م.

- البغدادي، إسماعيل باشا:

٣. هدية العرّافين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، مؤسسة التاريخ العربيّ،

(استانبول، ١٩٥١م).

- باري، مُحَمَّد فاضل علي وآخرون:

٤. المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ وحضارة، دار الرشد الإسلامية، (بيروت،

٢٠٠٦م).

- بصيلي، الشاطر:

٥. تاريخ وحضارات السودان الشرقي الوسط، المكتبة العربيّة، (القاهرة، ١٩٧٢م).

٦. تاريخ وحضارات السودان الوسطى، (القاهرة، ١٩٨٧م).

- أبو بكر، مُحَمَّد عثمان:

٧. تاريخ إثيوبيا المعاصر أرضاً وشعباً، (القاهرة، ١٩٩٤م).

- بلعراف، أحمد:

٨. إزالة الريب والشك والتفريط في ذكر المؤلفين من أهل التكرور والصحراء وأهل

شنقيط، مطابع الوحدة العربيّة، (ليبيا، ٢٠٠١م).

- بوفيل:
٩. الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى، ترجمة: زاهر رياض، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة، ١٩٦٨م).
- التأييب، صلاح:
١٠. القبائل المصرية، المطبعة العصرية، (القاهرة، ١٩٨٤م).
- جريمال، نيقولا:
١١. مصر القديمة، ترجمة: ماهر جويجاني، (القاهرة، ١٩٩٣م).
- جمل، شوقي:
١٢. تاريخ السودان وادي النيل، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة، ١٩٦٩م).
- جواد، علي:
١٣. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة دار الساقى، (بغداد، ١٩٩٣م).
- جوزيف، جوان:
١٤. الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء، ترجمة: مختار السويفي، دار الكتب الإسلامية ودار الكتب المصرية، (القاهرة، ١٩٨٤م).
- الحاج، تاج السيد عثمان:
١٥. تاريخ النوبة الاقتصادي والاجتماعي، ط. الخرطوم، (السودان، ٢٠٠٣م).
- الحويري، مُحَمَّد:
١٦. أسوان في العصور الوسطى، ط٢، (القاهرة، ١٩٩٦م).
- حسن، إبراهيم حسن:
١٧. انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى شرقي القارة الإفريقية وغربها، معهد الدراسات العربية العالمية، (القاهرة، ١٩٥٣م).
- حسن، سليم:
١٨. مصر القديمة، (القاهرة، ٢٠٠٠م).

- حسن، مُحَمَّد: ١٩. الجديد في تاريخ دولة وحضارة سبأ وحمير، وزارة الثقافة اليمنية، (صنعا، ٢٠٠٤م).
- حسن، يوسف فضل: ٢٠. مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي، دار جامعة الخرطوم للنشر، (الخرطوم، ١٩٨٩م).
- حسين، عبدالله: ٢١. مسألة الحبشة، المطبعة الرحمانية، (القاهرة، ١٩٣٥م).
- الدالي، الهادي: ٢٢. التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن (١٥-١٨م)، الدار المصرية اللبنانية، (القاهرة، ١٩٩٩م).
- الدكو، فضل كلود: ٢٣. الثقافة الإسلامية في التشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية كانم من ٦٠٠-١٠٠٠هـ، (طرابلس، ١٩٩٨م).
- دهمان، محمد أحمد: ٢٤. معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، (دمشق، ١٩٩٠م).
- ٢٥. المعجم الوجيز، (مصر، ١٩٩٢م).
- الرباحي، مفتاح يونس: ٢٦. العلاقات بين المغرب ودولة كانم وبرزنو، دار الكتب الوطنية، (ليبيا، ٢٠٠٨م).
- رزق، سليم محمود: ٢٧. عصر السلاطين ونتائجهم العلمي والأدبي، (القاهرة، ١٩٤٧م).
- رفلة، فليب: ٢٨. الجغرافيا السياسية لإفريقية مع دراسة شاملة للدول الإفريقية سياسياً واقتصادياً وطبيعياً، ط٢، مكتبة النهضة، (القاهرة، ١٩٦٦م).

- روكز، يوسف:
٢٩. إفريقيا السوداء سياسة وحضارة، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، (بيروت،
١٩٨٦م).
- رياض، زاهر:
٣٠. كنيسة الإسكندرية في إفريقيا، مطبعة الجيش، (القاهرة، ١٩٦٢م).
- الزركلي:
٣١. الأعلام، ط١٥، دار الملايين، (بيروت، ٢٠٠٢م).
- زيادة، نيقولا:
٣٢. الرحالة العرب، دار الهلال، (القاهرة، ١٩٥٦م).
- زيادية، عبدالقادر:
٣٣. مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (الجزائر،
١٩٧٠م).
- أبو زيد:
٣٤. طبقات النسابين، دار الرشيد، (الرياض، ١٩٨٧م).
- الشامي، صلاح الدين:
٣٥. الموانئ السودانية دراسة جغرافية تاريخية، مطبعة جامعة القاهرة، (القاهرة،
١٩٦٢م).
- الشامي، عبدالعال، عبدالمنعم:
٣٦. محاضرات في الجغرافية التاريخية، (القاهرة، ١٩٩٨م).
٣٧. معجم شمال المغرب، دار الكتب العربية، (القاهرة، ١٩٦٨م).
- شقير، نعوم:
٣٨. جغرافية وتاريخ السودان، دار عزت للنشر والتوزيع، (بيروت، ١٩٦٧م).
- شكري، أحمد:
٣٩. الإسلام والمجتمع السوداني لإمبراطورية مالي (١٢٣٠-١٤٣٠م)، المجمع
الثقافي، (أبو ظبي، ١٩٩٩م).

- شلبي، أحمد:
٤٠. موسوعة التاريخ الإسلامي (الإسلام والدولة الإسلامية جنوب صحراء إفريقيا منذ دخول الإسلام حتى الآن)، ط٥، مكتبة النهضة، (القاهرة، ١٩٩٠م).
- الصياد، مُحَمَّد محمود وآخرون:
٤١. السودان دراسة في الوضع الطبيعي والكيان البشري والبناء الاقتصادي، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة، ١٩٩٦م).
- طرخان، إبراهيم:
٤٢. إمبراطورية البرنو الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م.
٤٣. إمبراطورية غانا الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠م.
٤٤. دولة مالي الإسلامية، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة، ١٩٧٣م).
٤٥. مصر في عصر دولة المماليك، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩م.
- الطيف، علي حامد:
٤٦. مراكز التجارة الليبية وعلاقتها مع ممالك السودان الأوسط وأثرها على الحياة الاجتماعية في ق٨ و ق٩هـ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، (البيبا، ٢٠٠٣م).
- عابدين، عبدالمجيد:
٤٧. بين الحبشة والعرب، دار الفكر العربي، (القاهرة، ١٩٤٧م).
- عارف، شوكت:
٤٨. دولة كانم الإسلامية، دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية، دار دجلة، (الأردن، ٢٠٠٧م).
- عاشور، سعيد عبدالفتاح:
٤٩. الظاهر بيبرس، (القاهرة، ١٩٦٢م). العصر المملوكي في مصر والشام، ط٢، دار النهضة العربية، (القاهرة، ١٩٧٦م).
- عباس، حبيب علي:
٥٠. اريتريا عبر التاريخ، مكتبة مدبولي، (القاهرة، ١٩٩٧م).

- عبدالحليم، رجب مُحَمَّد: ٥١. العروبة والإسلام في إفريقيا الشرقية من ظهور الإسلام إلى قدوم البرتغاليين، دار النهضة، (القاهرة، ١٩٩٩م).
- عبدالرحمن زكي: ٥٢. الإسلام والمسلمون في غرب إفريقيا، مطبعة يوسف، (القاهرة، د.ت).
٥٣. صحاري مصر في العصور الوسطى، (القاهرة، ١٩٨٧م).
- عبدالعظيم رمضان: ٥٤. الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة، ١٩٩٩م).
- عبدالغني، مُحَمَّد: ٥٥. إفريقية، الأنجلو المصرية، (القاهرة، ١٩٩٧م).
- البغدادى، عبدالسلام: ٥٦. الجماعات العربيّة في إفريقيا دراسة في أوضاع الجاليات والأقليات العربيّة، مركز دراسات الوحدة العربيّة، (بيروت، ٢٠٠٥م).
- عبدالمنعم، محمود عبدالرحمن: ٥٧. معجم المصطلحات الفقهية، دار الفضيلة، ١٩٩٩م.
- عدنان، مُحَمَّد عبدالله: ٥٨. دولة الإسلام في الأندلس، نشر مكتبة الخانجي، (القاهرة، ١٩٩٠م).
- العفيف، الباقر: ٥٩. ما وراء دارفور، ترجمة: مُحَمَّد سلمان، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، (القاهرة، ٢٠٠٦م).
- عوض، السيد حنفي: ٦٠. النوبة والمجتمع التعاوني، مكتبة النهضة، (القاهرة، ١٩٨٤م).

- عوض، مُحَمَّد: ٦١. السودان الشمالي سكانه وقبائله، لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة، ١٩٥١م).
٦٢. الشعوب والسلالات الإفريقية، (القاهرة، ١٩٦٥م).
٦٣. نهر النيل، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، ٢٠٠٨م).
- عيانة، فتحي مُحَمَّد: ٦٤. جغرافية إفريقيا دراسة إقليمية مع تطبيق على دول جنوب الصحراء، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، (بيروت، ١٩٨٣م).
- غالب، مُحَمَّد السيد وآخرون: ٦٥. البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر، جامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود الإسلامية، (الرياض، ١٩٧٩م).
- القوصي، عطية: ٦٦. دولة كنوز الإسلامية، دار المعارف، (القاهرة، ١٩٧٦م).
- كارليل، توماس: ٦٧. فلسفة الملابس، ترجمة: طه السباعي، مطبعة بشلاوي، (القاهرة، د.ت).
- كريخال، آمارمول: ٦٨. إفريقيا، ترجمة: مُحَمَّد حجي وآخرون، مكتبة المعارف لتوزيع والنشر، (الرباط، ١٩٨٩م).
- كرم الصاوي باز: ٦٩. مصر والنوبة في عصر الولاة، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة، ٢٠٠٦م).
٧٠. ممالك النوبة في عصر المملوكي، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة، د.ت).
- لانجي، ديرك: ٧١. ممالك تشاد وشعوبها، اليونسكو، (لبنان، ١٩٦٨م).
- لويس، معلوف: ٧٢. المنجد في اللغة والأدب والعلوم، المطبعة الكاثوليكية، (بيروت، ١٩٦٦م).

- ليفتسكي، تاديوز: ٧٣. دور الصحراء الكبرى وأهل الصحراء في العلاقات بين الشمال والجنوب، اليونسكو، (لبنان، ١٩٩٤م).
- قاسم، عون الشَّريف: ٧٤. حلفاء الملوك، دار الجامعة دومان الإسلامية للطباعة والنشر، (السودان، ١٩٨٨م).
- قاسم، قاسم عبده: ٧٥. علاقات مصر بعالم البحر الأحمر، جامعة عين شمس، (القاهرة، ١٩٨٠م).
- قداح، نعيم: ٧٦. إفريقيا الغربية في ظل الإسلام، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (الجزائر، ١٣٩٤هـ).
٧٧. قبائل السودان، ترجمة: عبدالمجيد عابدين، مطبعة الخرطوم، ١٩٩٩م.
- مؤنس، حسين: ٧٨. ابن بطوطة ورحلته، دار المعارف، (القاهرة، ١٩٨٠م).
- مبارك، علي: ٧٩. الخطط الجديدة التوفيقية لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، ١٩٨٠م).
- مُحَمَّد، علي جمعة: ٨٠. المكابيل والموازن الشرعية، ط٢، القدس للنشر والتوزيع، (القاهرة، ٢٠٠١م).
- محمود، حسن أحمد: ٨١. الإسلام والثقافة العربيّة في إفريقيا، (القاهرة، ١٩٩٨م).
- مراد، حسين: ٨٢. دولة كانم الإسلامية وتطوراه السياسي والحضاري حتّى نهاية القرن ١٥هـ/١٥م، جامعة القاهرة، (القاهرة، ١٩٧٧م).

- مسعد، مصطفى مُحَمَّد: ٨٣. الإسلام والنوبة في العصور والوسطى، بحث في تاريخ السودان وحضارته حتى أوائل القرن السادس عشر، الهيئة المصرية للكتاب، (القاهرة، ٢٠١١م).
- المغراوي، أبو سهل مُحَمَّد: ٨٤. موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية، المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، (القاهرة، د.ت).
- المنجد، صلاح الدين: ٨٥. مملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين، (بيروت، ١٩٦٣م).
- النقيير، مُحَمَّد عبدالله: ٨٦. التأثير الإسلامي في غرب إفريقيا، مطابع الفرزدق التجاري، (الرياض، ١٩٨٨م).
- ناصر، مُحَمَّد رشيد: ٨٧. لغة آدم - عطاء أبدي لبني آدم، (جروس برس، ١٩٩٥م).
- نوري، دريد عبدالقادر: ٨٨. تاريخ الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء من قرن ٤هـ - ١٠هـ، مكتبة الوطنية، (بغداد، ١٩٨٥م).
- بن يوسف، إبراهيم صالح: ٨٩. تاريخ الإسلام وحياة العرب في إمبراطورية كانم وبرنو، جامعة الخرطوم، (السودان، ١٩٧٠م).

ثالثاً: الرسائل والأطاريح الجامعية:

- جلال، أفراح أحمد:

١. الجوانب المالية في كتاب صبح الأعشى في صناعة الأنشا للقلقشندي دراسة في التاريخ الإسلامي، أطروحة دكتوراه (غير منشورة)، (كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة ديالى، ٢٠١٧م).

- الفراجي، عمر هلال عبد:

٢. تاريخ قبائل البجة السياسي والاجتماعي والاقتصادي حتى (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الحرة في هولندا، ٢٠١١م.

رابعاً: الدوريات:

- الجميلي، عمار مرضي علاوي:

١. المؤثرات الإسلامية في مملكة برنو الإفريقية، مجلة كلية الإمام الأعظم، ٢٠١١م.

- سعيد، مصطفى:

٢. البجة والعرب في العصور الوسطى، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد ٢١، ج ٢، ديسمبر ١٩٥٩م.

- شبيب، بشار عبدالجبار:

٣. دولة مالي الإسلامية (٦٣٦-٨٨٦هـ)، مجلة ديالى للبحوث الإنسانية، العدد ٢٩، ٢٠١٣م.

- الشихلي، صباح إبراهيم:

٤. الوجود العربي في كانم في السودان الأوسط في القرن ١٣هـ/١٣م، مجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد ٣٤، م ٩، ١٩٨٩م.

- طرخان، إبراهيم:

٥. الإسلام والممالك الإسلامية في الحبشة في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، م ٨، ١٩٥٩م.

- كامل، مُحَمَّد سيد:
٦. منصب الوالي في عصر المماليك البحرية بمصر، مجلة التاريخ والمستقبل،
جامعة المنيا، عدد يناير، ٢٠١١م.
- ماهر، سعاد:
٧. محافظات الجمهورية العربية المتحدة في العصور الإسلامية، مجلة كلية الأدب،
جامعة القاهرة، م ٢١، العدد الأول، ١٩٥٩م.
- مزيان، إسرائ مهدي وآخرون:
٨. مشاهير مؤرخي عصر المماليك ومصنفاتهم التاريخية، مجلة كلية التربية،
جامعة واسط، العدد ٣، م ١، ٢٠٠٨م.